

رواية



# نور حياتي

مهناز محمود احمد





الهيئة العامة للكتاب  
مكتبة الإسكندرية

رئيس مجلس الإدارة

د. هيثم الحاج على

رئيس الإدارة المركزية للنشر

د. سهير المصادفة

الإخراج الفني

إلهام عارف

التصحيح اللغوى

محمد محسن

نور حياتى

رواية

تأليف/ جيهان محمود أحمد

أحمد، جيهان محمود

نور حياتى/ جيهان محمود أحمد القاهرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٨

تدمك ٩ ٢٠١١ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٥٩٩ / ٢٠١٨

I.S.B.N 978- 977-91-2011-9

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب

يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس إلا بإذن كتابى

من الهيئة المصرية العامة للكتاب أو بالإشارة إلى المصدر

رواية

# نور حياتي

---

جيهان محمود أحمد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٨

## إهداء

إلى بورسعيد الباسلة التى منحت وطننا الغالى "مصر" الحياة  
بدماء أحرارها .

و

إلى أمى - رحمها الله - التى أدين لها بالفضل بعد الله سبحانه  
وتعالى .

جهان محمود أحمد

القاهرة ٢٠١٦ م

## الفصل الأول : النور والظلمة

وأنا فى الظَّلام من غير شُعاع يَهْتِكُه

أقف مَكَانى بِخُوف ولا أترُكُه

ولما يَيجى النُّور وأشُوف الدُّروب

أحترار زيادة ٠٠٠ أَيْهُمْ أَسْلُكُه؟!

عجبنى !!

صلاح جاهين

(١)

" اذهبى إلى الجحيم أيتها الشيطانة".

بعينين يتطاير شرر الكراهية منهما أطلق يوسف كلماته وأتبعها  
بطلقة استقرت فى قلب المرأة التى يحجب الظلام الدامس ملامحها  
تمامًا، فسقطت جثة هامدة . ظهرت امرأة أخرى من بعيد تقترب منه،  
وكلما اقتربت خطوة اقترب متحفزًا مطبقًا يده على مسدسه حتى  
أصبحت على مسافة قريبة منه دون أن تتضح ملامحها، فأطلق  
رصاصته لتستقر فى قلبها فسقطت بلا حراك .

باغته ضوء قوى من بعيد، فأشاح بيديه مبعدًا الضوء الذى زحف  
نحوه فركض يوسف هربًا منه فتنبعه الضوء، فظل يركض وفجأة  
اصطدمت جبهته بحائط فسقط مغشيًا عليه .

اننفذ يوسف تتسارع دقات قلبه لاهثًا، يتأمل الحجرة فزعًا ثم بدأت  
السكينة تتسلل إلى نفسه رويدًا رويدًا مع تسلل شعاع الشمس بخفة  
غازيًا ظلام الحجرة، ولكنه يعجز عن غزو القلوب المظلمة لتشرق  
وتنبض فيها الحياة .

القلوب المظلمة لا يغزوها سوى قلوب مضيئة خلقت على شاكلتها  
وتناقضت فى نبضها لتمنحها الحياة، لكن حرارة الشمس لم تنفذ إلى  
قلب يوسف المتجمد، فتقلب فى فراشه محاولًا إبعاد النور عن عينيه،  
لا يدرى هل يريد إبعاده عن عينيه أم عن قلبه ؟ هذا القلب الذى  
ارتبط بالحياة بدقات كبندول الساعة تعلن عن وجودها لا عن حياتها .

تثاءب يوسف وظل يحملق فى الحجرة المظلمة إلا من نور الشعاع المتطفل، فظل يرقبه ساخطاً شاردًا فى ذلك الحلم الذى يراوده من حين إلى آخر، واستقر فى عقله أنه سيصير قاتلاً يوماً ما، فأصابه ذلك بالفرع •

لم يطل شروده كثيراً قرر أن ينهض من سريره وجذب الستائر وفتح النافذة متأملاً الحديقة التى يطل عليها منزله بحى المعادى، ثم رفع رأسه نحو السماء فبدا ضوء الشمس قوياً لا يحتمله فحجبه بكفه ثم أغلق النافذة وجذب الستائر، وتناول المنشفة ثم اتجه نحو الحمام ووقف تحت الصنبور تندفع منه المياه بقوة تتناثر على وجهه وجسده، بينما كان يوسف شاردًا تمامًا •

لقد حباه الله مقومات الجاذبية من الصبا إلى القوام الممشوق، والوجه الوسيم الذى نحتته الخالق كما ينحت المثلّ المحترف تحفة رائعة فجاءت عيناه الواسعتان العميقتان تجتذبانك كما تُجذب الفراشة نحو النور، وسرعان ما تكتشف جمودهما بعد أسرك فتحترق كما تحترق الفراشة بالنار • وأنفه يعبر عن كبرياء واعتزاز بالذات وشفقتان مطبقتان معظم الوقت تؤثران الصمت على الكلام فلا تخرج مفرداته إلا للضرورة •

أغلق يوسف الصنبور وجفف وجهه ولف المنشفة حول خصره، ثم خرج متجهاً إلى حجرته فأضاء نور الحجرة التى بدت عامرة بقطع الأثاث الفاخرة، ولكنها تخلو من حياة فلا تعرف الزهور إليها سبيلاً، ولا اللوحات الفنية مكاناً ولا صوراً لأشخاص سوى صورته •

ارتدى السروال ثم القميص، وعلق رابطة العنق حول ياقة القميص دون أن يعقدها، ثم وضع عطرًا إنجليزيًا فواحًا وصفف شعره الحريري الأسود، وحمل سترته وغادر الحجرة •

اتجه إلى صالة الاستقبال التي تحوى ركنين: الأول طاقم صالون ذهبي فاخر به جهاز إسطوانات (جرامفون) وبجواره مكتبة تحوى إسطوانات لكبار المطربين، والثانى يحوى سفرة فاخرة حفلت بألوان الطعام الفاخر من زبد وجبن فرنسى وبيض مسلووق وشرائح خبز وفنجان القهوة باللبن مشروب يوسف المفضل •

جلس عجوز إلى السفرة تجاوز الخامسة والستين من عمره، تملك الشعر الأبيض من رأسه ولكن لم تملك علامات الزمن من وجهه الذى بدا متماسكًا بجسد رياضى يناقض عمره، مرتديًا نظارة تعينه على القراءة، مشغولًا بمطالعة الصحيفة عما يحدث حوله فلم يلتفت إلى حضور ذلك الشاب الذى أشرف على تربيته، رغم أنه لا صلة دم تربطه به ولكنه ينتمى إليه أكثر مما لو جاء يحمل جيناته؛ حُرْم مختار الراوى - زوج عمّة يوسف - من الإنجاب فمنحه الله ذاك الطفل الذى فقد والديه فى طفولته لقد جمعهما الحرمان ثم الحب الذى نما مع الزمان، فصار ذلك الشاب قرّة عينه وقلبه النابض بعد رحيل زوجته حبيبة العمر •

ظل يوسف برهة يتأمل مختار الذى بدا مشغولًا تمامًا بمطالعة صحيفة أجنبية عنه، فقرر يوسف أن يلفت انتباهه فتساءل وهو يضع الزبد على شريحة الخبز:



– عمى، ما الذى يشغلك؟

انتبه العجوز ورمقه بنظرة من فوق نظارته ثم خلعها ووضعها على  
السفرة بضيق شديد تجاوزها الصحيفة • فابتسم يوسف وقال:

– صباح الخير يا عمى •

– صباح النور يا يوسف •

أخرج العجوز غليونيه من جيب قميصه ووضعها فى فمه، ثم أشعله  
ونفث دخانه فى الهواء مخرجًا شحنة غضب قوية، فتساءل يوسف:

– هل تحمل الصحيفة أنباءً سيئة؟

– نعم أنباء سوداء •

– لماذا؟! •

– لقد رفض الأمريكان تمويل السد العالى •

يرشف العجوز من فنجان القهوة السادة الأثير لديه بينما يبدو يوسف  
غير مبالي:

– أمر متوقع يا عمى •

– لم أتوقعه؛ دائماً لدى فيض من أمل يغذى روحى ويحميها من  
اليأس •

– إذا كان الأمل فى الله فليكن فيضاً كفيضان النيل السعيد الذى نحلم  
أن يكبح جماحه هذا السد المرتقب، وإذا كان فى هؤلاء فليجف كجفاف  
النيل الذى نأمل مواجهته بهذا السد أيضاً •

– الأمل دائماً فى الله يا ولدى، ولكن إرادته تتحقق بالأسباب والبشر  
جزء من هذه الأسباب •

– البشر! ألا تتذكر ما فعلوه باليابان فى الحرب العالمية الثانية؟! ولكن  
الرئيس خارج البلاد كيف أعلنوا رفضهم؟!

يرشف يوسف من فنجان القهوة باللبن بينما ينفث مختار دخان  
غليونه فى غضب:

– هذه هى المهانة الحقيقية؛ استدعى وزير الخارجية الأمريكى  
"فoster دالاس" سفيرنا لديهم السيد "أحمد حسين" وأخبره بالرفض،  
وعندما خرج من مكتبه وجد وكالات الأنباء تذيع الخبر •

– إنها مهانة بالغة! ولكن ما أسباب الرفض؟

يشير مختار بكفه إلى الجريدة ثم يعقب:

– مصر دولة فقيرة وبناء السد سيجبر المصريين على تقشف أكثر من  
خمسة عشر عاماً، كما أن مياه النيل ليست ملكاً لمصر وحدها؛ هناك  
دول أخرى على مجرى النهر •

– كذب فاضح ومهانة فائقة أراها تؤصل لسياسة جديدة سنتبناها أمريكا  
معنا •

– نعم وغالبًا يكمن السبب الحقيقى فى السلاح الذى حصل عليه جمال  
عبد الناصر من المعسكر الشرقى ربما يروونه عميلاً للاتحاد  
السوفيتى، فقرروا القضاء عليه حتى يخسروا أول حليف لهم فى  
العالم العربى ولا سيما أكبر دولة عربية •

– عميل للاتحاد السوفيتى! مازال الشيوعيون فى السجون وهذا يدل على رفضه استرضاء الاتحاد السوفيتى، كما أن مصر لا تنتهج سياسة شيوعية •

– هذا رأيك أنت أما هم فلهم رأى آخر هو ما يحرك الأحداث الآن •

– السبب الحقيقى يا عمى فى تقديرى هو الضغط عليه من أجل الاعتراف بإسرائيل، وقبول قرار التقسيم • وإن قبلت مصر سيتبعها العرب وبذلك يضمنون أمن إسرائيل •

– هو لن يقبل بهذا مطلقاً يا يوسف • والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هل سيخضع ويتجاهل هذا المشروع العملاق أم سيواجههم؟

– أنت من طرح السؤال يا عمى وأنت أيضاً من سيجيب عنه •

– وما دورك فى النقاش؟! متفرج أنت إذن •

يبتسم يوسف ثم يرشف من القهوة باللبن:

– إن تحليل شخصيات الناس جزء من عملك كطبيب نفسى •

– لقد فعلت ذلك على الفور منذ لاح نجمه فى الأفق •

– اعرض مهارتك إذن •

– إن المقدمات تأتى بالنتائج لقد صمد فى حصار الفالوجة فى حرب فلسطين وسط ظروف عصيبة وهذا يقودنا إلى شخصية ترفض الاستسلام، ولا تعرف إلا الصمود فى الأزمات •

– أضيف أمراً آخر حتى لا أَلعب دور المتفرج، توقيع اتفاقية الجلاء يشير إلى إصراره على الاستقلال لذا فالسؤال الآن: ماذا يدور برأس الأسد ردًا على الإهانة المزدوجة.

– لأعلم ولكن فى ضوء كل ما تقدم أستطيع ان أجزم أنه سيكون ردًا عنيفًا.

– وسيوصل لصورة جديدة لمصر أمام القوى العظمى بل العالم كله.  
– ولكن كيف السبيل يا يوسف إلى تمويل السد؟! وتكلفة بنائه باهظة.

يبتسم يوسف مهوّنًا الأمر على الطبيب العجوز:

– لا تتعجل الأمور يا عمى، علينا أن نتسلح بالصبر فى مواجهة الفضول القاتل، ولننتظر ما ستسفر عنه الأيام.

– أوافقك الرأى فلنضع حديث السياسة جانبًا ولنحدث عن الحياة.  
– الحياة! حياة من؟!

– حياتك أنتَ يا ولدى.

يرمقه يوسف بنظرة من فهم ولكنه يتجاهله فورًا ويرشف فنجان القهوة باللبن معقبًا:

– أنا على خير ما يرام؛ أتقدم فى عملى يومًا بعد يوم.

– أنتِ تعى ما أقصد.

– أنا لا أفهم ما ترمى إليه.

- سامحك الله أنت تصر على إيلاى وحرمانى من راحة البال .
- عمى أرجوك لقد أغلقنا هذا الأمر .
- لن أغلقه أبداً؛ لا أحتمل ان أتركك وحيداً فى هذه الحياة .
- لستُ وحيداً؛ لدىّ عملى الذى أعشقه وهواياتى، وحياتى التى ترضينى وتكفينى .
- لاقيمة لكل هذا بدون زوجة حنون تشاركك .
- يقاطعه يوسف بحدة:
- إن قلبى طاهر برئ لا أريد أن تدنسه امرأة، أو تصيبه خيانتها فيذبل سريعاً .
- بل سيذبل لأنه لم يعرف الحب ولم تدخله امرأة . ما أعجب هذه الحياة! طبيب القلوب لا يؤمن بالحب الذى يشفى القلوب .
- الحب خديعة تجيدها المرأة للاحتيال على الرجل والحب لا يشفى بل يقتل .
- لم يخلق الله البشر متماثلين .
- هذا ما أريدك أن تعرفه، لك قناعاتك التى أحترمها ولى قناعاتى التى أرجو أن تحترمها .
- يتنهد العجوز ويشعل غليونه فى غضب شديد بينما يرشف يوسف القهوة كاتمًا غضبه، يرمقه العجوز بنظرة تنبئ عن رجائه فى التحدث معه فى أمر مُلح ولكنه يتراجع .

- يدق جرس الهاتف فينهض يوسف:
- إنها المستشفى بالتأكيد • لقد استدرجنا الحديث ونسيت العمل •
- يتجه نحو الهاتف فى ركن الصالون ويحيب:
- ألو ••• نعم أنا ••• جهزوا غرفة العمليات أنا قادم فوراً •
- يضع السماعة ويسرع نحو السفارة فيرتدى سترته ويعقد رابطة عنقه •
- يبدو أن المريض حالته خطيرة •
- نعم، على الذهاب فوراً •
- يلتقط يوسف سلسلة المفاتيح متعجلاً:
- أراك مساءً يا عمى بمشيئة الله •
- ينصرف يوسف مسرعاً ويغلق الباب خلفه بينما يتهدد الطبيب العجوز:
- المساء يعنى العيادة والمرضى ثم جلسة الشطرنج ثم النوم استعداداً إلى يوم آخر جدوله كسابقه ولاحقه رتيب؛ يحيل الحياة إلى عبء ثقيل •
- يأتيه صوت من داخله مؤنباً ومعاتباً:
- لا تكن جاحداً بنعمة الله؛ فلديك عملك ومرضاك الذين لا تنتهى حكاياتهم وإن كانت مؤلمة فهي تحمل جديداً يحتاج إلى تفكيرك، وحينما تتمكن من تخفيف آلامهم تحقق سعادة تنسيك آلامك، وهذا الشاب الرائع الذى من الله به عليك • عن أى ملل تتحدث إذن؟!

– ربما أخطأت التعبير وجانبني الصواب •

يأتيه الصوت من داخله:

– ربما قصدت شعورك بالوحدة حينما تأوى إلى فراشك، تذكر أنك من  
فرضها احتراماً لذكرى حبيبة العمر، فلماذا الضجر والشكوى؟!

– إن الشكوى تراودنى أحياناً لأننى بشر يمل ويفتر، وأبثها إلى الله  
الذى يعلم طبيعة نفوسنا ويرحمنا ولا يسفه آلامنا • وبالتأكيد أحمده على  
ماذكرته أيتها النفس القاسية بل أزيدك من ذكر نعمه الصحة الموفورة  
ويسر الحال •

يتنهد مختار ثم يشعل غليونه ويرتدى نظارته ويعود إلى مطالعة  
الصحيفة من جديد •



(٢)

"ما أبدع شروقك يا بورسعيد!"

بإعجاب عبرت "نور" عن مشهد الشروق.

بدا المشهد لوحة رائعة للطبيعة الخلابة. يقع منزل نور في "الحى الأفرنجى" بمدينة بورسعيد الذى يحاكى أحياء أوروبا ووفد سكانه من بلاد متعددة من هذه القارة، وأقام به بعض المصريين الذين ارتبطوا معهم بمصالح خاصة.

كانت نور ذات ملامح أجنبية؛ بشرتها بيضاء فى نقاء القطن، وجنتاها بلون حمرة الورد وأنفها دقيق، ذات شفاه رقيقة ولها عينا بلون السماء، ذات قوام ممشوق أشبه بقوام الفرنسيات؛ لها خصر نحيل متوسطة الطول، شعرها وحاجباها الكثيفان ينافسان سواد الليل.

لم يكن جمال نور يكمن فى ملامحها بل كان له منبع آخر هو روحها المتفائلة، وقلبها المتسامح الذى يشبه فى نقائه قلوب الأطفال؛ لا ذاكرة له فى إساءات الآخرين محب للحياة والانطلاق فجاءت ملامحها تشبه الأطفال رغم أنها كانت فى الخامسة والعشرين من عمرها.

استنشقت نور الهواء النقى الذى يفوح بعطر زهور الحديقة، ثم قررت دخول حجرتها التى تقع فى الطابق العلوى من منزلها المكون من طابقين. كانت حجرتها تشبهها؛ عنوان الجمال والحياة تزينها الزهور واللوحات البديعة التى كانت نور تبدعها بروحها الفنية.



أخذت نور المنشفة واتجهت إلى الحمام، وملأت حوض الاستحمام بالمياه ثم وضعت نقاط من زيت "اللافندر" أشاع في الحمام رائحة زكية تبهج النفس، ثم ألفت بجسدها في حوض الاستحمام وأغمضت عينيها واسترخت تمامًا.

لقد اعتادت أن تبدأ يومها على هذا النحو ليمنحها طاقة من التفاؤل والبهجة تؤهلها ليومها وما يمكن أن يحمله من آلام أو ضغوط.

بعد مرور ثلاثين دقيقة نهضت ثم لفت المنشفة حول جسدها وخرجت ثم اتجهت إلى المراة ونظرت إلى وجهها ثم ابتسمت ورددت:

"سيكون يومًا جميلًا إن شاء الله احذري العبوس والغضب؛ الحياة تستحق الابتسامة لنعبرها والرضا بما نلنا من نعم لنسعد بها، والصبر على ما يصيبنا فعمره قصير كعمرنا".

هذه العبارات ميراث نور من جدتها لأنها وهى بالنسبة لها ميراث أعظم من الذهب.

اتجهت نور إلى خزانة الملابس وانتقت ثوبًا صيفيًا بديعًا وردى اللون وارتدته، ثم لفت حول خصرها النحيل حزامًا جلدًا أبيض اللون، ولفت حول شعرها شريطًا أبيضًا ثم ارتدت حذاء ذا كعب مرتفع أبيض يزينه وردة رقيقة وردية اللون على جانبه، ثم وضعت عطرًا فرنسيًا فواحًا وأرسلت إلى نفسها قبلة في المراة.

انطلقت نور تنتهادى على السلم متجهة إلى الطابق السفلى. كانت والدتها تضع الطعام على المائدة الذى يحوى خبزًا وزبدًا ومربي

وبيضاً وزيتوناً، ثم وضعت إناء الشاي وإناء السكر وفنجانين  
فارغين •

كانت نور تشبه والدتها سارة فى حسنها وجمالها، وإن كانت والدتها  
قصيرة القوام ممثلة قليلاً • اتجهت نور نحو والدتها مبتسمة وطبعت  
على خدها قبلة رقيقة:

– صباح الخير يا أمى الحبيبة •

– صباح النور يا نور قلبى وحياتى، ما أروع صباحى حين يبدأ  
بابتسامتك المشرقة!

– استمدها من جمالك يا أمى •

– لقد ولى الجمال مع رحيل الشباب يا حبيبة قلبى الجمال الآن جمالك  
أنتِ •

– الجمال لا يرتبط بالعمر بل بإحساسنا ويمكن أن يلزمنا كدقات قلبنا  
مادمنا أحياء •

– ما هذه الفلسفة يا نور؟! •

تضحك نور ثم تجلس إلى المائدة المستطيلة التى يجاورها خزانة  
للأوانى الصينية، يعلو سطحها لوح زجاجى كالمرآة فوقه زهرية بها  
ورود، وجهاز أسطوانات يجاورها مكتبة •

تتأمل نور الزهور التى أوشكت أن تذبل فتنهض قائلة:

– لا بد أن أذهب إلى الحديقة الآن •

– تناولى إفطارك ثم افعلنى ما شئت •

– لن أستمع بإفطارى إلا إذا ذهبت إلى الحديقة أولاً •

تحمل نور الزهرية وتذهب إلى المطبخ وتتناول ما بها من زهور وتنشرها فى أنحاء المطبخ فتشيع به رائحة زكية؛ ذبول الورد لا يعنى ذهاب رائحته، ثم تفرغ ماء الزهرية وتضع ماء جديداً ثم تذهب إلى خزانة الأوانى الصينية وتضع عليها الزهرية •

تبتسم سارة: "أنتِ رائعة يا نور"

ترسل إليها نور قبلة عبر الهواء ثم تنطلق إلى الحديقة فتجمع باقة من الزهور متنوعة الألوان والأنواع فتقطف عوداً من الريحان تشمه منتشية برائحته، ثم تغسله تحت صنوبر المياه الموجود داخل الحديقة • تنطلق فوراً إلى المنزل وتضع باقة الزهور فى الزهرية ثم تجلس وتقطف ورقتين من عود الريحان تضعهما فى إناء الشاى؛ كانت هى ووالدتها مغرمتان بتناول الشاى بالريحان كما كانت تضعه مع بعض الأطعمة • أعطت نور عود الريحان لأُمها التى عبرت عن استمتاعها برائحته الزكية قائلة:

– ما أروع هذه الرائحة! ما أبدع الخلاق العظيم!

– الروائح الطيبة تبهج النفس وتزيل الهموم يا أُمى •

تنتهد سارة وهى تضع عود الريحان على المائدة:

– لو كان الأمر على هذا النحو لهانت الأحزان وزال القلق من النفوس •

تنتبه نور إلى حزن يكسو ملامح والدتها فجأة فتعقب:

– ماذا بك يا أمى؟!!

– لا شئ يا حبيبتى • تناولى إفطارك •

– تبدين حزينة يا أمى أخبرينى بما يحزنك •

– بل قلقة مما أذاعته الإذاعة فى الصباح •

– ماذا حدث؟!!

– لقد رفض البنك الدولى تمويل السد العالى •

تضع نور الزبد على قطعة من الخبز غير مهتمة بما سمعت:

– أهذا ما يشغلك؟!!

– نعم إن جمال عبد الناصر يبدو لى شخصاً متهوراً لا يمكن التنبؤ  
بردود أفعاله •

– وما شأننا بالسياسة؟! إنها لعبة الدسائس والمؤامرات تدمر من  
يجيدونها فما بالك بالذين يجهلونّها تمامًا •

– تتحكم السياسة فى مصائرنا وأحزاننا وأفراحنا؛ كان مجيئنا إلى  
مصر بسبب السياسة •

– ما الذى يقلقك بالضبط؟

أجابت سارة وهى تصب الشاي:

– ربما انتقم جمال عبد الناصر من رعاياهم فى مصر •

- عمن تتحدثين؟
- عن الأمريكان • وإذا مس رعاياهم بسوء فسيكون لهم رد فعل لا يعلم مداه إلا الله •
- ماذا تقصدين؟ أخشى أننى مازلت لا أفهمك •
- رشفة سارة رشفة من فنجان الشاي ثم استطردت تقول:
- ربما أدى الأمر فى النهاية إلى نشوب الحرب •
- الحرب! لا أعتقد أن تصل الأمور إلى هذا الحد •
- بل تصل إلى أكثر من هذا • والحرب موت وخراب لا يدرك ويلاتها إلا من كابدها •
- لا تسلمى رأسك إلى الأفكار المتشائمة تعبث بها، فربما كانت أوهامًا فلا تدعيها تفسد حياتك •
- لا أعتقد يا ابنتى •
- إذن فعلينا أن نعمل بنصائح جدتى •
- تبتسم سارة وتقول:
- كانت نصائح جدتك نبراسًا لى فى حياتى ولكنها لم تقننى شر الأيام التى غدرت بى وأذاقتنى الآلام فأفقدتني الأمان، وهذا يناقض ما تعلمته من أمى •
- لاتنسى أنها أيضًا ذاقَت من الزمان الآلام ولكنها لم تفقد طعم الأمان •

– منذ توفيت هى ووالدى تولد لدى شعور بعدم الأمان فصرت أخاف عليك من ظلك •

– الأمان بالله • وقد سخر لنا بعد وفاتهما من ير عانا أطل الله فى عمر خالى •

– الحمد لله ولكن القلق لا يفارقنى •

– عفواً يا أمى، لنحيا اللحظة الحالية ننعم بما فيها من سعادة ولا نشغل بالنا بما يمكن أن يحدث فى اللحظة القادمة، فربما كان ما يشغلنا مجرد أوهام تفسد حاضرننا ومستقبلنا •

– ربما كنتِ محقة ولكن هذا لن يمنع القلق عنى •

– لا تستسلمى لوساوسك يا أمى وإن حدث ما نخشاه فعلينا أن نخبر أنفسنا أن الضيق يأتى بعده الفرج فهذا يهون علينا الألم •

– سأحاول أن أقنع نفسى بما تقولين •

– هناك أمر آخر، لاتتابعى نشرات الأخبار لأنها تميل إلى التهويل لجذب انتباه الناس والسياسة كالنار تحرق كل من اقترب منها، ونحن لا مصلحة لنا فيها فلا ينبغى أن ينالنا نيرانها •

تنهض نور وتتجه نحو (الجرامافون) وتضع الأسطوانة به وهى تقول:

– هذه أسطوانة جديدة لليلى مراد تضم مجموعة من الأغنيات الرائعة •

تعود نور إلى الجلوس بينما تغنى ليلى مراد (جواب حبيبى) •

تبتسم نور منتشية بصوت ليلى مراد وتعقب : "ليلى مراد أميرة الغناء".

– حقاً ولكن تظل أم كلثوم هى ملكة الغناء الأثيرة لدى.

– لا مانع لدى مطلقاً؛ كلتاها تطربنى وتهز مشاعرى.

– وماذا عن الروايات؟

– إنها غذاء روحى وقلبى يا أمى الحبيبة.

– استيقظت فى الواحدة ليلاً فوجدتُ حجرتك مضاءة.

– كنت أطلع رواية سلبت اهتمامى لم أستطع النوم إلا بعد الفراغ منها.

– ما اسمها؟

– غادة الكاميليا.

تنهدت سارة بقوة وشردت قليلاً ثم عقت:

– إنها رواية رائعة رغم كل الأسى الذى يغلفها، لقد قرأتها فى الماضى. وأشفقت على المصير الأليم للبطلة الذى أسلمنى فى نهاية الرواية إلى نهر دموع ينافس نهر النيل.

– عفواً يا أمى، هل تشعرين أنكِ واجهتِ نفس مصير البطلة؟!

تبتسم سارة:

– لأعتقد؛ لم أستسلم مثلها بل قاومت آلامى جراء فراق والدك، كنت مجرد دماء فى أحشائى والجسر الذى يربطنى بالحياة وسد منيع بينى وبين اليأس الذى تربص بى من حين إلى آخر •  
– ولكنك مازلت تحبينه رغم انفصاله عنك، بل ورحيله عن الحياة بعد ذلك!

– ربما كان هذا ما أ تطابق فيه مع بطلة الرواية •

– إذن الحياة مسرح كبير كما نسمع وليست الروايات إلا سردًا لما يحدث فى الحياة •

– العاقل من تعلم من تجارب الآخرين حتى يتجنب ويلات الحياة •

– يمكننا أن نتعلم حقًا ولكن هناك أقدار كالسيل لا نستطيع إيقافها ولا مواجهة آثارها •

يقطع الحديث صوت جرس الباب فتنهض نور فى حين تنظر سارة إلى ساعة يدها قلقة:

– من يأتينا فى هذه الساعة المبكرة؟!

أجابت نور مبتسمة:

– إنهما سميرة وإيرينى لقد اتفقنا على قضاء اليوم على الشاطئ •

تفتح نور الباب فترى سميرة صديقتها وهى شابة تماثل نور فى العمر طويلة سمراء ذات عيون واسعة سوداء نحيفة، وإيرينى ابنة خال نور



فى العشرىن تقرىبًا قصيرة نحيلة بىضاء عىناها بنىتان واسعتان  
وشفاها رقىة •

ابتسمت سميرة حىنما رأت نور وحيثها:

– صباخ الخىر يا نور •

– صباخ النور يا سمس صباخ الخىر يا رىرى •

– صباخ النور يا نور أسرتنا •

– تفضلا •

تدخل الفتاتان بىنما تغلق نور الباب •

تبسم سارة وتقول:

– صباخ الخىر أيتها الزهرتان الجمىلتان •

– صباخ الفل والىاسمىن يا عمتى الجمىلة •

– صباخ النور يا خالتى •

– كم أعشق كلمة خالتى منك يا سميرة إنها تنبئ عما بداخلك من حب  
تجاه نور •

– وتجاهك أىضًا وأنا سعىة أنها تنال حبك وكنت أخشى أن تنال  
ضىقك •

– لماذا تصورت ذلك يا سميرة؟! •

– لأنها كلمة لاتتناسب مع "الحى الأفرنجى" بل تناسب حينا "حى العرب".

– كيف تفكرين هكذا وأنت تعلمين كيف دخل أبى بورسعيد؟! وفضل "حى العرب" علينا عظيم.

تشير نور إليهما بيدها قائلة:

– دعكما من هذا الحديث ولتتناولا الإفطار حتى نذهب إلى الشاطئ.

تضحك سميرة: "لقد أفطرت وتناولت شاي والدتى المضبوط".

– وأنا أيضاً يا عمى تناولت الإفطار.

– كما تحبان استمتعا بوقتكما.

تحمل سارة الأطباق بينما تتهامس الفتيات فترمقهن سارة بنظرة حانية يخالطها إعجاب ثم تتجه إلى المطبخ. تقترب نور من السلم قائلة:

– انتظرانى قليلاً سأصعد لأحضر أدوات الرسم ثم نتجه إلى الشاطئ فوراً.

تسرع نور إلى الطابق العلوى، بينما تقترب سميرة من (الجرامافون) تستمع إلى ليلى مراد فتتراقص مع اللحن متظاهرة أنها تراقص شخصاً ما كما كانت ترى فى السينما التى تعشقها وتدخر من راتبها لتدخلها فى نهاية الأسبوع.

أما إيريني فقد بدت شاردة حزينة انتبهت سميرة فلاحظت شرودها فتوقفت عن الرقص وخفضت صوت (الجرامافون) وتساءلت:

– إلى أين وصلت يا إيريني؟!

– إلى نفس المحطة •

– ماذا تقولين؟!

– إلى نفس مصير حوارى اليانس مع والدى •

تهز سميرة رأسها متفهمة وتقول: "عريس جديد" •

– نعم يتمسك به والدى لتحقيق حلمه المجنون بينما يحيل حياتى إلى كابوس أكثر جنوناً •

– ولماذا لا تمنحين نفسك فرصة لمعرفته ربما تعلقت به؟!

– أنا لا أطيقه رغم وسامته وثرائه •

– لماذا؟!

– إنه عبد خاضع لرغبات أبيه، لا إرادة له مثلى وأنا أريد من يحررنى لا من يزيدنى قيوداً •

– تمط سميرة شفتيها بينما تستطرد إيريني:

– لقد ماتت أمى لأصبح ريشة تعصف بها إرادة أبى وطموحاته المجنونة •

– الحرية والعبودية بيدنا لا بيد الآخرين •

– ماذا تقصدين؟

– أقصد أنك تنتظرين من يحررك وهذا تصور خاطئ تمامًا.

– لماذا؟

– الحرية لا يمنحها أحدٌ لغيره مجانًا فلا بد أن تدفعي له ثمن تحريرك فسيكون قيدًا جديدًا.

تهبط نور حاملة حقيبة بيدها اليسرى وحامل الرسم باليمنى، وتقترب من الفتاتين فتلاحظ الحزن والشرود على وجه إيريني، فتتظر إلى سميرة نظرة تساؤل فتشير إليها لتحاورها منفردتين بعيدًا عن إيريني. تقترب سميرة ونور من (الجرامافون) الذى تغلقه نور ثم تهمس إلى سميرة: "ماذا حدث؟!".

– كابوس جديد أقصد عريسًا جديدًا يتمسك به خالك تمسك قطٍ وقع فى مصيدته فأر.

– ماذا؟! لا أدري متى تنتهى هذه المسرحية السخيفة؟

– إن إيريني هى الوحيدة التى تستطيع أن تنهيها لأنها قصتها هى.

– إنها تريد ولكنها لا تستطيع.

– إننا نستطيع حينما نريد.

– لا ليس الأمر بهذه السهولة؛ من نشأ خاضعًا اعتاد العبودية.

– وقد يشترق إلى الحرية وهى بالفعل تتمناها ولكنها لا تبذل جهدًا للوصول إليها.

- تعالى معى أريد أن استوضح منها الأمر .
- تقترب نور من إيريني وتربت على كتفها بحنان:
- ماذا حدث يا إيريني؟
- كما أخبرتك سميرة فلست غائبة عن الوعى كما تعتقدان .
- لماذا يتشبث به خالى هكذا؟!
- إن والده ينوى السفر إلى "أرمينيا" وإقامة مشروع كبير هناك بمشاركة خالك .
- فهمت ولكن لماذا لا تحاولين اتخاذ موقف حاسم ولو لمرة واحدة فى حياتك؟
- كيف؟
- اطلبى مقابلته وأخبريه أنك لا تريدين الزواج به لا لعيب بشخصيته ولكن . . .
- تقاطعها إيريني: "إنه مثلى لا يملك من أمر نفسه شيئاً لذا سيكون حديثى مع والده" .
- إنه كارثة وليس كابوساً كما تقول سميرة .
- تبكى إيريني ثم تعقب: "قليرحمنى الرب" .
- تربت نور على كتفها: "لا تبكى يا حبيبتي ودعى الأمر لى" .
- ماذا ستفعلين؟

- لا أعرف الآن سأفكر بصحبة دانيال وحتماً سنجد حلاً.
- لا يا نور لا أريد أن يصطدم دانيال بأبى مرة أخرى.
- أنت تتحدثين وكأن دانيال صديقاً لنا أو جاراً إنه أخوك وأنتِ تدركين كم يجبك.
- لهذا لا أريد أن يكون حبه لى كاللعنة التى تصيب علاقته بأبى.
- إن خالى يعيش من أجل حلم أصبح أسيراً له، وينسى أنكما كبرتما وصار لكما مشاعر وأحلام تخصكما وإرادة منفصلة عنه.
- إرادة! تحدثى عن دانيال فقط أما أنا فليرحمنى الرب وليعتقنى من هذه الحياة لأجاور أُمى
- والسيد المسيح فى عالم أفضل من هذا العالم البغيض.
- لا يا إيرينى لا يصل بك اليأس إلى هذا الحد، لماذا لا تتعلمين من دانيال الذى لا يعياً بأحلام خالى وطموحاته، إنه يدخر من عمله معه فى الأستديو ليقوم مشروعاَ خاصاً به فى مصر ليستقل عنه ولا يضطر إلى السفر معه إلى أرمينيا، ولا أعتقد أنه سيتزوج إلا من يريد لها قلبه.
- لم يخلقنا الله متشابهين.
- تبدو الدهشة على وجه سميرة التى ترد بغضب شديد:
- ولكنه خلقنا متكافئين؛ وهبنا جميعاً عقلاً وإرادة ونحن من يملك استخدامهما أو إهمالهما

تبكى إيريني: "أنا لا أستطيع أنا لا أستطيع".

تحتضنها نور:

– هونى عليك يا حبيبتي ودعى الأمر لى، فلننطلق إلى الشاطئ الآن  
ربما كان المكان هناك وحيًا لحل مشكلتك • من يدري؟



## الفصل الثاني: لن أغفر

تَسَامُحُ النَّفْسَ مَعْنَى مِنْ مَرُوءَتِهَا  
بَلِ الْمَرُوءَةِ فِي أَسْمَى مَعَانِيهَا

تَخْلُقُ الصَّفْحَ تَسْعِدُ فِي الْحَيَاةِ بِهِ  
فَالنَّفْسُ يُسَعِدُهَا خُلُقٌ وَيُشْقِيهَا  
أحمد شوقي



## (١)

تصبب جبين يوسف عرقاً فى غرفة العمليات التى لبث فيها أكثر من ساعتين فى حر "يوليو" جففت الممرضة عرقه، فامتعض وأزاح رأسه بعيداً ثم نظر إلى الممرضة الأخرى لتعطيه المقص الطبى، فلم تجبه لشروء أحالها إلى صنم، فنظر إليها مرة أخرى فلم تنتبه إليه مطلقاً فنظر إلى الممرضة التى كانت تجفف عرقه لتعطيه المقص، فمئحته المقص واستمر فى إجراء العملية الجراحية لقلب المريض •

خرج يوسف من حجرة العمليات غاضباً ينزع اللثام الطبى عن وجهه فى حين بدت الممرضة فزعة تهرب بعينيها منه بعد أن انتهت إلى ما حدث داخل غرفة العمليات ترتجف، فاقترب يوسف منها معقّباً بغضب يكفى لإعادة سيرة حريق القاهرة:

– حجرة العمليات ليست مكاناً للشروء؛ المكان الأنسب حديقة الأندلس أو سفينة فى النيل •

– عفواً يا دكتور ما هذا الكلام؟!

– ماذا تنتظرين منى وأنتِ تشردين داخل غرفة العمليات؟! هل أشكرك و أهديك باقة ورد حمراء لتكتمل الصورة؟!

– عفواً لدى مشكلات كثيرة •

– إننا ننحى مشكلاتنا بعيداً حينما ندخل غرفة العمليات؛ أرواح الناس أمانة فى أعناقنا •

يقترب منهما الدكتور سعيد شاب ذو شارب أسود بلون شعره ووجهه مستدير • يلمح الغضب الشديد على وجه يوسف والحرص على وجه الممرضة فيتساءل:

– ماذا حدث يا دكتور يوسف؟

– هذه المخلوقة كانت شاردة بحجرة العمليات وتتعلل بمشكلات لديها •  
– لقد اعتذرت إليه يا دكتور سعيد فلم يقبل اعتذارى ونهرنى بعبارات جارحة •

– اصمتى الاعتذار لا يبرر جريمتك، لا أريد أن أراكِ ارحلى •

تتصرف الممرضة باكية • يربت سعيد على كتف يوسف قائلاً:

– لندخل مكتبنا أريد التحدث إليك •

ينادى سعيد على رجب العامل فيأتى الفتى مسرعاً:

– نعم يا دكتور سعيد •

– أحضر لى فنجاناً من القهوة المضبوط وأحضر ليوسف القهوة باللبن وتعالى بهما إلى مكتبي •

– أمرك يا دكتور سعيد •

يصطحب سعيد يوسف إلى مكتبه ويجلسان فيتأمل سعيد يوسف قائلاً:

– لماذا تنهرها بهذه الحدة يا يوسف؟!

– لقد كادت أن تفقدنى صوابى وأنا أجرى الجراحة •

- لقد أخطأت ولا ريب فى ذلك ولكن هذا لا يستدعى منك كل هذا الغضب، لقد مرت العملية بسلام وكان فى إمكانك لومها دون أن تغضب على هذا النحو.
- أنا لأقتنع بعمل هؤلاء النساء؛ إنهن أصل البلاء فى الحياة لذا ينبغى تطهير الأعمال منهن.
- النساء والرجال بشر فيهما الالتزام والتقصير على حد سواء.
- ليس صواباً؛ الالتزام رجل والتقصير والا مبالاة امرأة.
- من أين جنّت بهذه الأفكار العجيبة؟!
- ألم تُخلق المرأة من ضلع أعوج اكتسبت صفاته وهى سبب اعوجاج الكون.
- أنت تنسى أمراً هاماً حينما تصم النساء وتهينهن هكذا.
- ما هو؟!
- إن والدتك كانت امرأة.
- يرمقه يوسف بنظرة غضب فيتخرج سعيد ويعقب:
- عفواً أنت من أساء إلى المرأة لا أنا، وأنا واثق تماماً أنها كانت سيدة رائعة لأنها أنجبتك واهتمت بتربيتك حتى صرت طيبياً رائعاً كما أنت الآن.
- يشرّد يوسف بعيداً بأسى شديد فينبهه سعيد:
- فيم شرودك؟

– لاشئ أنا لأريد الاسترسال فى الحديث عن هذا الموضوع •

– هذا أفضل؛ أنا أريد التحدث معك فى موضوع آخر •

– أى موضوع؟

يطرق رجب الباب ثم يدخل حاملاً صينية عليها قهوة مضبوطة يضعها أمام سعيد، ثم يضع القهوة باللبن أمام يوسف وينصرف • ينظر يوسف إلى فنجان القهوة باللبن متنهّداً ومتحدثاً:

– كم أحتاج إلى هذا الفنجان؛ لقد ضاع أثر فنجان الصباح بسبب هذه الغيبة •

– ها أنت تعود بنا إلى الحديث الذى رفضته منذ ثوانٍ قليلة •

– أعتذر ما الموضوع الذى أردت الحديث عنه؟

– مشروع عظيم؛ سيكون بمثابة نقلة كبيرة لنا •

يرشف يوسف من القهوة باللبن متسائلاً: "مشروع! نحن أطباء فما علاقتنا بالمشاريع؟!" •

– وسنظل أطباء •

– كيف؟! فسر أكثر •

– لى صديق يملك شقتين متجاورتين بعقار بحى "جاردن سيتى" وسيجعلهما عيادة تضم كل التخصصات، وأخبرنى أنه مشروع سنجنى منه ربحاً وفيراً •

– وما علاقتى بهذا المشروع؟

- لقد حدثته عنك وعن شهادتك التى حصلت عليها من إنجلترا وكفاءتك التى يشهد بها الجميع ويريد أن تنضم إلى المشروع •
- عرض جيد ولكن ليس لدى وقت أنت تعلم أننى أعمل بالعيادة فى المساء يوميًا إلا يوم الجمعة إجازتى التى أتمسك بها للحصول على قسط من الراحة يمنحني طاقة الأسبوع المقبل، لقد تعلمتُ هذا فى إنجلترا •
- يمكنك الاستقالة من عملك هنا فى الصباح كما سأفعل لتشارك فى المشروع •
- ماذا تقول؟! •
- يوسف إن الفرصة تأتى مرة واحدة وضياعها يعنى الندم الشديد لأنها لا تعود ثانية •
- مشروحك هذا ربما يكون فرصة لك ولكنه نكبة على الفقراء •
- لست أنا من خلقهم فقراء؛ هذه إرادة الله وحكمته •
- وهل تقتضى حكمته أن ندير ظهورنا إليهم؟! •
- سيجدون من يعالجهم ولكن لا يعقل أن تضيع كفاءتك الفذة مع هؤلاء فى هذا المكان الرديء •
- آسف ما تطلبه يتعارض مع قناعاتي وإيماني بحق الفقير فى العلاج الجيد •

- هذا الكلام يصلح أمام مكبر صوت فى "المنشية" أو فى صحيفة حكومية تنطق بما تريده هذه الثورة التى تتعدى على قانون الحياة وتريد أن يتساوى جميع البشر •
- ليس لدى رحابة صدر لأناقش معك ما تفعله حكومة الثورة التى تسخط عليها كما أرفض تمامًا أن أدير ظهرى إلى هؤلاء الفقراء •
- لولا أنى أعلم أصلك جيدًا لاعتقدت أنك تنتمى إليهم •
- الانتماء لا تمليه صلة الدم فقط؛ نحن أبناء وطن واحد ينبغى أن يهتم كل منا بالآخر لننعم بالأمان والاستقرار •
- مازلت متأثرًا بما تسمع من خطب وستضيع كفاءتك مع من لا يستحقون • أليس لديك طموح؟!
- طموحى يتركز فى إجادة مهنتى وانتفاع الآخرين بها ولو كان لدى مال وفير لأقمت مشروعًا كالذى تتحدث عنه من أجل أن ينعم الفقراء بهذه النوعية من الرعاية الطبية •
- أأست إنسانًا كبقية البشر؟!
- ما تعرضه خارج حدود الإنسانية •
- ستندم حتمًا على هذه الفرصة •
- عقب يوسف ساخرًا: "التنعم بفرصتك ولتدع الندم لى" •



(٢)

"الدكتور يوسف فى طريقه إلى العيادة"٠

أطلق راضى العامل هذه العبارة ليطمئن المرضى المنتظرين  
بالعيادة المشتركة بين يوسف ومختار ثم عاد إلى مراجعة سجل  
أمامه٠

تقع هذه العيادة فى نفس العقار الذى يقيم فيه يوسف ومختار، تتكون  
من حجرتين وصالة استقبال يفصلها حاجز لا يصل إلى نهاية الحائط  
مزخرف، يفصل بين مرضى يوسف ومرضى مختار٠

وبنظرة يسيرة يدرك المرء كثرة المرضى المترددين على يوسف  
فى حين يدرك ضالة عدد المترددين على مختار لأن الطب النفسى لا  
يؤمن به إلا فئة قليلة من المثقفين أما أنصاف المتعلمين فلا يهتمون به  
كثيراً، وربما اعتبروه رفاهية مبالغ فيها والبسطاء يحل الدجال لديهم  
محل الطبيب النفسى لذا فنوعية المترددين على مختار فئة واحدة  
تدركها من مظهرهم الثرى٠

والمرضى المترددون على يوسف من طبقات مختلفة فمنهم الأثرياء  
ومنهم الطبقة المتوسطة ومنهم الفقراء، وهؤلاء يرد إليهم يوسف قيمة  
الكشف فى الخفاء حتى لا يجرح مشاعرهم والأثرياء داخل العيادة يثير  
وجود هؤلاء البسطاء ذوى الملابس الرثة ضيقهم ولكنهم يتحملون  
وجودهم لمهارة يوسف الذى لا يباريه طبيب فى تخصصه٠

بعد قليل دخل يوسف حاملاً حقيبتة الطبية محيياً:

– مساء الخير •

"مساء النور يا دكتور" بانتباه شديد أجاب راضى وأسرع ليأخذ الحقيبة ثم دخل راضى حجرة الكشف ووضع الحقيبة على المكتب بينما خلع يوسف سترته وعلقها خلفه على المقعد وجلس متسائلاً:  
"كيف حالك يا عم راضى؟" •

– الحمد لله على كل شئ •

– العيادة مزدحمة الليلة!

– ماشاء الله يا دكتور •

يتنهد يوسف فيلمح راضى علامات الإجهاد على وجهه فيقول:

– تبدو مجهدًا يا دكتور •

– نعم؛ أجريت أكثر من عملية اليوم بالمستشفى •

– هل تريد أن أعتذر إلى المرضى المتأخرين؟

– لا سأكون على ما يرام • أدخل المريض الأول وأعد لي فنجانًا من القهوة باللبن •

– تحت أمرك •

ينصرف راضى فيضع يوسف يديه على عينيه مسترخيًا فيسمع طرقًا على الباب فيجيب ومازالت يدها على عينيه: "ادخل" •

تدخل سيدة جميلة أنيقة ذات عطر قوى يوقظ يوسف من استرخائه فيبعد كفيه عن عينيه فيراها وهي تنهادر حتى تقترب منه، يمتلكه



- الغضب الشديد فيحاول السيطرة على غضبه فيشير إلى مقعد أمامه  
فتجلس السيدة وهى تنظر بجرأة إلى عينيه ثم تعقب:
- أشكرك أنت رقيق جدًا •
- خيرًا ما الذى يؤلمك؟
- أشعر بوخزة فى قلبى وتتسارع دقاته بشدة فأشعر أنى سألفظ أنفاسى  
الأخيرة •
- متى تشعرين بذلك؟
- لا أفهمك يا دكتور •
- ثم تعض على شفتيها فيشيع بوجهه بعيدًا •
- هل يحدث ذلك عند سماعك خبر مفرح أو محزن؟ هل عند  
استيقاظك أو عند نومك؟
- فهمت يحدث صباحًا ومساءً •
- أرجو أن توضحى أكثر •
- تتصنع الخجل وتحنى رأسها ثم ترفعها:
- عند خروجك من المنزل صباحًا وعند عودتك إليه مساءً •
- ماذا؟ ماذا تقولين؟!
- أنت سبب مرضى يا دكتور يوسف وستكون سببًا فى موتى؛ أنا أقيم  
بالعقار المجاور لك

يقاطعها طرق راضى على الباب ثم دخوله حاملاً صينية عليها  
فنجان القهوة باللبن يضعه أمام يوسف، فيشكره ثم يَهَمّ بالانصراف  
فيستوقفه يوسف قائلاً:

"من فضلك أعد إلى السيدة قيمة الكشف واصطحبها إلى الخارج".  
ترتسم أمارات الدهشة والغضب على وجه السيدة التى تنهض  
وتواجهه:

– كيف تجرؤ على فعل ذلك معى؟!

– لا علاج لكِ لدى وإياكِ أن تأتى هنا ثانية حتى وإن كنت تلفظين  
أنفاسك الأخيرة حقاً لا زيفاً.

– أنت طبيب فاشل.

– احترمى ذاتك وإلا ستغادرين العيادة بصورة تجبرك على مغادرة  
المعادى بأسرها.

تلوى وجهها بغضب وتنصرف وتدفع الباب خلفها بحدة. يلتفت  
يوسف إلى راضى:

– لا أريد أن أرى أحداً.

– أمرك يا دكتور يوسف. هل تريد ان أصرف المرضى؟

– لا ولكن لا تدخل أحداً حتى تسمع صوت الجرس.

– كما تريد يا دكتور.

ينصرف راضى ويغلق الباب خلفه بينما يضرب يوسف المكتب  
بقبضة يده:

– أنا بالفعل طبيب فاشل فى علاج العاهرات هذا الجنس الذى لا يشغله  
فى الحياة سوى شهواته الحيوانية، ماهذا اليوم الأسود؟! إهمال  
بالصباح وعهر بالمساء فليرحمنى الله •

يسمع يوسف طرْقًا على باب الحجرة فيغضب ويجيب صارخًا:

– قلت لك لا تدخل أحدًا حتى تسمع صوت الجرس •

يفتح نبيل صديق يوسف الباب حاملاً حقيبة فى يده فيهدأ يوسف حين  
يراه ولكن لا تختفى ملامح الغضب رغم تصنعه الهدوء وافتعال  
ابتسامة كاذبة فيقترب نبيل مبتسمًا ومتسائلًا:

– ماذا حدث يا (جو)؟!

(جو) هو اسم التدليل الذى يناديه به نبيل معظم الوقت •

أجاب يوسف بغضب: "مريضة مستفزة بل تدعى المرض" •

– ولماذا تدعى المرض؟! هل تشفق على حالك المسكين وأرادت  
المساعدة؟!!

– لا إنها عاهرة حقيرة حلقة فى سلسلة جنس تتملكه الأنانية •

– عليك أن تعلم أن النساء والرجال سواء فى الصلاح والفساد •

– للمرة الثانية اليوم أسمع هذا الدفاع، يؤلمنى أن يدافع رجل عن  
امرأه •

- المرأة بهجة الحياة مهما بدا بعضهم مزعجاً.
- ولماذا ترفض أن تدخل البهجة حياتك؟!
- لقد أحببت امرأة واحدة وحالت الظروف بيني وبينها ولم أستطع نسيانها أما أنت
- يقاطعه يوسف: "أرجوك لقد سئمت هذا الحديث الذى لا فائدة منه".
- أنت محق لقد استنفذنا أنا وعمى كل أساليب الإقناع فلندع الأمر إلى الأيام لنتحدث فيما هو مفيد . لقد أحضرت لك كمية من الأدوية للمرضى المحتاجين .
- فتح نبيل الحقيبة ليطلع يوسف على الأدوية وفجأة سمع الاثنان ضجيجاً عالياً من الخارج فنهض يوسف وخرج إلى صالة استقبال المرضى، وخلفه نبيل فشاهدا رجلاً ذا ملابس فاخرة متجاوزاً الخمسين من عمره يواجه راضى بغضب شديد:
- هذا أمر لا يليق كيف يدخل هؤلاء إلى العيادة؟!
- ظهر الدكتور مختار خارجاً من حجرته يستكشف ما يحدث .
- اقترب يوسف من الرجل الغاضب متسائلاً بدهشة:
- ماذا حدث ؟!
- هل أنت الدكتور يوسف؟
- نعم أنا لماذا تصرخ هكذا؟!

يشير الرجل الغاضب إلى مريض ملابسه رثة يفوح منها رائحة عفنة وحذائه ممزق مرتدياً عمامة فوق رأسه: "هل يليق بعبادة فاخرة بحى المعادى أن يدخلها هؤلاء؟!".

يتخرج المريض الفقير فيهمُ بالنهوض فيمنعه يوسف:

– كما أنت يا والدى وأرجو أن تقبل اعتذارى نيابة عن الأستاذ.  
تكسو الدهشة وجه الرجل الغاضب:

– ماذا تقول؟! أنا اعتذر إلى هذا ألا تعرف من أنا؟

– لا يعنينى ولكن يهمنى أن تعرف أن هذه العبادة لها قواعد، وأولها أن يحترم كل مريض ذاته ولا يرفع صوته ولا يتدخل فيما لا يعنيه أتفهم؟

ثم يلتفت يوسف إلى راضى أمراً:

– أعد إليه قيمة الكشف وإلى كل من لا يعجبه مرضانا.

يبدو الحرج والدهشة على وجه الرجل الغاضب فيرمقه يوسف بنظرة غضب شديدة بينما يبدو نبيل متحفظاً إلى الفتك به، فيمسك يوسف ذراعه وينصرفان إلى حجرة الكشف ويجلس يوسف ويظل نبيل واقفاً فيتساءل يوسف: "لماذا لا تجلس يا نبيل؟!".

– أكاد أنفجر من الغضب لقد مزق قلبى إحراج الرجل المسكين، ودموعه الحبيسة لماذا لم تتركنى أسدد إلى هذا المتغطرس لكمة فى أنفه الشامخ لملابسه الفاخرة التى تخفى نفساً وضيعة.

– لقد أذقته ما يكفى لتبتل ملابسه الأنيقة التى يتباهى بها ويخفض أنفه الشامخ •

– إن أمثاله كثيرون؛ للأسف لم تغير الثورة شيئًا •

– التغيير لا يأتى بقرار جمهورى وإنما يحتاج إلى تغيير ثقافة المجتمع التى جُبلت على الطبقة والتعالى على الآخرين • كل مرض يأخذ وقته للاستئصال ويحتاج إلى نقاهة ليُشفَى صاحبه تمامًا •

– ومن المسئول عن استئصال المرض؟

– الإذاعة والسينما والرئيس الذى لا يألو جهدًا فى تطبيق ثقافة المساواة على نفسه وأسرته أنا وأنت وأمثالنا ينبغى أن نكون حلقة الوصل بين الطبقتين المتصارعتين لتقليل الهوة بينهما، فلا تركز نظرك على هذا المتغطرس؛ ليس البشر سواء •

يرمقه نبيل بدهشة رافعًا حاجبيه: " أتبدل قناعاتك بهذه السرعة وماذا عن النساء؟" •

يمسك يوسف بفنجان القهوة باللبن غاضبًا: "هل أؤذفك بالفنجان حتى ارتاح منك؟"

– سأألقفه بمفى لأستمتع به •

يبتسم يوسف ونبيل •



(٣)

"دع الشطرنج الليلة".

بملامح حزينة تحدث العجوز إلى يوسف متجهًا إلى الشرفة، ثم ألقى نظرة في الفضاء المظلم ثم جلس، وأخرج غليونه وأشعله وألقى بعود الثقاب بضيق داخل الطفاية ثم نفث دخان الغليون بغضب استرعى انتباه يوسف، فترك "الشطرنج" ورمقه بدهشة متسائلًا:

– ما الأمر يا عمى؟!

– اجلس أود أن أتحدث إليك في أمر هام.

جلس يوسف تسيطر عليه الحيرة بينما كان العجوز يمهد لحديث ثقيل ثم استجمع قوته وقال:

– والدتك.

– من؟!

– والدتك تصارع الموت.

نهض يوسف غاضبًا وهمَّ بالانصراف فألقى العجوز غليونه في الأرض صارخًا في وجهه: "اجلس يا ولد لم أفرغ من حديثي بعد وليس من الأدب أن تتركني أتحدث وتنصرف".

يبدو الحرج على وجه يوسف فيجلس متسائلًا بغضب: "ماذا تريد مني؟"

– تريد أن تراك.

- ألن تكفّ عن هذا الطلب؟!!
- وأنت ألن تكفّ عن عنادك ورفضك لها؟!!
- إن رفضى له ما يببره أما طلبها فلا مبرر له.
- ألم تسمعنى؟! إنها تصارع الموت إنها أمك.
- ألم تكن أمى حينما فعلت بى ما فعلت فى الماضى؟!!
- كل إنسان يخطئ والأرض لا تأوى الملائكة.
- وكل إنسان عليه أن يدفع ثمن أخطائه.
- إن الله غفور رحيم.
- إن الله غفور رحيم لأنه قدير أما أنا فمخلوق يفتقر إلى هذه القدرة.
- ينظر العجوز إلى يوسف بحنان وعطف متحدّثاً بلىن:
- لابد أن يكون لك من اسمك نصيب.
- لا أفهمك يا عمى.
- لقد ظلّم سيدنا "يوسف" عليه السلام من أخوته الذين ألّفوه فى الجُب ومن امرأة العزيز التى تربي فى بيتها وكان بمثابة ابن لها، وافترت عليه بالكذب ورغم كل ذلك سامحهم.
- لست نبياً.
- لقد أنزل الله قصص الأنبياء لتكون عبرة لنا نتعلم منها دروس الحياة.



- لم أنشأ نشأة دينية مثلك يا عمى فلا أفهم ما تقول •
- يتنهد العجوز بيأس عاقداً حاجبيه ثم ينفرج وجهه ويعاود الحديث بحنان وعطف •
- استمع إلى جيداً يا ولدى قبل فوات الأوان •
- لقد فات الأوان بالفعل •
- إنها مازالت على قيد الحياة وربما تغادرها بعد ساعات قلائل وحينها لن يجديك الندم •
- لقد غادرت الحياة منذ سنوات طويلة ولكنها لا تنتبه إلى ذلك •
- لا إنها إنسان له ظروفه ومبرراته وإذا كانت قد اخطأت فهذا لا يعنى موتها •
- يشيح يوسف بوجهه بعيداً، فيعيد العجوز وجهه إليه بوجه جاد:
- ليس هذا وقت الفلسفة؛ إنها على فراش الموت لقد اتصلت بى ولم أصدق أذنأى حينما سمعت صوتها؛ بدا لى صوت من العالم الآخر وكل ما نطقته به "أريد أن أرى ولدى" وبعدها حادثتى زوجها وأخبرنى أنها مريضة بفشل كلوى وتنتظر ساعة الخلاص •
- إنها تخدعك بادعائها الممرض •
- اتق الله يا ولدى إن صوتها ينبئ عن مرض شديد •
- لقد سمعت صوتها فهل رأيته؟! •

ينظر العجوز إليه نظرة تردد ثم يستجمع شجاعته قائلاً: "نعم رأيتها".

– ماذا؟!

– وليتني لم أرها لقد صارت هيكلًا عظيمًا خاليًا من كل معاني الحياة كل ما يربطه بها أنفاس زائفة ألا يكفي ما تعانيه؟!

– إذن ذهبت لتلقاها وتحديث إليها وأنت الآن تريد إقناعي بما اتفقتما عليه.

– لقد قابلتها مرات عديدة وأحرقت قلبي دموعها بسبب صدك ورفضك لها. ترفق بها يا ولدي.

– ولماذا لم تترفق هي بي؟! لماذا تركتني ورحلت حينما كنت أحتاج إليها؟!

– أخطأت وقد نالت جزاءها يكفيها ما عانت في هذه الحياة.

– اذهب إليها وقل لها أنت الآن تحصدين ما زرعته من قبل.

ينصرف يوسف بينما يتنهد مختار بحزن شديد ويأس.



(٣)

"لا توبة لشيطان مطلقاً" .

بإصرار همس يوسف فى نفسه ثم دفع باب حجرته خلفه بعصبية شديدة ليصبح أسيراً للظلام والجدران الأربعة، ولكنه فى حقيقة الأمر كان أسيراً للماضى الذى يسكن بداخله وقد أصبح حاضراً فى كل لحظة يحياها هذا المخلوق الشقى .

خلع يوسف سترته ثم تحرر من رابطة عنقه وألقاهما على الفراش وجلس مسنداً رأسه إلى الوسادة شاردًا يخرج زفرات تكفى لإحراقه، ربما احترق منذ زمن وهو لا يدري ولم يعد يبقى منه الآن سوى رماد .

صار بقايا إنسان رغم ما يفعله لمساعدة الآخرين ليحيوا سعداء ولكن هذا لا يكفى ليكون الإنسان على قيد الحياة؛ إنه كالآلة تقدم العون إلى الآخرين لكنها بلا روح هكذا صارت حياته .

مد يده وفتح الكومود بجواره وأخرج منه إطاراً ذهبياً يحوى صورة لوالده الذى يشبهه كثيراً إلا من شارب كثٍ يميزه يبدو مبتسماً ابتسامة عريضة، يجاوره فى الصورة سيدة جميلة ذات ملامح تركية تحمل طفلاً . كانت والدته وكان هو ذاك الطفل .

تأمل يوسف الصورة فى أسى باكياً بلا دموع؛ لم تكن الدموع من مفردات حياته . ألقى بالصورة على الفراش وتنهَّد مستعيداً ذكريات شكلت وجدانه وقناعاته .

"سأزورك من حين إلى آخر" • كانت هذه عبارة سمعها من والدته وقد حزمت حقائبها وتخلصت منه بينما والده قد ثبت في مكانه يشبه تمثالاً جامداً يستسلم لمالكة •

كانت هذه السيدة تملك والده كما يملك الإنسان سيارة يديرها كيفما يشاء لذا برحيلها صارت السيارة مهملة حتى تكهنت •

أشجان هانم والدة يوسف فانتة الإسكندرية من أسرة ثرية عريقة، وكان رب الأسرة مقامرًا والمقامر لا يلعب بأوراقه فقط بل يقامر بأوراق من يتعلقون به لذا اضطر إلى بيع أملاكه لسداد ديونه واضطر بعدها إلى تزويج ابنته من السيد "عوى مريد" والد يوسف حتى ينقذ أسرته من شبح الإفلاس وليضمن لابنته حياة كالتى عهدتها منذ نعومة أظفارها •

كان والد يوسف محامياً ذا ثروة طائلة وشهرة واسعة في الأوساط القانونية باعتباره محامٍ حاذق في مهنته، ولكنه يكبر أشجان بخمسة وعشرين عاماً ولم تعارض أشجان بل قبلت فوراً الارتباط به لأنها لمست ولعه بها فأدركت أنه رغم مكانته القانونية سيصبح خاتماً في إصبعها ولن يرفض لها طلباً، وانشغاله بعمله سيمنحها حرية اعتادت عليها وهكذا تمت الصفقة بين المال والجمال •

مرت الأعوام ومنَّ الله عليهما بطفل جميل ولكنها لم تعبأ به لانشغالها بنفسها فأسندت تربيته إلى مربية كانت أمه الحقيقية وأباه أيضاً لانشغال عوى بعمله، فكان لقاؤه الوحيد بهما على مائدة الغداء

وربما تعذر ذلك أيضاً فاضطر إلى تناوله مع المربية ورغم إهمالهما الشديد له كان يوسف متعلقاً بهما بشدة •

تلخصت حياة أشجان فى النادى وحفلات الأصدقاء وصالونات الأزياء التى أنفقت عليها أموالاً طائلة دون أن يحاسبها زوجها أو حتى يلقى كلمة لوم كى لا يغضبها، وبخاصة بعد أن تقدم به العمر وبدا المدى بينهما جلياً، لقد أدرك بمرور الوقت أنه اشترى المرأة وعجز عن شراء قلبها فالقلب ليس سلعة تُعرض فى الأسواق يمكن شراؤها، كانت أشجان تعطيه بقدر ما يدفع •

وبينما يوسف يقترب من التاسعة كانت والدته قد غرقت فى علاقة مع أحد رجال الأعمال تعرفت عليه من خلال النادى، استطاع هذا الشاب أن يعزف لحن حياتها ويلبى لها احتياجات أهم من المال وما يليه من سكن وطعام وملابس فاخرة شبعنت منها •

لقد قدم لها ما كانت تحلم به قبل أن يلقى بها الواقع فى بئر هذا المُسن، وسرعان ما تطورت العلاقة بينهما ليقرر "سليم" الزواج بها غير مهتم لأمر طفلها ولم لا؟ لقد تزوج إنجليزية تعرف عليها فى رحلة إجازة صيفية بلندن وأنجبت له طفلاً، ثم دبّت الخلافات بينهما فقرر الانفصال عنها وتركها هى والطفل وعاد إلى مصر فلم يكن غريباً أن يشترط عليها التنازل عن حضانة طفلها لتتفرغ له، ووافقت أشجان التى وجدت فى هذا الرجل تعويضاً عن سنوات جميلة بددتها فى سجن زوجها •

وجاءت اللحظة التى أحالت حياة يوسف من برودة الثلج الذى كان يعيشه مع والديه إلى جحيم مستعر تشظى معه المنزل • طلبت أشجان الطلاق من زوجها الذى بدا ذاهلاً متألماً وتساءل:

– ماذا فعلت؟!!

– لم أعد أحتمل هذه الحياة الذابلة التى سيذبل معها شبابى •

– لماذا؟!!

– أنت تعرف جيداً •

يحنى الرجل رأسه ثم يرفعها مفتعلاً الجهل: "ربما انشغلت عنك وأعدك أن أعوضك عما فات" •

– يبدو أنك لم تفهم ما أعنى ولكن يمكنك ذلك بنظرة يسيرة إلى المرأة كى تفهم ما أرمى إليه •

– ولكنك تزوجتنى وأنت تعرفين ما بيننا من مدى زمنى ورحبت بذلك فماذا حدث؟!!

– لم أرحب بل كنت مكرهة فلا يوجد امرأة عاقلة ترحب بالزواج من رجل يكبرها بسنوات تزيد على سنوات عمرها، لقد اضطرتنى ظروفى إلى ذلك ولم أعد أحتمل هذا القبر أريد الحياة •

– أصبحت قبراً الآن؟!!

– بل منذ تزوجنا وأنا أشعر بذلك •

– ولماذا لم تشعري بذلك وأنت تغترفين من أموالى بلا حساب •

– لم أعد أحتمل كفنك الحرير كان زواجنا صفقة قدمت فيها شبابى مقابل أموالك التى تعابرني بها الآن • أريد إنهاء هذه الصفقة اللعينة مقابل التنازل عن كل مستحقاتي ومعها ولدى •

عقدت الصدمة لسان الرجل بينما أغلق يوسف باب حجرته بعد قذائف والدته التى تنازلت عنه وكأنه قطعة أثاث • جلس يوسف على فراشه حزيناً بسبب أسرته التى تنهار لأنانية أمه واستسلام أبيه، ورحلت أشجان تاركة المنزل خلفها ينهار فأسلم الحزن عونى للخمر مهملاً عمله وابنه •

فقد عونى ماله وصحته وأصبح شبخاً لصيق الفراش بأحد المستشفيات يعانى تليفاً بالكبد وتكفل زوج أخته وصديقه الدكتور مختار بالإنفاق عليه وبرعايته ورعاية يوسف الذى فرح برعايته أيما فرح، ولم يكن ذلك شعور زوجته "منال" عمة يوسف التى أحبت مختار حباً أقل ما يوصف به أنه مرض تمكن من نفسها، جعلها تأبى أن يشاركها أحد فى قلبه وتوفى عونى وأصبح يوسف أمانة أوصى بها أخته وزوجها •

استأثر يوسف بقلب مختار فراح يشبع حرمانه من الأطفال باحتضان هذا اليتيم وقضاء أوقات طويلة معه، كان يأخذه معه إلى العيادة ويتركه مع راضى العامل أثناء انشغاله مع المرضى ويصطحبه إلى النادى يوم العطلة، ولكن القدر العجيب خبأ ليوسف ما لم يتوقعه •

كان من الطبيعي أن يكون حب مختار نعمة يسعد بها يوسف الذى بدأ ينسى ما حل به بسبب فيضان الحب والحنان الذى أغرقه به زوج عمته فأحال جذب حياته إلى بستان جميل يسكنه الأمل فى مستقبل مشرق، ولكنه على النقيض كان سبباً فى شقاء جديد يجدد أحزانه وآلامه.

ثارت منال بسبب إهمال مختار لها وانشغاله بيوسف عنها حتى وصل الأمر إلى هجر فراشها أحياناً ليجاور يوسف، ويحكى له قصة طريفة قبل أن يخلد إلى النوم وربما نام مختار قبل يوسف فيرتمى فى حضنه ويطفئ نور الحجرة، وتظل منال تنتظر عودة مختار الذى ينساها ويقضى ليلته مع هذا الطفل الذى أنساه العالم بأسره حتى زوجته وحبيبته.

قررت منال استرداد زوجها وحبها الوحيد حتى لو اضطرت للتجرد من مشاعر الأمومة والإنسانية. ذات ليلة بعد عودة مختار من العيادة وقبل أن يجلس سأل عن يوسف فنظرت إليه نظرة غضب متسائلة:

"ألم يعد يشغلك فى هذه الحياة سوى يوسف؟!"

– ماذا بك يا منال؟!

– أمازلت تذكر ملامحى واسمى؟!

– لم كل هذا الغضب؟! ماذا فعلت؟!

– تلك هى المصيبة.

– عن أى مصيبة تتحدثين؟!



– عن إهمالك لى بل وعدم انتباهك إلى هذا الإهمال لقد أسقطتني من حياتك تمامًا •

يبدو الحرج على وجه مختار:

– هذا أمر طبيعي لأن يوسف يحتاج إلى اهتمام كبير ينسيه ما حل به من مأساة وبخاصة أنني ألمس إهمالك له وحرمانه من طاقة حنانك وعطفك التى يحتاج إليها لتعويضه عن فقد والديه •

– والده فقط؛ مازالت أمه على قيد الحياة •

– ولكنها تركته وسافرت مع زوجها إلى الخارج •

– أرايت؟! أمه التى أنجبته وهو قطعة منها تنازلت عنه ولم تهتم لأمره، فهل سأكون أكثر حناناً منها ومن الله الذى أراد له هذا المصير؟  
– هل فقدت عقلك؟! •

تقترب منه وتمسك بذراعيه وتتنظر فى عينيه باشتياق:

– نعم أوشك أن أفقد عقلى لقد نسيتَ حبنا و غرامنا وليالينا الجميلة ألا نشتاق إلى؟! •

– أنت تعرفين أنني أحبك ولا أحب سواك فى هذه الحياة •

– كان ذلك فى الماضى أما الآن فقد صار لى شريك بقلبك وسيأتى يوم ويطرذنى منه •

– ليس صحيحاً أعدك أنني سأنتبه إلى ذلك مستقبلاً •

– لن أقبل بأنصاف الحلول •

– ماذا تقصدين؟!

– إما أن تودعه أحد الملاجئ ونرعه من خلاله وإما أن ننفضل •

– ماذا تقولين؟!

– لن أكرر ما قلت ولتنتبه أنه في حال انفصالنا فالولد سيكون في حوزتي بالشرع والقانون •

تعثرت الكلمات على لسان مختار ثم عقب قائلاً:

– عن أى شرع وقانون تتحدثين وأنت تلقين بلحمك ودمك إلى الشارع؟!

– لن نتناقش فيما قلت لك •

– يمكننا أن ننقله إلى مدرسة داخلية؟

– لا لأنه سيقضى الصيف معنا •

يبادر مختار بالرد فتقاطعه منال بحسم: "لن أتناقش في هذا الأمر  
وعليك أن تحسم أمرك الآن" •

كانت منال عنيدة تتمسك برأيها كما يتمسك الطفل الصغير بلعبته،  
لذا لم يناقشها في الأمر وأخبرها بموافقة إيداع يوسف أحد الملاجئ  
فأصرت أن يكون ذلك في الصباح الباكر فوافق •

كان يوسف يراقب الحوار المحتدم بين عمته وزوجها دون أن يشعر  
به، ونزلت موافقة مختار على طلب عمته نزول الثلج على رأس  
المحموم فتحيل حرارته إلى برودة فأصاب جسده قشعريرة جراء

الخوف من المستقبل الغامض بل المظلم • للمرة الثانية تتحول حياته إلى جحيم بسبب امرأة •

بدأ يوسف يتخيل حياته داخل الملجأ رغم أنه لم يزر الملاجئ من قبل، فقد كان لديه صورة ذهنية عن الحياة فيها من خلال حديث والدته التى كانت تزورها ضمن اشتراكها فى إحدى الجمعيات الخيرية، ولم يكن دافعها المساعدة وإنما الشهرة التى تنالها بنشر صورها فى المجلات ضمن أخبار سيدات المجتمع، وقد أدرك من خلال حديثها قسوة الحياة داخلها والتى تشبه الإصلاحيات التى يقطنها الأحداث فازدادت رعدته وخوفه •

قرر يوسف ألا يستسلم هذه المرة لهذا القدر، فإذا كان قد كتب عليه ألا يكون بلا أسرة ولا بيت فلن يكون الملجأ بيته الذى يقتنص حريته، سيكون الرصيف بيته وأولاد الشوارع أهله • سيجيا كالأطائر الذى يفضل الحياة على الأشجار ويتنقل بينها بحثاً عن الرزق بدلاً من الحياة فى قفص من ذهب يُقدّم له الطعام والشراب بلا مجهود وبلا حرية أيضاً •

على الفور نهض يوسف مسرعاً وحزم حقيبة ملابسه، حينما تأكد أن عمته وزوجها قد استسلما للنوم فتح باب حجرته وخرج فى هدوء • أثناء سيره تعثر فى شبح جالس فى الظلام أمسك به فارتعد يوسف وكاد يصرخ فوضع يده على فمه، وحينما تأمله يوسف اتضحت معالم وجهه كان زوج عمته جالساً فى الظلام وكم كانت دهشته حين رأى حقيبة ملابس يوسف بجواره فقاده ومعه الحقيبة إلى حجرته حتى

يتمكننا من الحديث دون أن نشعر به عمته أغلق مختار الحجرة وجلس  
مجاوراً ليوسف على فراشه متسائلاً: "إلى أين؟!".

أطرق يوسف برأسه ثم رفع رأسه بوجه جامد: "إلى الشارع".  
– لماذا؟! –

– لقد سمعت كل شيء ولن اذهب إلى الملجأ ولن أكون أيضاً عبئاً  
عليك.

تلثم مختار وبدا عليه الحرج الشديد:

– سامحها يا ولدى أنا المخطئ؛ أوليتك اهتمامي وأهملتها وكان علىَّ  
أن أكون متوازناً.

– إنها أنانية مثل أمي.

– لا تقل ذلك يا ولدى؛ إنها تحبك.

– والدليل ما قالته لك إنها تلفظني وأنا منها وأنت تعطف على ولا صلة  
دم بيننا.

– إننا جميعاً أخوة في الإنسانية.

– أين الإنسانية؟! وهي تريد أن تلقى بي إلى سجن مظلم أحيا معزولاً  
بلا أهل.

– قلت لك أنا المذنب.

– لا بل وجودي هنا هو ما أثار المشاكل لذا سأرحل لتعود حياتكما  
سعيدة كما كانت.

- لا سعادة لى بدونك وهذا ما أرقنى وجعلنى أفكر فى حل يرضيكما معًا •

- كيف؟! •

- ستعيش فى منزل راضى العامل بالعيادة أنت تعرفه جيدًا •

- راضى! •

- نعم ستعيش مع زوجته وأولاده إنه رجل بسيط الحال ويعيش فى حى فقير أدرك أنك لم تألف هذا النوع من الحياة، ولكننا نضطر أحيانًا إلى أشياء عسيرة علينا وبمرور الوقت نألفها ونتكيف معها هكذا خلقنا الله •

ترتسم نظرة انكسار على وجه يوسف يعقبها لمعان دموع تأبى أن تبرح عينيه فتثير مختار أكثر مما لو سألت فيحتضن يوسف بحنان:

- ليس بيدى يا حبيبى وأعدك أننى سأزورك ونخرج سوياً فى العطلة الأسبوعية •

- كيف سيتحملنى الغرباء ولم يحتملنى أهلى •

أذهلت مختار كلمات يوسف كيف أصبح ناضجًا إلى هذا الحد؟! •

- لا تخف يا حبيبى فسأدفع له مبلغًا كبيرًا ليرعاك هذا إلى جانب ثقتى به فهو رجل طيب أمين وزوجته امرأة حنون وأنا واثق أنك ستحبهما، وأعدك أن تعود إلى منزلك ثانية هل اتفقنا؟ •

- كما تشاء يا عمى •

فى الصباص الباكرا اسآقل ىوسف السىارة مع زوج عمآه واءآها إلى بولاق آىآ بىآ راضى وءنءما واصلا إلى آى أوقف مأآار السىارة؁ ونزل منها وقرر أن ىسيرا إلى بىآ راضى لأنه ىعش فى آارة صغىرة لا آآسع لها سىارة مأآار •

آىنما آوآلا فى آى صُءم ىوسف من مشآء المنازل المآلاصقة المآطة بالآراب؁ والأطفال آآاة ىلآبون فى الأزقة بملابس رآة وعربات الفول والآضر وصىآات البائعىن؁ إنها دنىا آآىءة لم ىعآها ىوسف فآوقف عن السىر لآظة تأمل فىها زوج عمآه بنظرات كسىرة آزىنة باءله زوج عمآه نفس نظرات الآزن؁ ولكن ىوسف سرعان ما آذكر اسآعءاءه إلى آآاة على الأرضفة فآقبل الواقع واسآمر فى السىر؁ وآىنما آآآرب من بىآ راضى وآآه ذا باب ضىق ىآسع لآبور شآص واءءل ىوسف آم مأآار •

كانآ شقة راضى فى الطابق الأرضى؁ ءق مأآار الباب ففآآ راضى الباب بابآسامة صافىة آآىيا الآآآور وىوسف آم ءعاها إلى ءآول فءل مأآار ومعها ىوسف وآقىة ملابسه؁ فآأمل ىوسف البىآ المآون من صالة ضىقة بها كنبه "إسطنبولى" ومائءة مسآىرة قصىرة القوائم مسنءة إلى الآائ ىآفرع من الصالة آآرآان؁ وطرقة صغىرة ىىءو منها باب الآمام والمآبخ •

آلس مأآار ىآاور راضى بصوآ منآفض • شرء ىوسف وهو ىآآىل آآاآه الآآىءة فى هآا الآر الضىق مع أسرة آآآون من رآل وزوآآه وآمسة أطفال •

تشاحنت التساؤلات برأسه هل سيتحمل هذه الحياة ويتكيف معها؟! متى سيفارق هذا المكان ويعود إلى حياته التي عهدتها؟! وكيف سيذاكر وسط هذا الزحام والصخب؟! وكاد رأسه ينفجر من قسوة الأسئلة التي لا أجوبة لها، لكنه فى النهاية لا يملك اختياراً كل ما يملكه صبر على ما اضطرته الحياة إليه وأمل فى تغييره.

قطع شرود يوسف يد مختار تربت على كتفه: "إلى أين ذهبت يا يوسف؟!"

- إلى الضياع.

يجثو مختار على ركبتيه مواسياً: " كن رجلاً وتحمل الحياة هنا لفترة أعدك أنها لن تطول".

هز يوسف رأسه مستسلماً لقدره ثم قبله مختار واحتضنه مسيطراً على دموعه ثم رحل وتركه لمصيره وحياته الجديدة.

قرر يوسف أن يتحمل ظروفه الجديدة متسلحاً بالأمل فى العودة إلى بيته قريباً، ومرت الأيام الأوائل كأصعب ما يكون، كان راضى يستيقظ مع أذان الفجر ويذهب إلى الجامع ليصلى بينما تستيقظ زوجته لتنظف البيت وتملأ الأوانى الفخارية بالماء، وتعد الطعام ثم يذهب إلى عمله بالمستشفى صباحاً، وتذهب زوجته إلى السوق لشراء الخضار، ويتفرق أولادها فى الشارع للعب بينما يبقى يوسف وحده بالمنزل الصامت كأبى الهول، منعزلاً عن الحياة وقد أغلق الشبابيك لئيبعد عن الصخب، ولا يوجد مذياع ولا جرائد فاضطر إلى فتح الشبابيك لمراقبة

الأولاد يلعبون بالكرة المصنوعة من القماش وغيرها من الألعاب حتى تعود سيّدة زوجة راضى •

كانت "سيّدة" لا تعرف القراءة ولا الكتابة يفوح منها رائحة السمن البلدى وكان هذا الأمر يثير نفور يوسف فى البداية، لكنه ألف رائحتها بمرور الوقت فلماذا؟! لأنها كانت تفوح حناناً وعطفاً افتقر إليهما مع سيدات المجتمع الراقى، وبمرور وقت قصير تحول إيلاف يوسف حياته الجديدة إلى تعلق شديد، لقد انخرط مع الأولاد فى لعب الكرة وعاش أوقاتاً جميلة كشهر رمضان والتجمع على مائدة الإفطار مع الأسرة التى منحتة دفئاً وأماناً، واللعب بالفوانيس الحديدية ذات الشمعة وصوت المسحراتى، والتجمع حول سيّدة وهى تصنع كعك العيد وهم يساعدونها فى نقشه ويغنون ويضحكون وجولاته فى الموالد والصلاة فى سيدنا "الحسين" والسيّدة "زينب" •

لقد أدرك أن البيوت المتلاصقة تعبر عن حال ساكنيها المتلاحمين فى الأفراح والأحزان يؤازر بعضهم بعضاً رغم الفقر الشديد ولم يعد يشغله أمر العودة إلى بيته القديم، لقد صار هذا المنزل المتواضع عشه الأثير •

مر عامان كان مختار خلالهما يزوره من وقت إلى آخر، ويأخذه فى نزهة إلى أماكن متعددة والعجيب أن عمته لم تطلب زيارته وكان هذا مؤلماً له، ولكنه كان مريحاً لمختار وإلا انكشف الأمر •

وفى نهاية العامين أهمل مختار زيارة يوسف ولم يكن ذلك لأنه نسيه أو لم يعد متعلقاً به ولكن لمرض زوجته التى أصيبت بسرطان الثدى



واستأصلته على أثر ذلك فى مستشفى بالخارج ولازمت الفراش لتلقى العلاج الذى كان فى حقيقة الأمر مجرد مسكنات تعينها على الاستمرار فى الحياة حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً •

أدرك مختار أن علاقة زوجته بالحياة على شفا الانقطاع لأن المرض تمكن من جسدها الذى استسلم له، وأدركت هى أيضاً ذلك وأصبحت تنتظر مصيرها بين حين وآخر وكان ذلك كافياً لتتذكر ابن أخيها المسكين، وتطلب أن تراه ويعود إلى المنزل لتكفر عن ذنبها فى حقه •

وعلى الفور ذهب مختار إلى يوسف الذى رفض بإصرار عجيب رغم علمه بمرضها الشديد وندمها العميق على ما فعلت، وعاد مختار متحيراً كيف يعلل لها عدم مجئ يوسف ليراها فاضطر إلى الكذب عليها، وأخبرها أن الملجأ أقام رحلة للأطفال وسيعودون فى وقت متأخر ووعداها أنه سيأتى به فى وقت آخر، ثم تعددت تبريراته لها بأنه شغل بعمله وعجز عن الذهاب إلى الملجأ ليأتى به أو أن الملجأ رفض بسبب الامتحانات •

جاء يوم انخرطت منال فى نوبة بكاء شديدة وتوسلات له كى يأتى به إليها فاستنفرت دموعها مشاعره، وقرر أن يأتى به حتى لو اضطر إلى حمله والإتيان به عنوة وذهب إليه فوراً ولكنه واجهه بالرفض القاطع فتوسل مختار إليه قائلاً: "إنها على فراش الموت تحتاج إلى الرحمة" •

– ولماذا لم ترحمنى وأنا لم أرتكب ذنباً حيالها؟! •

– لا وقت لَدَيَّ للجدال إننى أصارع الزمن ويجب أن تأتى معى الآن؛  
ربما تغادر الحياة بين لحظة وأخرى أرجوك يا ولدى •

– لا تجهد نفسك معى فلم أعد فى حاجة إليها ولا أعبأ بالآلامها •  
يباغته مختار بصفعة كريخ دفعت بابا بحدة ثم عقب: "ستأتى معى  
بإرادتك أو رغماً عنك" •

– أتصفعنى؟! •

– نعم أنت تستحق ذلك لأنك لا تقدر آلامها ورغبتها الشديدة فى  
رؤياك •

يستسلم يوسف لنظرات الإصرار فى عيني مختار ويهز رأسه  
موافقاً ، فأسرع مختار ومعه يوسف إلى المستشفى وحينما وصلا  
أوقفه مدير المستشفى ومنعه من الدخول إلى حجرة منال، وبعد تردد  
أخبره أنها فارقت الحياة انهمرت دموع مختار وضرب رأسه فى  
الحائط ندمًا على حرمانها من رؤية يوسف •

حينما كان الأطباء يخفون عن مختار كان يوسف يقف جامدًا  
كالصخرة الصماء؛ لم يعد فى قلبه مكانًا لأى امرأة فى الوجود وقرر  
منذ تلك اللحظة أن يوصد قلبه تجاههن جميعًا وأقسم ألا تدخل قلبه  
امرأة مهما كانت ومهما فعلت •

وحادث نفسه بصوت مرتفع صارم: "لن أغفر لن أغفر" •  
طرق مختار الباب فانتبه يوسف من شروده فى كهف الماضى الأليم  
وأجاب:

- ادخل يا عمى •
- لقد أضعت الفرصة للمرة الثانية •
- عن أى فرصة تتحدث؟! •
- الفرصة التى ستعيدك إلى إنسانيتك وتحرك من سجنك اللعين •
- أنا لا أفهمك •
- لقد توفيت والدتك اتصل بى زوجها الآن وأخبرنى أنها ماتت وهى تتناديك وتطلب رؤيتك •
- يغمض يوسف عينيه ثم يتنفس نفساً قوياً معقّباً:
- هذا اختيارها الذى تدفع ثمنه الآن •
- إذن ستدفع أنت أيضاً ثمن اختيارك •
- أنا لم أضر أحداً •
- يتنهد العجوز: "أدعو الله أن يغفر لكَ وألا يحاسبك بما فعلت" •



## الفصل الثالث: التأميم

وَإِذَا مَا طَمَحْتُ إِلَى غَايَةٍ  
رَكَبْتُ الْمُنَى وَنَسِيتُ الْحَزَرَ

وَلَمْ أَتَجَنَّبْ وَغُورَ الشَّعَابِ  
وَلَا كِبَةَ اللَّهَبِ الْمُسْتَعْرِ

أبو القاسم الشَّابِي

## (١)

"كش ملك".

بهذه العبارة المقتضبة أنهى يوسف لعبة الشطرنج مع صديقه الوحيد نبيل ذى القامة المتوسطة والشعر المجعد والبشرة البيضاء، "يسارى" خصص جزءاً من ربح الصيدلية التى يملكها لمساعدة الفقراء القاسم المشترك الوحيد بينه وبين يوسف الذى يناقضه فى كل صفاته، ورغم ذلك كانت صداقتهما أرسخ من الجبال.

تعرف نبيل على يوسف فى إنجلترا حيث كان نبيل يبرم صفقة أدوية تشعبت علاقات نبيل ولكن ظل يوسف قرين روحه، بل ارتبط أيضاً بزواج عمته الذى عوضه عن وفاة والديه وتعلم منه لعبة الشطرنج. اعتدل يوسف فى جلسته بضيق كسا وجهه قائلًا: "لنكتفى بذلك".  
بجدية أجاب نبيل: "بل أريد جولة أخرى لتعويض الخسارة".

– انا لا أرغب فى اللعب.

– ماذا بك يا يوسف؟!

– أشعر بملل يكاد يمزقنى.

– تشعر بملل! نحن نعيش أحداثاً ساخنة ألا تتابع الصحف؟!

– على ذكر الأحداث الساخنة كيف تتوقع رد الرئيس؟

– صادمًا! هو لا يقبل الإهانة مطلقًا من أحد فلديه ذات منتفخة.

- بل لديه اعتزاز بوطنه "مصر" نابع من وعيه بقيمتها لذا لا يطيق إهانتها فلا تحوله إلى أمر شخصي •
- إنه مستبد والاستبداد يُسقط الأمم •
- كيف ذلك وهو يدعم كل حركات التحرر في شتى بقاع الأرض •
- في الخارج أما في الداخل فقد عصف بالديموقراطية واستأثر بالحكم، الديموقراطية هي الحل الأمثل لكل مشكلاتنا لذا لا أقبل مطلقاً ما فعله بالأحزاب •
- الأحزاب التي لا يشغلها إلا صراعاها على السلطة! أنسيت أن "الوفد" حزب الأغلبية قبل الحكم على رأس الدبابة الانجليزية يوماً ما؟! •
- هذا لا ينطبق على كل الأحزاب •
- ما فعله الوفد ربما كان سبباً جعله يكفر بالديموقراطية •
- أنت دائماً تدافع عنه مصيياً أو مخطئاً •
- أنا أرى الأمور بالعقل لا بالأحلام والشعارات هل تتصور أن حكومة أى حزب كانت ستقيم مشروع الإصلاح الزراعي؟ أو ستعقد اتفاقية الجلاء مع الإنجليز؟
- ليس من حقاك التنبؤ بالمستقبل؛ لقد تخلصنا من الملك وكان الأجدر أن تستمر تجربة الديموقراطية، وبمرور الوقت ستصوب نفسها بنفسها الإنسان لا يتعلم إلا إذا أخطأ •

- لو حدث ذلك لعادت الأمور إلى مجراها الأول، وفشلت الثورة لأنهم لم يفعلوا شيئاً حيال مشكلات الفقراء، ولم يحاولوا التخلص من الإنجليز فعلياً وهم فى السلطة.
- هذا ما يصدره إلى الناس ولكن الحقيقة أنه يريدنا جميعاً وفق رؤيته وهذه ديكتاتورية.
- ما أسهل الكلام! وأنت تجلس فى الهواء الطلق بلا مسؤولية وما أصعبه! حينما تحملها.
- أتعلم بمن يذكرنى يا يوسف؟
- بمن أيها الفصيح؟!
- الوالى "محمد على" وطريقته فى التخلص من خصومه.
- لا تنسَ أنك تتحدث عن مؤسس الجيش المصرى.
- ربما ورث "جمال عبد الناصر" صفاته لأنه ينتمى إلى هذا الجيش الذى أسسه.
- لا مجال للتشابه؛ محمد على ليس مصرياً ورغم تقديرى لما أنجزه فما فعله كان لمجد أسرته فى النهاية، أما عبد الناصر الذى نبت من طين أرضنا يصنع لمصر لا لذاته.
- ربما ولكنه يعمل وفق منطق محمد على فى التخلص من خصومه "الغاية تبرر الوسيلة".

– هؤلاء الخصوم يتاجرون بالديموقراطية من أجل الكرسي وهى  
حصان "طروادة" الذى تختبئ بداخله كل مطامع السلطة.

تأمل يوسف نبيل بدهشة ثم استطرد قائلاً: "هل تمقته يانبييل؟".

– لقد سألتنى سؤالاً عسيراً لا أعلم إن كنت أحبه أم أمقته، أحترمه أم  
أذريه؟ إنه دائماً يحيرنى حينما أحاول وصف شعورى نحوه.

– ربما أنتك الإجابة بعد رحيله حينما تقارن بينه وبين من سيخلفه  
فتتضح الصورة.

– رغم كل شئ أدعو الله أن يلهمه القرار الصائب الذى يحفظ كرامتنا  
ويدعم مشروعا العملاق.

"يسارى وتحدث عن الله ما أعجب ذلك!" • بابتسامة ساخرة عبر  
يوسف •

– "أنت أيضا تردد الادعاءات التى يروج لها رئيسك" • بغضب شديد  
عبر نبيل •

– رئيسى! أنتبرأ منه الآن؟!

– لتعلم أن هناك يساريين كانوا يهوداً وأسلموا فى المعتقل •

– اهدأ يا بلبل أنا أمزح معك ما رأيك فى تناول عصير ليمون بارد  
يطفى حرارة الجو؟

– كما تشاء •





## (٢)

"إن والدتي تترقب خطاب الرئيس الليلة".

بضيق عبرت نور وهى تجلس يسار سميرة التى تسكن (حى العرب) واسمه يعبر عن طبيعة ساكنيه فهم أساس بورسعيد، هم من حفروا القناة ولم يجنوا منها سوى الموت والفقر فى حين استأثر الأ جانب بخيرها .

انتمت سميرة إلى أسرة فقيرة والدها صياد بسيط لا تكفى حرفته لسد جوع أسرة من سبعة أفراد، ولكنها تمكنت من الحصول على شهادة متوسطة أهلتها إلى العمل بمكتب البريد بمساعدة أسرة نور .

كانت سميرة عزيزة النفس شامخة الأنف دون كبر تعشق القراءة وتحرم نفسها من أشياء تحبها لتشتري كتابًا كان بمثابة لها شابًا تطل منه على العالم .

جلست سميرة على الكنية الإسطنبولى المتهاكة بحجرة بسيطة تحوى سريرًا نحاسيًا ومصباحًا يعمل بالكبروسين معلق على حائط نقش برسومات عربية، وخزانة للملابس قديمة وجلست إيرينى عن يمينها وهى تعد القهوة فى إناء نحاسى على موقد نحاسى .

أجابت سميرة وهى تترقب غليان القهوة:

– كيف تتركينها وهى على هذه الحالة من القلق .

– لقد فشلت محاولاتي فى تهدئتها أو حتى صرفها عما يحدث .

أطفأت سميرة الموقد وصبت القهوة بينما بدا القلق على وجه إيريني  
التي عقت قائلة:

- دعك من السياسة يا نور هل وجدت لى حلاً؟
- نعم لقد دبرت خطة وقام دانيال بتنفيذها واكتشفت أنه ممثل موهوب  
ويمكننا فى المستقبل تأسيس شركة للإنتاج السينمائى تنافس شركة  
"مترو جولدن ماير".
- دعك من المزاح وأخبرينى ماذا حدث؟!!
- لقد دبرت خطة للتخلص من هذا الكائن.
- "الكائن"! بدهشة عبرت سميرة وهى تقدم إليهما القهوة.
- نعم وهو تكريم لا يستحقه؛ ليس هذا الكائن سوى آلة تعمل وفق من  
يضغط زرّها.
- أرايتِ يا نور لقد كنت محقة فى وصفى له وإصرارى على رفض  
الزواج به؟
- إن زواجك به كارثة دونها الموت لا قدر الله لقد خبره دانيال جيداً.
- كيف؟!!
- وطد دانيال علاقته به ثم أخذه معه إلى إحدى الملاهى الليلية بعد أن  
اتفق مع فتاة جميلة تعمل فى أحد الملاهى على الإيقاع به باعتبارها  
من عائلة ثرية، وبالفعل وقع فى حبائلها وقد دفع لها دانيال مبلغاً من  
المال مقابل ذلك.

- إذن سقط هذا الشقى لمالها وجمالها معا.
- لا يا إيريني ليس جمالها ومالها فحسب بل الخبرة.
- أى خبرة يا سميرة؟!
- هذا النوع من الفتيات لديهن خبرة فى اصطياد الرجال وأسرهـم.
- "ولكن هذا لا يعنى تراجعـه عن الزواج" • بقلق عبرت إيريني •
- لقد حدثت المعجزة وأخبر أخاك أنه يعشقها، ولن يستطيع الزواج منك وأنه خجل من نفسه لذلك بل طلب الصفح من دانيال •
- أشكر الرب الذى استجاب لصلاتى ودعواتى •

تبتسم سميرة:

- من أين أنتـه هذه الشجاعة يا نور ليعترف لدانيال ويتخذ قرارًا بنفسه؟
- ليس فى الأمر شجاعة إنه يعلم جشع والده الذى لا يهتم إلا بالمال فسيعدم قراره وربما فرح بصغيره الذى أوقع هذا الصيد الثمين •
- حسنًا ولكن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد؟
- ماذا تقصدين يا سميرة؟
- ربما تمسك هذا الشقى بالفتاة حتى بعد معرفة حقيقتها المخجلة •
- "لا إنه لا يملك هذه الشجاعة" • بإصرار أجابت إيريني •
- تنتهد سميرة ثم تشرب القهوة:

– هذا النوع من البشر ضعفه سلاح ذوحدين إنه كالمسدس فى يد من  
يمسك به والآن أمسكت به هذه العاهرة فستصوبه فى وجه أبيه، وقريباً  
تستنزف أمواله بلا رحمة.

– أنا أشعر بالذنب الآن فكل ما أردته إنقاذ إيرينى ولم أشأ إيذاءه.

– لا تلومى نفسك يا نور إنه لا يستحق الشفقة فهو ضحية نفسه.

– كيف؟!

– لقد منح الله عقلاً والعقل أمانة إذا تنازلنا عنها نصبح خائنين  
لأنفسنا ولمن أودعنا هذه الأمانة العظيمة، لقد خان نفسه قبل أن يخونه  
الآخرون.

تبئسم إيرينى بإعجاب:

– ما هذه الحكمة يا سميرة؟! أهذا أثر الكتب التى تأخذ اهتمامك  
ووقتك؟!

– الكتب حتماً تؤثر فى تفكيرنا ورؤيتنا للأمور ولكن رأىى نتاج  
تجربتى الخاصة.

– ماذا تقصدين؟

– أنت تعلمين يا إيرينى ضيق ظروف أبى وحينما أتقنت القراءة  
والكتابة قرر أن أكتفى بذلك لتخفيف العبء عن كاهله لأن الفتاة  
مصيرها الزواج، إلا أننى صممت على استكمال دراستى وأقنعتة أننى  
سأغزل الملابس لأهل الحى واتكفل بمصاريفى حتى عملت بمكتب  
البريد.

- تتظر إليها إيريني بخجل وقد طأطأت رأسها فتعقب سميرة بغيظ:
- إن استسلامك يغيظنى أنا أمقت الخضوع والاستكانة.
  - ترفقى بها يا سميرة.
  - إنها مريضة تحتاج إلى مشرط لاستئصال الضعف والخضوع.
  - ثقى أن شفاءها قادم لا محالة ولكن كل شئ يأتى فى موعده.
  - يقطع الحديث صوت آلة تنبيه من الخارج فتفتح نور الشباك:
  - إنه دانيال لقد أخبرته أن يأتى إلينا هنا إذا لاح فى الأمر جديد.
  - أدعو الرب أن يكون لديه أخبار تخلصنى تمامًا من هذا الأمر.
  - إنه يبتسم يا إيريني وهذا يعنى أن لديه أخبارًا سوف تثلج صدرك علينا الذهاب الآن.
- تنهض نور وإيريني بينما تنتظر سميرة إلى القهوة التى لم تمسها الفتاتان:
- لقد استرسلنا فى الحديث ولم نتناول القهوة.
  - اغفرى لنا؛ أنت تعلمين مدى القلق المسيطر على إيريني.
  - كما تحبين ولترسلى سلامى إلى دانيال وامتنانى له بإنقاذ إيريني.
  - سلمت يا سميرة من كل سوء.

- تنصرف الفتاتان وتهبطان السلم المتهالك حتى تصلا إلى سيارة دانيال المتواضعة فتركب نور فى الخلف وتركب إيرينى بجواره وتتساءل بلهفة: "هل هناك جديد يا دانيال؟" •
- لقد أُسِدِل الستار منذ قليل على هذه المسرحية السخيفة •
- كيف؟! •
- لقد جاء والده إلى الأستديو واعتذر لوالدى عن إتمام زواج ابنه بك •
- ماذا؟! ألم يسال والده عن الفتاة؟! •
- الطمع يعمى الأبصار يا نور كما أننى أقنعت هذا الشقى أن ينهى والده قصة زواجه بإيرينى قبل الشروع فى الارتباط بالفتاة؛ بورسعيد مدينة صغيرة وربما علمت أسرتها بالأمر فيرفضون زواجه بالفتاة •
- كم أنت شرير •
- بل والده ويؤسفنى أن يحمل خالك نفس الصفة •
- لماذا؟! •
- لقد ثار خالك فى وجهه وقال إنه على يقين بوجود فتاة أكثر ثراءً من إيرينى وأنه لايهمه سوى المال ووصفه بالجشع •
- ماذا؟! كيف يفكر خالى بهذه الطريقة؟! •
- إن خالك يعميه حلم العودة إلى وطنه القديم فلا يرى سواه غافلاً عما يدور حوله •
- هذا يعنى أن هذه المحاولة لن تكون الأخيرة •

- لا تشغلى تفكيرك يا إيرينى، أنتِ تستحقين أفضل الرجال وثقى بى فمتى لاح هذا المحظوظ فى حياتك ستظفرين به مادمتُ على قيد الحياة.
- أدامك الله لى يا أخى الحبيب.
- وأدامك أنتِ أيضاً يا حبيبتى ولا حرمنى منك ومن عطفك.
- وأدامكما لى يا أحب الأقارب والأصدقاء أيضاً. انطلق بنا فوراً إلى بيت عمك فالقلق يتملكها انتظاراً لرد الرئيس.
- أنا أيضاً أترقب خطابه ويمزقنى الفضول كيف سيصفعهم الصفحة التى يستحقونها؟
- الأمر كله لا يعنينى.
- أنتِ تصيبينى بالضيق يا نور حينما تفكرين بهذه الطريقة.
- لماذا؟! أنا أمقت السياسة؛ هى ألغاز أعجز عن حلها ولست صانعة قرار والحمد لله فلا جدوى من اهتمامى بها.
- كيف تفكرين هكذا؟! نحن جميعاً مشاركون فى صنع القرار مع الرئيس؟
- وما علاقتنا به؟
- إن تأييدنا لقراره أو رفضنا له يساهم فى اتخاذه القرار.
- وهل يعبأ بتأييد أو رفض؟

– نعم إنه لا يعبأ إلا بشعبه ولا يحتمى إلا به فى مواجهة المتربصين  
بوطننا •

– كفى يا دانيال؛ حديث السياسة ينهكنى ويسلبنى طاقتى أرى أن  
تنطلق بنا إلى الشاطئ ثم اذهب إلى بيت عمك لتستمع إلى الخطاب  
سويًا •

ينطلق دانيال بالسيارة مسرعًا •





(٣)

"ماذا فى جعبتك الليلة يا جمال؟!".

همس مختار بهذه العبارة ثم أشعل غليونه ونفت دخانه فى الهواء  
يتربقب خطاب الرئيس حيث أعلن المذيع عن قرب وصوله إلى ميدان  
المنشية.

كانت التساؤلات تعصف بمختار هل سيقدم الرئيس ردًا شافيًا أم  
يمر هذا الخطاب كسابقه منذ ثلاثة أيام فى عيد الثورة؟!

اقترب يوسف من العجوز الذى شرد بعيدًا ولم ينتبه إلى وجود  
يوسف حاملاً صينية عليها كوبان من الليمون البارد، ووضعها أمامه  
على المائدة الصغيرة ثم أمسك كوبًا وقدمه إلى العجوز الذى انتبه  
واستشاط غضبًا حينما رأى كوب الليمون:

– ما هذا؟! لقد طلبت فنجانًا من القهوة السادة.

– أنت متوتر والقهوة تزيد حدة التوتر والليمون سيمنحك الهدوء.

– هل نصبت نفسك واصيًا علىّ.

– لا لم أقصد ذلك ولكن أردت تهدئتك.

– مازلت رجلًا رشيدًا ولا أحتاج إلى نصائحك الذهبية.

– انا لم أقصد ذلك ولكن أراك متوترًا وهذا الغليون يزيد توترك.

– هذه نصيحة ثانية تريدنى أن أدع الغليون أيضًا رائع!

– انا آسف يا عمى سأعد لك القهوة السادة حالاً ولا أريدك أن تغضب.

بدا الحرج على وجه العجوز فوضع الغليون على المائدة، والتقط كوب الليمون ورشف منه رشفة ثم ابتسم وقال: "إنه لذيذ يا يوسف".  
– هنيئاً لك يا عمى.

– هل يُحسم الأمر الليلة أم يُغلق إلى أجلٍ غير مسمى؟

– لدىّ يقين قوى أنه خطاب الحسم ولا ريب.

– من أين لك هذا اليقين يا ولدى؟!

– قال فى خطابه السابق: "سنبنى السد ولو بالمقاطف". أعتقد أن لديه حلاً للأزمة لذا تحدث بهذه الثقة وهذا اليقين.

يعلن المذيع عن وصول الرئيس فيلتقط العجوز غليونيه بصورة لا إرادية ويضعه فى فمه نافثاً دخانه بترقب شديد فابتسم يوسف وقال:

– ها قد وصل وستظفر بإجابات عن كل تساؤلاتك.

– إياك أن تنفوه بكلمة وإلا لكمئك أريد أن أنصت إلى ما سيقول.

يبتسم يوسف ويضع يده على فمه.

يبدأ خطاب الرئيس بالحديث عن ثورة يوليو وإنجازاتها بعد مرور أربعة أعوام وكيف تتقدم مصر بخطوات سريعة نحو البناء والتعمير فيغضب مختار ويعقب:

– هل جاء ليتحدث عن إنجازات الثورة؟!

– صبرًا يا عمى •

يتنهد العجوز ويتابع الخطاب فيسترسل الرئيس فى الحديث عن  
صلف الدول العظمى و غطرستها فى التعامل معنا، فيبدو الغضب على  
وجه مختار فينفث دخان غليونه بىأس يحوه فجأة عبارة يلقيها الرئيس  
على غير توقع:

"تؤم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة  
مصرية" •

يسقط الغليون من فم العجوز ذاهلاً بينما ينهض يوسف فاغراً فمه  
مقترباً من المذيع كمن أراد التثبت مما سمع فابتلع العجوز ريقه  
بصعوبة معقبة:

– ماذا قال ؟! أسمعته حقاً أم أتخيل من فرط الفضول؟! إن تكهناتى لم  
تصل إلى ذلك •

– نعم يا عمى ما سمعته حقاً أصبحت القناة ملكاً لنا •

– بل قل عاد حقنا السليب • اليوم ترد مصر اعتبارها أمام العالم  
بأسره، وتسترد مواردها التى ستكفيها ذل السؤال وتمنحها قيمتها  
الحقيقية بين الأمم •

يضع يوسف رأسه فى حضنه فيبكى العجوز ويحتضنه قائلاً:

– لا أكاد أصدق يا يوسف •

– بل صدق يا حبيبى اليوم تهدأ أرواح شهدائنا فى القناة، وتهدأ قلوب  
ذويهم بعد مرور كل هذه السنوات نحن مدينون بشكر لمن رفض  
تمويل السد •

يبتسم العجوز ودموعه تبلل خديه بينما يدق جرس التليفون ينهض  
يوسف ويجيب:

– آلو •

– آلو مساء الخير يا (جو) •

– مساء النور يا بلبل كيف حالك؟

– كحال شعبنا الآن فرحة عارمة وعزة تكلل هاماتنا •

– لا حرمننا الله كليهما يا بلبل •

– لا بد أن نحتفل بهذا الحدث العظيم يا (جو) • إنها ليلة تاريخية لا  
تتكرر كثيرًا •

– أصبت أسرع إلى منزلنا العامر وسأرسل فى طلب الحمام المشوى  
الذى تعشقه •

– منزلكم العامر! الناس فى الشوارع يرقصون احتفالًا بالتأميم، سأتى  
لأصطحبكما إلى مكان رائع لنحتفل ونتناول الحمام المشوى فى الهواء  
الطلق على ضفاف النيل السعيد قبل أن يُلجِمَه السد المرتقب •

– كما تحب يا بلبل نحن فى انتظارك فلا تتأخر •

يضع يوسف السماعة ويقترب من العجوز مبتسمًا:

- نبيل قادم إلينا •
- أسرع وأرسل البواب ليأتينا بالحمام المشوى قبل أن يصل برياحه العاتية متسائلاً:
- "أين الحمام؟" •
- لن يتناوله هنا بل سيصحبنا إلى مكان جميل على النيل لنحتفل •
- أسعدكما الله دائماً يا ولدى استمتعا بوقتكما أما أنا سأبقى هنا •
- لماذا؟!!
- ينهض العجوز ويقترب من الحائط متأملاً إطاراً ذهبياً كبيراً يحوى صورة زوجته منال ويتنهد بشدة قائلاً: "سأحتفل مع حبيبة العمر" •
- يرمقها يوسف بنظرة غضب ثم يتأمل مختار بدهشة معقّباً:
- أحتفل مع الأموات يا عمى؟!!
- يغلق العجوز المذيع الذى صدح بالأغاني الوطنية ثم يجلس مجيئاً:
- إذا رحل جسدها فقد بقيت روحها بجسدى حتى نلتقى حين يأذن الله •
- هذا حديث الروايات يا عمى •
- الروايات تسرد الواقع •
- ولكنها تضيف عليه خيالاً يحيل حياة من يصدقه إلى جحيم مستعر بل تسلبه حياته أحياناً ولهذا لا تنال استحسانى مطلقاً، هي حديث الخداع •

- بل حديث الحياة التى حُرمت منها فصرت آلة ربما تتحرك كالسيارة أو تتحدث كالمذياع لكنك فى النهاية آلة صماء •
- لِمَ كل هذا؟! هل تستحق عمتى كل هذا الحب والإخلاص؟! •
- تستحق أكثر من هذا •
- كيف؟! وهى تفتقر إلى المشاعر •
- لن أسمح لك بالإساءة إليها وإن كانت عمتك فهى زوجتى وحبيبتى ورفيقة عمرى •
- إن حديثك عنها وعن روحها التى تحل فيك يستفزنى •
- أنت لم تعرف الحب من قبل •
- ولا من بعد ولن أعرفه مطلقًا •
- إذن لن تعرف معنى السعادة •
- تقصد الحزن والشقاء •
- السعادة والشقاء جزء من الحياة وكل شعور يعطى نقيضه قيمة ومذاقًا يشعرنا بالحياة ولن تفهم إلا بالتجربة •
- لن أبدل قناعاتى مطلقًا وعفواً لن أغير رأى فيها وفى جميع النساء •
- يلتقط العجوز غليونيه ويشعله ثم ينفث دخانه مسترجعاً الماضى:

– لقد نشأت قصة حبنا فى ظروف قاسية وحرب شعواء، فرضتها أسرتها الثرية التى رفضت ارتباط ابنتها الجميلة المدللة بشاب من أسرة عائلها فلاح باع الفدان الذى يملكه ليعلم ابنه الوحيد • كيف تعرفت عليها إذن؟

خلال دراستى الجامعية وأحببتها حبًّا شديدًا ولكن جدك رحمه الله رفض زواجى منها أما هى فقد صممت على الارتباط بى رغم أنه هدها بحرمانها من الميراث •

– أفعلت ذلك حقًا؟!

– نعم فكل ما يُحارب يا ولدى يَستأسد وتنبت له أنياب • لقد هربت من القصر الفاخر ورحلت معى إلى فرنسا لاستكمال دراستى ونحن صفر اليدين •

– وهل تحملت صعوبة الحياة دون ضجر؟!

– لم أسمع منها كلمة سخط أو ندم حتى حينما توفى جدك وحرمها من الميراث الذى خصصه لوالدك رحمه الله، ولم ألمح فى عينيها ولو نظرة تأنيب رغم شعورى بالخل فى أعماقى •

– هذا يدل على عنادها وإصرارها على ما تريد وقد رأيت لمحة من ذلك فى الماضى •

– نعم كانت تتمسك برأيها وهذه ميزة أحيانًا وعيب أحيانًا أخرى • وحينما عدنا إلى مصر أعطاهما والدك رحمه الله حقها فى الميراث ولم يقبل ما فعله جدك وكانت مفاجأة لنا •

– كان والدى كنزًا من الأخلاق لم تقدره أمى •

– رحمهما الله يا ولدى • نعود إلى حديثنا قررت عمك أن تشتري الشقة والعيادة التى نعمل بها اليوم فى نفس العقار حتى لا أبتعد عنها مطلقًا •

– ولكنها تعاملت معى على النقيض مما تروى فهذا ما يثير عجبى •

– حينما كنا بالخارج كنا نلهث وراء لقمة العيش لاستكمال دراستى ولم ننتبه إلى تأخرنا فى الإنجاب ولكن بعد استقرارنا بدأنا نبحث عن الإنجاب، وبعد الكشف وإجراء الأشعة تبين أنى لن أتمكن من منحها طفلًا ولم تهتم بهذا الأمر مطلقًا •

– هذا ما يثير دهشتى؛ يُشاع دائمًا أن النساء قرّة أعينهن الأطفال •

– النفوس البشرية مختلفة • لقد أحببتى عمك فى سن مبكرة تنازلت فيها عن كل مباهج الحياة مقابل حبى وحنانى لها، فصار حضنى وطنها وأمانها وأصبحت مشاعرهما تجاهى متطرفة تحول حبها إلى تملك شديد، ولم تقبل أن يناز عنى فيها أحد ولم يصبنى ذلك بالضيق •

– عقلى يرفض هذه التبريرات •

– ألم تسمع عن زوج يغار على زوجته من صغاره وأم أحببت ابنها إلى حد الجنون فأحالت حياته الزوجية إلى جحيم لتستأثر به لنفسها، وابن يغار على أمه من أبيه • النفس تحفل بالتناقضات والغرائب التى يأبأها العقل •

– مازلت تحاول استدرار غفرانى فلنُرح نفسك فلن أبدل رأيى •



دق جرس الباب فنهض يوسف وفتح الباب فوجد نبيل الذى فتح  
ذراعيه قائلاً:

- بالأحضان يا (جو) بالأحضان •
- يحتضنه يوسف بحماس ثم يدخلان ويغلق يوسف الباب •
- ينطلق نبيل نحو العجوز ويحتضنه قائلاً: "بالأحضان يا عمى" •
- أسعدك الله يا بلبل أنت بهجة منزلنا •
- أخرجتني يا عمى لا وقت لدينا هيا بنا لنحتفل وسط الجماهير •
- عمى لن يأتى معنا سيحتفل مع زوجته الحبيبة •
- ماذا تقول يا يوسف؟! هل سلبتك الفرحة عقلك؟! •
- عقلى راسخ لا يقوى مخلوق على انتزاعه •
- تأدبا فأنا أيضاً عقلى راسخ بداخلى • استمتعا بوقتكما ولا تتشغلا  
بى •

يقترب نبيل من العجوز ويقبل يده:

- أرجوك يا عمى أريد أن نحتفل كأسرة وأنت رب أسرتنا الصغيرة  
أنا ويوسف فلا تحرمنا من هذه السعادة التى لن تكتمل بدونك •
- بل أنتما يا ولدى من منحنى هذه الأسرة وهى مبعث السعادة فى  
حياتى أدامكما الله لى •
- وأدامك الله لنا •

– آه منك أضعف أمامك دائماً سأبدل ملابسي وأتى معكما.  
ينهض العجوز بينما يشير نبيل بقبضة يده فى الهواء قائلاً:  
"ما أروعك يا عمى".



(٤)

لحظات السعادة كوميض البرق تومض سريعاً وتنطفئ سريعاً •  
هكذا مرت لحظة التأميم تنهمر بعدها سيول من المؤامرات الجسام  
على مصر التى قررت أن تسترد حقها وتصون كرامتها وتأخذ مكانها  
تحت الشمس •

إن مكانتها أرفع من ذلك؛ لقد كانت الشمس التى تنشر حضارتها  
على الكون قبل أن تعصف بها رياح الغزاة وتلقى بها فى الظلام •  
اقتضت حكمة الله أن يولد الإنسان ضعيفاً ثم يصل إلى ذروة قوته ثم  
يصير إلى الضعف مرة أخرى والأمم كذلك تسير حياتها بهذا المنحنى  
صعوداً وهبوطاً، وها قد مرت سنوات الهبوط التى يكفى مصر منها  
ماعانته بسبب طمع هؤلاء المستعمرين الذين اعتادوا الحياة على دماء  
غيرهم فقررت أن تستعيد مكانتها بخطوات حثيثة صامدة فى مواجهة  
العثرات والعقبات •

فى اليوم التالى للتأميم تقدمت إنجلترا وفرنسا باحتجاج رسمى إلى  
مصر على ما حدث وتلاه تجميد أرصدها فى بنوك بريطانيا وفرنسا  
ثم شكلت بريطانيا وفرنسا قيادة عسكرية مشتركة •

كان على مصر أن تكون على قدر المسئولية فأعلنت أن حرية  
الملاحة مكفولة فى القناة التى أديرت بكفاءة رغم مؤامرة انسحاب  
المرشدين الأجانب لتعطيل القناة وإحراج مصر واستعداد العالم  
عليها • تم اكتشاف شبكة تجسس بريطانية فى شهر أغسطس واعتقل

أربعة من الإنجليز وبعدها تم طرد اثنين من الدبلوماسيين الإنجليز  
لتورطهم فى التجسس على مصر •

بعد نجاح مصر فى إدارة القناة بمرشدين مصريين ويونانيين  
وإيطاليين وأسبان ثم نجاحها فى إثبات حقها أمام العالم، لم يعد أمام  
إمبراطورية الشر سوى الحرب فاتفقت مع حليفتيها فرنسا وإسرائيل  
على غزو مصر تحفزهم قوتهم ونظرتهم الدونية لها •

لم يكن العدوان على مصر وليد التأميم ولكنه كان نزع فتيل قنبلة  
اختزنت غطرسة بريطانيا التى توهمت رجوع عجلة الزمن إلى  
الوراء، بريطانيا التى مازالت تحيا فى وهم الماضى الذى ولّى وتريد  
استعادته، ولا تبصر أنها لم تعد تلعب دور البطولة على مسرح التاريخ  
فسعت بقدميها إلى حتفها؛ من لعب دورًا لا يليق به صار أضحوكة  
الآخرين •

فى فجر التاسع والعشرين من أكتوبر هاجم الإسرائيليون سيناء فى  
اتجاه موقع الكونتيللا تلاه إنذار إنجليزى فرنسى لمصر وإسرائيل  
بالانسحاب بعيدًا عن القناة عشرة أميال لسلامة صادرات العالم، وبعد  
الإنذار كانت أول غارة بريطانية على مطار المازة عبرت فوق منزل  
الرئيس "جمال عبد الناصر" فقرر الرئيس سحب القوات المسلحة من  
سيناء حتى لا يشتت الجيش بين الإسرائيليين من ناحية والإنجليز  
والفرنسيين من ناحية أخرى، وكان مبرره أن مواجهة الإنجليز  
والفرنسيين لها الأولوية وبهزيمتهم يسهل مواجهة الإسرائيليين كما  
قرر إبعاد الطيران المصرى لعدم تكافؤ المعركة •

قرر جمال عبد الناصر إزاء ذلك استرداد كل منابع البترول من الشركات الإنجليزية التي كانت محتكرة منهم كخطوة مكملة للتأمين والتحفز على ممتلكات حوالى ستة آلاف من الأجانب معظمهم يهود لا ينتمون إلى جنسيات معروفة وإن كانوا يحملون جوازات سفر من بعض الدول •

لم يكن يوسف ونبيل بعيدين عن هذا لقد قررا الرحيل إلى بورسعيد وكان قرراً صعباً حيث غادر آخر قطار إلى بورسعيد من القاهرة فى ظهيرة يوم الخميس الأول من نوفمبر وأصبح المنفذ الوحيد عبر بحيرة المنزلة •

"سأذهب معكما"

• بإصرار تحدث مختار مشعلاً غليونه ونفث دخانه فى الهواء

فأجاب يوسف:

– لا يا عمى يكفى سفرنا •

– ويكفينى متابعة نشرة الأخبار فى جانب من منزلى احتسى القهوة واتدثر بغطاء ثقيل من برد الشتاء، بينما شيوخ بورسعيد ونساؤها قبل شبابها ورجالها يموتون فداءً لبورسعيد •

– عفواً يا عمى ولكن الرحلة ليست سهلة •

– لاتحاولا لقد قررت السفر معكما أو وحدى فما رأيكما؟

– لا نستطيع حرمانك من حقك فى الدفاع عن وطنك يا عمى •

– أحسنت يا نبيل •

– كيف سنذهب إلى بورسعيد يا نبيل؟! •

– لقد استطاع صديق لى تدبير الأمر يا يوسف وسنذهب الليلة مساءً على أن نصل صباحًا •

– من هذا الصديق يا نبيل؟ •

– لاتعرفه يا يوسف لنعد أنفسنا للرحيل إلى بورسعيد دفاعًا عن وطننا وموتًا فى سبيله •

– انتبه يا نبيل إننا راحلون دفاعًا عن الوطن وهذا هو الهدف أما الموت فليس هدفًا فى حد ذاته وإنما خيار تفرضه الضرورة فلا ينبغى أن نموت بتهور هدرًا بل ينبغى أن نحافظ على حياتنا حتى لاتخسر مصر شرفاءها ومحبيها •

– الموت فى سبيل الوطن أسمى هدف فى الوجود •

– هذا ما أخشاه لأن التفكير بهذه الطريقة يجعل مصر تخسر أحرارها فلو كان موتك سيحى الكثيرين فاحرص عليه، أما إذا كان الموت والاستشهاد هدفًا لذاته فلا معنى له • ولتعلم أننى مسافر بصفى طبيب أولاً وفدائى ثانيًا •

– ماذا؟! •

– إذا حرص الأعداء على قتل الفدائيين مرة فهم أحرص ألف مرة على قتل الأطباء الذين يحافظون على حياة الفدائيين، وبخاصة فى مجتمع يقل فيه الأطباء بل المتعلمون •

– لا وقت لدينا لمناقشة الأدوار التي سيؤديها كل منا فلنستعد  
إلى الرحيل •



## الفصل الرابع : لقاء عاصف

فى البدء كُنتُ رَجُلًا وامرأة وشجرة

أمل دنقل



## (١)

انطلقت نور نحو المطبخ تعد طعام الإفطار فتحت باب المطبخ  
المطل على الحديقة وتطلعت إلى السماء التي بدت ملبدة بغيوم كثيرة  
تنذر بالمطر، ورغم أن نوفمبر خريف فقد بدا الشتاء متحمساً لغزو  
بورسعيد كالعدوان •

قررت أن تعد الإفطار وتضعه في الحديقة وتقطر مع والدتها رغم  
نذير غارات الحرب والمطر معاً، وكان مبررها تغيير الحالة التي  
مرت عليهما منذ دق العدوان أبواب بورسعيد •

بدأت تعد الطعام وتضعه على صينية وبعد الفراغ من تجهيزه حملت  
الصينية التي حوت البيض المسلوق وحبات الزيتون الأسود، والجبن  
والخبز وبرتقال تعشقه نور على مائدة الإفطار مع بشائر الشتاء  
وسكاكين لوضع الجبن على شرائح الخبز •

اتجهت نور إلى الحديقة ووضعت الصينية على مائدة فيها واتجهت إلى  
المطبخ ثانية لتأتي بصينية الشاي • ظهر شابان داخل الحديقة بملابس  
حرفيين يكسو وجههما الإجهاد والضعف •

كان هذان الشابان يوسف ونبيل متتكرين في ملابس عمال السباكة  
لإصلاحها في المنزل وكان هذا كله جزءاً من خطة لدخولهما بورسعيد  
كبقية الفدائيين الذين تنكروا في ملابس صيادين وباعة ألبان، واستتبع  
ذلك دخولهما إلى هذا المنزل ليختفيا عن الأنظار •

حينما لمح نبيل الطعام ركز نظره إليه في حين انشغل يوسف بتأمل  
المكان حوله •

"سأفقد صوابى من فرط الفتنة" • بلهفة عبر نبيل •

– عن أى فتنة تتحدث يا نبيل؟!

– وهل هناك فتنة تنافس فتنة الطعام وأنا رجل خاوى المعدة منذ مدة طويلة؟!

يلحظ يوسف نظر نبيل المركز على الطعام فيتساءل:

– فيم تفكر أيها المتهور؟

– لم يعد لدى عقل لأفكر به؟

– ليس طعامنا أتفهم؟

– ليس لدى عقل يفكر أو يفهم فلا حرج علىّ فيما أفعل •

– ماذا تقصد؟!

– سألتهم الطعام وليكن ما يكون •

يسرع نبيل نحو الصينية فيحاول يوسف منعه فيدفعه نبيل ويتقدم نحو الصينية فيسرع يوسف ويمسك يده ليمنعه بحسم قائلاً:

– نبيل أرجوك لا أريد إثارة المشاكل •

– هذا الطعام منحة من السماء يا يوسف فلا يليق أن نردها •

خرجت نور حاملة صينية عليها فناجان فارغان وإناء الشاي وإناء السكر وملاعق وتقدمت خطوات إلى الحديقة فلمحتهما عند مائدة

الطعام، فوضعت الصينية على الأرض وتناولت فنجاناً وقذفتهما به  
فطار بعيداً دون أن يصيبهما، فانتبها إلى وجودها فقذفتهما بالثاني  
فخفضا رأسيهما •

"أيها اللصوص أيها الأوغاد" • عبرت نور بغضب •

"أرأيت أيها المتهور؟! لنرحل فوراً" • بغضب تحدث يوسف •

– لا يمكننا الرحيل لقد جننا لمهمة لا يمكن أن نحيد عنها سأقتاهم  
معها •

– إنها متوحشة بلا عقل •

تجرى نور نحوهما فيراها نبيل فيمسك يوسف وبيتعدا قرب شجرة،  
فتقترب من صينية الطعام وتأخذ برتقالة وتقذفهما بها فتصيب يوسف  
فيقع فيتناولها نبيل مبتهجاً ومختبئاً خلف الشجرة •

ينهض يوسف معقّباً بغضب:

– أيتها المجنونة ماذا تفعلين؟! •

– أنا مجنونة أيها اللص الوقح!

تقذفه نور بالبيض والبرتقال فيلتقطه نبيل من الأرض وهو يتمتم:

"ويرزقكم من حيث لا تعلمون" •

يسرع نبيل خلف الشجرة ويتناول الطعام فيسرع يوسف نحوها  
ممسكاً يدها فتصرخ:

– دعنى أيها اللص الحقير •

– لا حقير هنا سواك أيتها المتوحشة •

– تغافله نور وتمسك السكين وتصيبه فى يده يترك يدها ثم يباغتها  
بصفعة قوية من فرط الألم فتسقط مغشياً عليها، يتوقف الطعام فى فم  
نبيل ذاهلاً فيجرى نحو يوسف متسائلاً:

– ماذا فعلت أيها المجنون؟!!

– بل تصرفك الأحق هو ما دفع بنا إلى هذا المصير سأرحل فوراً •

– هل يليق بك كطبيب وكرجل ذى مروءة أن تتركها هكذا بعد ما فعلته  
بها؟!!

– لقد أصابتنى فى يدى إنها حيوان مفترس •

– لا بد أن نقوم بإسعافها ثم نشرح الأمر لأهل البيت وبعدها نقرر  
البقاء أو الرحيل •



(٢)

"أنت تضىء منزلنا يا دكتور مختار" •

بابتسامة عبرت سارة عن امتنانها بوجود الدكتور الذى تنكر فى  
ملابس بائع لبن مرتدياً جلباباً فوقه معطف طويل، ومعه إناء لبيع اللبن  
وضعه بين ساقيه •

أطرق الطبيب العجوز رأسه متحرّجاً ثم عقب:

– أشكرك يا سيدتى لقبولك استضافتنا •

– أنت فى بيتك يا دكتور •

بدا مختار مجهد العينين من مشقة الرحلة بين القاهرة وبورسعيد،  
أتى به دانيال إلى المنزل لأنه لم يجد له ولا ليويسف ونبييل مكاناً آمناً  
أكثر من منزل عمته بالحي الأفرنجى •

قامت الخطة على دخول دانيال أولاً ثم مختار وبعد وقت قصير  
يدخل نبييل ويوسف إلى المنزل استبد القلق بمختار بمرور الوقت ولكنه  
صمت فكسرت سارة حالة الصمت بقولها:

– يبدو أن الرحلة كانت شاقة •

– ليست الأزمة فى مشقة الرحلة ولكن فى المخاطر التى طوقتنا لولا  
عناية الله لصرنا طعاماً سائعاً لبنادق الإنجليز •

– الحمد لله على سلامتك وسلامة من معك •

– أشكرك يا سيدتى القلق يستبد بى لماذا تأخرأ؟

- نهض دانيال واقترب نحو الباب ثم قال مهدئاً:
- لا تقلق يا دكتور مختار سأخرج لأستطلع الأمر •
- ينصرف دانيال بينما ترسم أمارات القلق والخوف على وجه مختار:
- أدعو الله ألا يصيبهما مكروه •
- تفاعل بالله خيرًا يا دكتور مختار •
- ونعم بالله يا سيدتي •
- يسود قليل من الصمت يقطعه دخول دانيال حاملاً نور غائبة عن الوعي، فتفزع سارة وتنهض مقتربة منه بينما يدخل خلفه يوسف ونبيل •
- ماذا أصاب نور يا دانيال؟!
- لاشئ يا عمتي لاشئ •
- إنها غائبة عن الوعي تمامًا!
- ستكون على مايرام أحضري لى زجاجة عطر بسرعة •
- تسرع سارة ثم يضع دانيال نور على الكنية فيغلق نبيل الباب •
- يرمق مختار يوسف بنظرة ريبة يعقبها نظرة تساؤل إلى نبيل الذى يومئ برأسه مؤكداً لمختار شكوكه فى أن يوسف السبب فيترسم الغضب على وجه مختار، تأتى سارة بزجاجة العطر وتقربها من نور التى تفيق وتنظر حولها وما إن تقع عيناها على يوسف ونبيل فتصرخ:

– اللصوص لقد سرقا الطعام يا أمى وحينما تصدّيت لهما صفعى هذا اللص المتوحش •

"لست لصاً أيتها الخرقاء" • بغضب عقب يوسف •

– لا يليق بك أن تجيب هكذا يا ولدى •

– ألم تسمعها يا عمى وهى تصفنى باللص •

– هل تريدنى أن أشكرك على سرقة الطعام وصفعى أنت متبجح!  
اتصلى بالشرطة يا أمى •

يبدو القلق على وجه دانيال:

– الشرطة! إنهما فدائيان يا نور وليسا لصين كما تتوهمين •

تتأملهما نور باشمئزاز معقبة:

– فدائيان! لا أصدق ذلك •

يتقدم نبيل من سارة التى بدت كاتمة غضبها ثم يبتسم قائلاً:

– لقد حدث سوء فهم أنا سببه يا سيدتى؛ كنت جائعاً فلم نتناول الطعام منذ تركنا القاهرة وحينما رأيت صينية الطعام لم أستطع مقاومته فأكلت منه، فحدث الصدام وأنا أعتذر لك ولها يا سيدتى •

– ولكن هل يصل الأمر بصديقك إلى صفع ابنتى؟! •

"لقد أصابتنى بالسكين" • بغضب دافع يوسف عن نفسه مشهراً يده الجريحة فى وجه سارة •

التفتت سارة بغضب مكتوم نحو نور وتساءلت:

– لماذا أعددت الطعام فى الحديقة ألا تنتبهين إلى ظروف البرد  
والحرب؟!

– وما علاقتنا بذلك؟!

همس يوسف فى أذن نبيل: "أرأيت إنها معتوهة" •

– ماذا تقولين يا نور؟ السحب تنذر بالمطر والحرب أيضا تنذرنا بقنابل  
وصواريخ •

– لا علاقة للحى الأفرنجى بالقنابل والصواريخ أما المطر فانا أعشقه  
وأعشق السير فيه وأردت كسر حالة الكآبة التى فرضتها الحرب  
علينا •

"أنت رائعة!" • بإعجاب عبر مختار فاستقر يوسف فانكمش وجهه  
كقطعة قماش أطبقت يد عليها بقوة • انتبهت نور إلى مختار ورمقت  
دانيال بنظرة تساؤل عنم يكون فأجاب دانيال:

– الدكتور مختار طبيب أمراض نفسية وعصبية ودكتور نبيل صيدلى  
ودكتور يوسف طبيب تقاطعه نور: "بيطرى" •

يضحك نبيل فيرقه يوسف بنظرة غضب فيكتم نبيل أنفاسه  
وابتسامته •

– أرأيتَ يا عمى إنها سليطة اللسان تفتقر إلى الأدب •

– أنا سليطة اللسان! أنا أفتقر إلى الأدب أيها الأحمق!



- لا يليق هذا يا نور؛ إنه ضيفنا يا ابنتى.
- إنه يسبنى بدلاً من الاعتذار إن صديقه قد سرق الطعام مثله ولكنه مهذب ذو خلق.
- يرمقها نبيل بنظرة ضيق هامساً فى نفسه:
- سرق الطعام! أخطأ حين صفحك صفقة واحدة كان عليه أن يمطرك وأبلاً من الصفعات.
- يبتسم دانيال لتلطيف الجو ثم يوضح لها:
- دكتور يوسف طبيب فى أمراض القلب.
- إذن لم أخطئ يا دانيال أمراض الكلب تابعة للطب البيطرى.
- يكاد يوسف ينفجر من الغضب فينهرها دانيال:
- كفى يا نور إنه ضيفنا ولا يليق معاملته بهذه الطريقة.
- تبتسم سارة ثم تعقب: "عذراً يا سادة فلنتجاوز ما حدث من سوء فهم.
- تفضلوا بالجلوس".
- يجلس الجميع ثم يتبادل يوسف ونور نظرات غضب كعدوين خاضاً أعواماً فى العداوة.
- يبتسم مختار ويقول:
- إن المحبة تأتى بعد العداوة كما يقول المثل. وقد زالت العداوة نحن فى انتظار المحبة الآن.

- أصبت يا عمى ولكن المحبة أولها خبز وملح •
- رمق مختار نبيل بنظرة غضب فابتسمت سارة وأشارت إلى نور:
- هيا يا نور لنعد الطعام •
- نهضت نور تصحبها سارة متجهتين إلى المطبخ •
- أعتذر لكم يا سادة عما بدر من ابنة عمتي نور إنها طيبة القلب رقيقة كالنسيم •
- يهمس يوسف في أذن نبيل:
- نسيمها كالعواصف ورقتها كالأفاعى؛ كادت تفتك بنا من أجل صينية طعام •
- "ما أخبار العمليات الفدائية يا دانيال؟" • بلهفة تساءل مختار •
- إننا نقوم الآن بتنظيم أنفسنا وفي انتظار الأوامر ولكن عفواً يا سيدي هل تريد الاشتراك في المقاومة لقد تصورت أنك جئت كطبيب حتى لو كنت غير متخصص في الجراحة •
- لا يضللك لون شعري تأمل صحتي إنها موفورة والحمد لله والدليل تجاوزى مشقة السفر •
- أنا معجب بحماسك يا دكتور مختار •
- أشكرك يا ولدى وأدعو الله أن يدفع عن بورسعيد ومصر كلها البلاء •

أثناء الحوار بين مختار ودانيال كان يوسف ونبيل يراقبان كلام مختار  
بدهشة ولكنهما لم يعقبا مكتفيين بما حدث من استفزازات ومضايقات •  
"أود أن ألفت انتباهكم أن والدى لا يعلم شيئاً عن انضمامى إلى  
الفدائيين" • بحذر تحدث دانيال •

تبادل الرجال الثلاث نظرات دهشة •

– لا تندهشوا فهذه قصة طويلة أرويها فيما بعد •

– لا تخش شيئاً يا ولدى •

أقبلت سارة حاملة أطباق الطعام وخلفها نور حاملة صينية عليها  
الشاي فدعاهم دانيال لتناول الطعام فنهض الرجال وجلسوا حول  
السفرة •



(٣)

"عليك أن تتحلى بالعقل يا نور" •

بوجه صارم تحدثت سارة إلى نور وهما جالستان على الفراش  
بحجرة نور •

– ماذا تقصدين يا أمي؟! هل تريننى معتوهة؟

– أعنى ما حدث اليوم •

– من الذى بدأ بالعداء؟! •

– ما يهمنى رد فعلك الذى اتسم بالرعونة •

– ماذا تنتظرين منى حينما أرى غربيين يسطوان على بيتنا؟! •

– الأمر لا يستحق كل هذا وبخاصة أنك تساعدين الفقراء •

– لم يطرقا البيت طلباً للمساعدة بل أخذوا ما أرادوا رغماً عني •

– مافات انتهى ينبغى الاهتمام بما هو آتٍ عليك التحلى بالصبر •

– لا مجال للصدام؛ فهمت كل شئ •

– الصدام مازال قائماً؛ الدكتور يوسف يبدو لى شخصاً لا يألف الناس،

ولا يحب المزاح لذا عليك تجنبه قدر المستطاع •

– كما تشائين يا أمي •

– علينا أن نفرغ خزانة ملابسك وخزانة ملابسى ونذهب بهما إلى  
حجرة جدك لأننا سننام فيها وسينام يوسف ونيل فى حجرتك وحجرتى  
ستكون لدانيال ودكتور مختار •

– حسناً يا أمى اذهبى إلى حجرتك وأحضرى ملابسك وسأتبعك إلى  
حجرة جدى •

تتصرف سارة بينما تنهض نور وتبدأ فى وضع الملابس بحقيبة  
السفر ثم تشرّد فيرتسم أمامها ما حدث بالحديقة كأنه مشهد سينمائى  
يُعاد فجلس على السرير، وتضع يدها على موضع الصفة من خدها  
قائلة بسخط:

– هذه أول مرة يصفعنى أحد كيف يتعامل هذا المتوحش مع مرضاه  
كيف يشفى القلوب وقلبه مريض بالقسوة والجفاء؟!

تطرق سارة الباب منادية من الخارج: "هل انتهيت يا نور؟" •

– سأفرغ من جمع الملابس حالاً •

تجمع نور ملابسها وتتجه إلى حجرة جدها وتقوم بتنظيف الحجرة  
وتذهب سارة إلى الرجال وتدعوهم لينالوا قسطاً من الراحة •



(٤)

"ما هذا الحظ التعس؟!"

بسخط شديد عبر يوسف عن غضبه بعبارة مقتضبة.

غطَّ نبيل في نوم عميق بينما قطع يوسف الحجرة ذهابًا وإيابًا وقد أعجزه التفكير عن النوم رغم قسوة الرحلة، وما خلفته من إجهاد ولكن عقله لم يعد يشغله إلا هذه المخلوقة التي لم تكن ضمن حساباته.

جلس يوسف على مقعد أمام السرير فلمح صورة نور على التسريحة داخل إطار ذهبي فنهض وأدار الإطار ليخفي صورتها عن ناظره، وتحرك خطوة ثم عاد وقلب الإطار على وجهه وجلس شاردًا عن كل ما حوله إلا صورة نور التي لم يستطع إخفاءها عن خياله يحدث نفسه:

– لن أحتمل البقاء مع هذه المخلوقة من يخش العفريت يظهر له والعفريت يتعقبنى فى المستشفى فى العيادة وحتى هنا فى بورسعيد .  
يسمع يوسف طرْقًا على الباب فيجيب: "من؟"

– أنا نور .

يتملك يوسف الغضب فينهض ويضئ الحجرة ويفتح الباب:

– ماذا حدث؟

– لقد نسيت بعض الأشياء الخاصة بى .

– أى أشياء؟

– حامل الرسم وبعض الأوراق والروايات •

– تفضلى خذى ما تريدين •

تدخل نور وتأخذ أوراقها ورواياتها ثم تأخذ حامل الرسم فتبدو لا تستطيع حمل الأشياء لكثرتها وثقلها، فتتظر إليه طالبة المساعدة فيتجاهل نظراتها فترمقه بنظرة غضب وتتقدم نحو الباب فيسقط حامل الرسم على زهرية فوق منضدة قصيرة أمام السرير فتسقط الزهرية متهشمة فتثير ضجيجًا يوقظ نبيل فرغًا صارخًا:

– هل هجم الإنجليز؟

ينتبه نبيل إلى ما حوله فيخجل من نفسه ثم يتجاهل ما فعل متسائلًا بهدوء شديد:

– ماذا حدث؟!

– لقد أطاح حامل الرسم بالزهرية فسقطت على الأرض أعذر عن إيقاظك على هذا النحو •

– إنها تعتذر يا نبيل أرايت؟! لم تستطع الصبر حتى نستيقظ ثم تأتي لتأخذ ما تريد •

ترمقه نور بنظرة غضب معقبة: "أسفة، ولكن يبدو أنك لم تنم" •

– هذا شأنى وإياك وإقحام نفسك فى أمورى •

– يوسف أرجوك توقف عن هذا هى لم تتدخل فى شئونك •

- سأذهب لأضع حاجياتى بحجرة جدى وأحضر المكنسة لتنظيف المكان.
- تتنصرف نور بينما يتأمل نبيل يوسف بغضب شديد ثم يتحدث بلهجة تأنيب:
  - أنسيت أننا ضيوف بمنزلهم؟! هل فقدت صوابك!؟
  - و القدرة على النوم أيضاً بسبب ما حدث منذ دخلنا إلى هذا المكان الملعون.
  - عليك أن تتحمل حتى تنتهى الحرب.
  - لا أحتمل البقاء هنا مع هذه المخلوقة.
  - رغم ما حدث إلا أننى على يقين أنها رقيقة ولطيفة.
  - لا تردد على مسامعى مميزاتها؛ لم أقطع هذه المسافة لأظفر بيدها.
  - يوسف يبدو أنك نسيت لماذا جئنا إلى هنا، هذا المكان الذى تصفه بالملعون مكان آمن لأنه بحى لا تستهدفه قوات العدوان، وسيكفل لنا دانيال الدخول والخروج بأمان.
  - لا أشعر فيه بالأمان والراحة.
  - بديلك إذن معسكرات الإنجليز ولكن أخشى أن تكون الإقامة غير مريحة هناك.
- تقطع نور الحديث بالطرق على الباب فيجيب نبيل: "تفضلى".



تفتح نور الباب وتدخل حاملة المكنسة وبحسم تتحدث إليهما ناظرة إلى يوسف:

– ينبغي أن تغادرا الحجرة لأنظفها •

يخرج نبيل ويوسف فتبدأ فى تنظيف الحجرة فيلفت انتباهها صورتها المقلوبة فترسم أمارات الغيظ على ملامحها، فتعيد الصورة كما كانت ثم تبدل رأيها وتأخذها وتضعها على الكومود المجاور للفراش ثم تكمل تنظيف الحجرة وتفتح الباب فتراهما أمام الباب:

– تفضلاً لقد انتهيت من تنظيف المكان •

يدخل نبيل خلفه يوسف الذى يغلق الباب باندفاع فى وجه نور فيسرع نبيل ويفتحه ثم يعتذر:

– عفواً يا نور لقد أفلت الباب من يده دون أن يشعر •

– حقاً إنه رجل مهذب ذو خلق رفيع لا تشغل بالك يا دكتور نبيل •

انصرفت نور فأغلق نبيل الباب ثم أمسك بذراع يوسف بغضب وأجلسه على السرير مؤنباً:

– هل ينبغي أن أذكرك فى كل لحظة لماذا جئنا إلى هنا؟!

– لا أستطيع تبديل نفسى بهذه السرعة •

– لترحل إذن؛ لست كفئاً للمهمة التى جئنا من أجلها •

– ماذا تقول ؟! هذه أول مرة تجرحنى على هذا النحو •

– إن مصر تواجه معركة البقاء وأنت تقول لا أستطيع إنها معركة الرجال أتفهم؟!

– ألا ترانى رجلاً على قدر المسؤولية؟!

– أنت سجين مأساتك والدليل أنك فى غيبوبة عما يحدث حولنا ولا ترى سوى مشكلتك أنت •

– هذه قسوة لم أعدها منك •

– لأننى أحبك حباً شديداً كما أحب مصر ولا أتحمل ما يحدث لها الآن علينا أن نفرغ عقولنا مما يشغلها إلا شيئاً واحداً الخلاص من هؤلاء المعتدين •

– حسناً يا نبيل •

– لتتل قسطاً من الراحة لتجدد نشاطك فأمامنا عمل شاق •

أغلق يوسف النور وعاد نبيل إلى النوم •

حينما وضع يوسف رأسه على السرير اصطدم بصورة نور بجواره على الكومود، فتنهد وهمّ بقلبها ثم بدل رأيه وغطى وجهه تجنباً لرؤيتها •



## الفصل الخامس : الماضى الحزين

إذا ظالمٌ يستحسن الظلمَ مذهبًا  
ولجَّ عُتوًّا فى قبيحِ اكتسابِه

فكلُّهُ إلى صرفِ الليالى ٠٠٠ فإنَّها  
سَنُبْدِى له مالم يَكُن فى حسابِه

الإمام الشافعى

(١)

استيقظ مختار ونظر فى ساعته فوجدها تخطت الثامنة مساءً لقد غفا كثيراً من فرط التعب ارتدى المعطف، وهبط السلم فوجد سارة ونور تتناولان القهوة فى ركن الأنتريه بينما دانيال بركن السفارة يستمع إلى المذياع متابعاً أحداث الحرب منعزلاً عما حوله •

انتبهت نور إلى وقع أقدام مختار مبتسمة برقة ثم تساءلت:

– كيف حالك الآن يا عمى؟

– الحمد لله يا ابنتى ما أعذب كلمة عمى من شفئك الرقيقتين!

تعلو حمرة الخجل وجه نور فتخفض رأسها بينما تبتسم سارة قائلة:

– يبدو وجهك أفضل من الصباح الحمد لله وكيف حال الشابين العزيزين؟

– إنهما يغطّان فى نوم عميق •

يخرج مختار غليونه ويهم بإشعاله فتمنعه سارة:

انتظر يا دكتور حتى تعد لك نور فنجائاً من القهوة كيف تفضلها؟

– سادة يا سيدتى •

تنهض نور وتذهب إلى المطبخ بينما يتأمل مختار سارة فى دهشة تقطن إليها فتعقب:

– لا تتعجب يا دكتور مختار كان والد نور رحمه الله يحب تناولها مع السيجار •

ينتبه مختار إلى دانيال وقد استغرق في الأخبار التي يبثها المذيع،  
فتساءل مختار:

– ما الأخبار يا دانيال؟

– لقد ضربت قوات العدوان الإذاعة المصرية وبعدها بدقة خرجت  
إذاعة سورية الشقيقة تقول "هنا القاهرة من دمشق" مؤازرة لمصر في  
محنتها •

– ليس غريباً أن يفعل أحرار سورية عريقة المنبت ذلك وأتوقع الكثير  
منهم ومن العرب جميعاً ولكن كيف تُتابع الأحداث الآن؟

– على الموجات الإضافية وأحياناً الإذاعات العالمية •

– هل هناك حدث آخر؟

– نعم خطب الرئيس اليوم من الجامع الأزهر في صلاة الجمعة •

– ماذا؟! •

– روى تفاصيل المؤامرة الدنيئة التي حاكها الشياطين الثلاثة إنهم بلا  
شرف أو مروءة •

– الحرب والشرف لا يتفقان ولو أنك قرأت ما فعله هتلر بالأسرى وما  
فعلته قوات الحلفاء عقب هزيمة ألمانيا ستعى ما أقوله • عالم الحرب  
كعالم البحار القوى يأكل الضعيف •

– قال الرئيس: "لقد فرض علينا القتال ولكن لن يوجد من يفرض علينا  
الاستسلام وسنقاتل دفاعاً عن حريتنا وكرامتنا" •

يلمح مختار مكتبة بجوار السفارة تحوى كتباً إسلامية ومصحف كبير على الخزانة المجاورة لها، فيتعجب ثم ينتبه إلى صوت أقدام على السلم فيرى يوسف ونبييل يهبطان يتشاءب كل منهما ثم يقتربان من السيدة التى تلقاهما بابتسامة متسائلة:

– كيف حالكما الآن؟

يتجاهلها يوسف بينما يحيب نبييل مبتسماً:

– الحمد لله أفضل كثيراً من الصباح •

– استريحا وسألحق بنور لأعد لكما القهوة • كيف تفضلانها؟

– أنا أفضلها مضبوطة ويوسف يتناولها باللبن •

– وأنا أيضاً يا عمتى أحتاج فنجاناً من القهوة •

– حالاً يا حبيبى •

تنصرف سارة بينما يجلس يوسف مجاوراً لمختار ويجلس نبييل مجاوراً دانيال لمتابعة الأخبار فيتأمل مختار يوسف:

– لماذا أنت عابس هكذا؟

– لاشئ لم أفق من النوم بعد •

– أهو النوم فقط؟!

يشيح يوسف بوجهه متهرباً من نظرات مختار الذى يبدو كاتماً غضبه ثم يسود الصمت •

بعد قليل تظهر نور حاملة صينية القهوة، تتبعها سارة تحمل صينية عليها أطباق الحلوى وتقترب نور من مختار •

– هذه قهوتك يا عمى •

– أشكرك يا ابنتى •

– بالهناء والشفاء يا عمى •

يرمقها يوسف بنظرة غيظ وغضب لكلمة عمى فتقترب منه وتقدم إليه القهوة قائلة:

– القهوة باللبن التى طلبتها •

– أنا! أنا لم أطلب شيئاً •

ترمقه نور بنظرة غضب واشمئزاز:

– ماذا؟! ماذا تقول؟! •

يتمالك يوسف نفسه متجاهلاً ما تلفظ به ويتناول القهوة معقّباً بوجه جامد: "شكراً" •

تتجاهله نور وتذهب إلى الشابين اللذين يتابعان المذيع وتضع القهوة على السفرة ثم تعود إلى الجلوس فى ركن الأنترية بينما تقدم سارة الحلوى إلى نبيل ودانيال الذى رفض قائلاً:

– لن أستطيع تناول الحلوى مع القهوة يا عمتى •

– قطعة واحدة فقط تمنحك طاقة فى البرد وأنت يا دكتور نبيل لا تحتاج إلى دعوة أنت فى بيتك •

– أشكرك يا سيدتى •

تعود سارة وتجلس بجوار نور التى تبادلت مع يوسف نظرات  
كفوهة مسدسات كاتمة للصوت غائبين عن حولهما •

كان الطبيب العجوز يرقبهما بعينين تبتسمان ابتسامة ماكرة  
مستشرفاً شيئاً يبعث على التفاؤل خيم الصمت على المكان، فجأة انتبه  
الجميع إلى صوت طرق على الباب فانتفض دانيال واتجه نحو الباب  
بحذر متسائلاً: "من الطارق؟" •

– أنا يعقوب افتح يا دانيال •

يفتح دانيال الباب فيدخل يعقوب الذى بدا رجلاً فى السابعة  
والخمسين تقريباً طويل القامة له شارب وملامح تشبه دانيال، يتدرج  
شعره بين الأبيض والأسود بصحة جيدة •

نظر يعقوب بوجه متعجب من رؤية هؤلاء الغرباء ففطنت  
سارة إلى نظراته بينما أغلق دانيال الباب نهضت سارة واقتربت من  
يعقوب وابتسمت لتخفف من حدة نظراته إلى الضيوف وقالت:

– تعالى يا يعقوب لتتعرف على الضيوف دكتور مختار ودكتور نبيل  
ودكتور يوسف •

– أهلاً بكم •

يتقدم مختار ويمد يده ليصافحه: "أهلاً بك يا سيد يعقوب" •

يصافحه يعقوب بصمت وتجهم؛ لم يدرك من هؤلاء •



– هذا يعقوب أخى ووالد دانيال •

يلتفت إليها يعقوب بتعجب وتساؤل كاتمًا غضبه فتجيبه فوراً:

– الرجال جاءوا من القاهرة لينضموا إلى الفدائيين •

– من أتى بهم إلى هنا •

– أنا يا والدى؛ طلب منى صديق مع الفدائيين أن أدبر لهما مكاناً آمناً  
ولم أستطع رد طلبه ولم أجد أأمن من بيت عمى، كما أننى سأقيم معهم  
حتى تنتهى مهمتهم •

يبدو يعقوب مقتنعاً إلى حد ما برواية دانيال فيبتسم ابتسامة تفتقر  
إلى الحماس ثم يعقب:

"لقد أضأتم بورسعيد تفضلوا" •

يجلس الجميع بينما يعقب مختار: "بورسعيد مضيئة يا سيد يعقوب  
بأهلها الأبطال" •

ابتسم نبيل بسخرية: "وبنيران العدوان أيضاً" •

– لماذا جئت بهم إلى هنا ولم تأتِ إلى منزلنا يا دانيال فهو أيضاً آمن؟

– تحسباً لأى هجوم ولو بنسبة ضئيلة والمنزل هنا به قبو يمكنهم  
الاختباء به عند الخطر •

– أصبت يا ولدى فليباركك الرب، اطمئنوا يا سادة أنتم هنا فى أمان  
وسنبذل جهدنا لتأمينكم هذا أقل ما نقدمه إلى مصر التى أكرمتنا وهى  
بمثابة وطنٍ ثانٍ لنا •

تبدو الدهشة على وجوه الرجال الثلاث فيبادر نبيل بالسؤال:

– أأستم مصريين يا سيد دانيال؟!

– لا إننا أرمنيون، وطننا الأصلي هو الأناضول الذى غادرناه قهراً  
ولكن الرب خير معوض •

– الأناضول! أليست مدينة تركية؟!

– نحن أقدم من سكن الأناضول تحديداً الهضبة الأرمنية شرق  
الأناضول •

– ولماذا غادرت وطنك قهراً؟!

– إنها قصة طويلة وقديمة لا أريد إبلاكم بها •

– إن الألم لا محل له من الإحساس فى مثل هذه الظروف إلا إذا كان  
سراً فعلى أن أحترم احتفاظك به •

"لا ليس سرّاً يا دكتور نبيل قُصَّ عليهم يا يعقوب" • بحزن عبرت  
سارة •

– كنا نعيش فى الأناضول أنا وأمى وأبى وأختى سارة وكانت طفلة  
حينها فى منزل لا تبرح صورته خيالى وفجأة تبدلت حياتنا إلى جحيم •  
"لماذا يا سيد يعقوب؟" • بترقب طرح نبيل السؤال •

– فى يوم أسود من أيام أبريل قررت الدولة العثمانية القضاء على  
جنس الأرمن إما بالقتل أو بالتهجير من الأناضول، وبقاع أخرى وكنا  
حينها فى زيارة عمتى التى تقيم فى "سيفيديا" قرب "جبل موسى" •

– "جبل موسى" فى سيناء!

– عفواً يا دكتور نبيل "جبل موسى" الذى أتحدث عنه غرب أنطاكية  
لا الموجود بسيناء •

– "جبل موسى" الذى يتحدث عنه يا نبيل يقع الآن فى لواء  
الإسكندرونة السورى الذى استولت عليه تركيا عام ألف وتسعمائة  
وتسعة وثلاثين، لقد قرأت كتاباً كاملاً عنه وعن النزاع بين تركيا  
وسوريا حوله •

– ولكن معلوماتى يا (جو) أن الإسكندرونة ضمن الأراضى السورية •

– هذا لأن سورية تضعها ضمن خريطة أراضيتها، وتعتبرها ضمن  
محافظاتها ولا تعترف بالوجود التركى فيها •

– اللصوص!

– بل السفاحون يا صديقى لقد أساءوا معاملة السكان العرب والأقليات  
العرقية ومنها الأرمن وتسببوا فى هجرة الكثير منهم •

– وماذا حدث بعد ذلك يا سيد يعقوب؟

– قررنا الاعتصام بجبل موسى واستمر ذلك من يوليو إلى سبتمبر عام  
ألف وتسعمائة وخمسة عشر وتعذر على الأتراك مهاجمتنا لطبيعة  
المكان الجغرافية ولوجود المؤن والذخيرة التى مكنتنا من الدفاع عن

أنفسنا رغم حصارهم للمكان، ولكن الذخيرة والطعام كانا قد أوشكا على النفاد.

– وكيف واجهتم ذلك؟ •

– لحسن الحظ كانت لدينا حرية الاتصال عن طريق البحر فرفعنا رايات الاستتجاد التي استجابت لها سفن فرنسية عابرة في البحر، ونزل قائدها وتحدث مع قائد المقاومة "بيدروس ديملاكيان" • وطلب منه نقل النساء والأطفال والشيوخ إلى قبرص •

– يجعل الله في قضائه رحمة يا سيد يعقوب •

– الرب رحيم يا دكتور مختار ولكن هناك عباد يفتقرون إلى هذه الفضيلة لقد رفض المنوب السامي البريطاني بقبرص استقبالنا، فقرر القائد الفرنسي مخاطبة مندوب بريطانيا في مصر •

– يبدو أنه كان رحيماً أكثر من مثيله بقبرص •

– للأسف لم يصل إلى القائد الفرنسي ردًا بالرفض أو القبول فنقلنا على مسؤوليته إلى بورسعيد وكان عددنا يفوق أربعة آلاف، لم تحتل عمتي مشقة الظروف التي عشناها فارقت الحياة قبل ركوبنا السفن •

– رحمها الله، ولكن لا أفهم كيف قبلت بريطانيا وجودكم كأمر واقع •

ربما لأن بريطانيا وفرنسا كانتا حليفين أثناء الحرب العالمية الأولى •

– ولكن لماذا ارتكبوا كل هذه المذابح يا سيد يعقوب؟! •

– أثناء الحرب العالمية الأولى حاولت روسيا أن تستغل سخط الأرمن لتستخدمهم ضد الدولة العثمانية التي كانت على مشارف الهلاك، والغرب يتنازع على أملاكها.

– وما سبب سخط الأرمن؟!

– بعد ضعف الدولة العثمانية لم تعد قادرة على حمايتنا من هجمات الشراكسة والأكراد ولا حتى تحسين أحوالنا وربما كان هناك من تعاون مع الروس ضدها ولكن ما ذنبنا نحن؟!

يخرج يوسف عن صمته:

– التاريخ حافل بمذابح ارتكبتها الإنسان بحق أخيه الإنسان ولم يعدم مبرراً لأفعاله الدنيئة.

يشعل مختار غليونه وينفث دخانه متخلصاً من شحنة غضبه:

– وكيف سارت حياتكم هنا يا سيد يعقوب؟

– أقمنا في خيام أعدها أهل بورسعيد الكرام و أطلقنا دعوات في ربوع مصر لمساعدتنا تبرع فيها الفقراء قبل الأغنياء، والمسيحيون والمسلمون سواء.

– هذه هي مصر يا سيد يعقوب كما هي الآن في مواجهة العدوان جسد واحد.

بحماس شديد يقتحم دانيال الحوار:

– إن ما يميز مصر كثير يصعب حصره بل تفسيره إنها لغز كبير لى  
يا سادة •

"لماذا يا دانيال؟! " • بتعجب تساءل نبيل •

– إنها تفتن الغرباء فتنسيهم أوطانهم فيذوبوا فيها وكأنها وطنهم  
الحقيقى ولا أعرف سرها مطلقًا

– يعقب يوسف الذى كان مولعًا بقراءة التاريخ:

– حقًا لقد فتنت علماء الحملة الفرنسية فلم يعودوا إلى وطنهم بعد فشل  
الحملة، وهناك الشاعر "بيرم التونسي" الذى لم يحتمل نفيه إلى باريس  
وهرب ليعود إلى مصر •

"هى جريمة نكراء حقًا" • بضيق عقب نبيل •

– لم تكن الجريمة الوحيدة؛ لقد أبادوا أعراقًا أخرى من السريان  
والأشوريين والكلدان •

"صار بنا الحديث فى اتجاه آخر وأريد أن يكمل السيد يعقوب حديثه" •  
بلهفة تحدث مختار •

– لقد احترف والدى التصوير على الشواطئ بكاميرا أهداها إليه احد  
أبناء الجالية الأرمنية المستقرين هنا منذ عقود، وكانت حجر الأساس  
للأستديو الكبير الذى أديره الآن •

تقاطععه سارة: " ثم أقام هذا المنزل الذى نشأت فيه وتربت فيه نور  
أيضًا" •

– إذن يضم هذا المنزل الماضى والحاضر والمستقبل •

– نعم وقد أخبرنى والدى أن الشيخ "سليم البشرى" شيخ الأزهر أصدر فتوى بتجريم ما فعله الأتراك، وأنه يتعارض مع تعاليم الإسلام السمحة وكان ذلك سبباً فى إسلام والدى وقد نشأت على الإسلام فى حين بقى أخى يعقوب وأمى على المسيحية •

– عفواً يا سيد يعقوب هل المكتبة المجاورة للسفرة تخص والدك رحمه الله •

– نعم ويوجد مكتبة أكبر منها بحجرة الصالون •

– إنها تحفل بكتب عن الإسلام وعن تاريخ الفراعنة •

– لقد كان والدى مفتوناً بالفراعنة العظام على حد وصفه لهم • وكل ما أوده منكم أن تتقوا أنكم فى مأمن وبخاصة مع وجود قبو أسفل المنزل لا تصل إليه العفاريت •

"قبو! أى قبو هذا؟!!" • بدهشة تساءل نبيل •

ينهض دانيال: "بعد إذنك يا والدى هل يمكن أن أطلعهم عليه ليطمئنوا" •

– بالطبع يا ولدى وأنا سأتى معكم تفضلوا يا سادة •



(٢)

"تفضلوا يا سادة" •

بهدهوء تحدث يعقوب وهو يضغط على أحد جدران المطبخ الذى تحرك إلى الداخل ليسفر عن ممر مظلم خلف الجدار فى نهايته درجة سلم يتجه إلى أسفل، فنزل يعقوب والجميع خلفه إلا نور وسارة •  
ظهر قبو يتسع لمساحة البيت بعد برهة تكتشف بالكاد ملامح المكان فى ضوء مصباح يحمله يعقوب، فظهر صندوق خشبى طويل يشبه التابوت الفرعونى يعلوه قفل كبير ويتوسط القبو منضدة صغيرة عليها آلة كاتبة وكرسى خشبى خلفها، وضع يعقوب المصباح على المنضدة فاعترت الدهشة الوجوه فاقترب نبيل من الصندوق وتحسسه ثم سأل يعقوب:

– من يسكن هذا التابوت؟!

– التاريخ يا دكتور •

"التاريخ؟!" • بدھشة عقب يوسف •

– أهو لغز؟!

– لا يا دكتور نبيل ليس لغزاً إن لهذا التابوت قصة •

"إنها ليلة القصص إذن" • بسخرية عبر نبيل عما يحدث فى ذلك اليوم الحافل بالمغامرات والصراعات فى بدايته والقصص العجيبة فى نهايته •



نظر يعقوب إلى الصندوق نظرة استرجاع ذكريات قديمة ثم أجاب:  
- بنى والدى هذا القبو ليسجل فيه التاريخ لقد أحب مصر والتحم بأهلها  
فى الأفراح والأحزان وآلمه كثيرا إساءات الإنجليز لهم فقرر أن يسجل  
كل شئ هنا على الآلة الكاتبة.

أشعل مختار عود ثقاب وقربه من الصندوق وتأمله:  
- وما علاقة هذا الصندوق الضخم بذلك؟!

- اعتاد والدى فى نهاية اليوم تسجيل كل ما يشاهده أو يسمعه فى أى  
مكان فى مصر، ويحتفظ به فى الصندوق بل كان يصور ويؤرخ  
الأحداث بالصور أيضاً.

تنهد نبيل وقال: "ولماذا احتفظ بما سجل هنا؟"

- بالرغم من شعورنا بالأمان فى مصر إلا أن والدى كان بداخله  
رواسب مما حدث فى الماضى من قتل وتهجير قسرى لنا، فخشى أن  
يقع الورق فى يد الإنجليز فقرر إخفاءه هنا.

يقترب دانيال من الصندوق مبتسماً:

- أول مرة دخلت هنا ارتعدت من ظلمة المكان ولكن مع الوقت ألفتها  
وحينما رأيت الصندوق قلت له أريد أن أختبئ فيه، ففزع وقال لا  
أحوجنا الله إلى ذلك يا حبيبى.

يمسك يوسف بالقفل الذى يبدو ثقيلاً ثم يتركه ويتأمل الصندوق:

- أتعنى أن هذا الصندوق يحوى جزءاً من تاريخ مصر؟

- نعم يا دكتور باليوم والشهر والسنة بدقة شديدة.
- عفواً يا سيد يعقوب لا يمكن وصف التاريخ بأنه دقيق.
- لماذا يا دكتور يوسف؟!
- التاريخ عهدة كاتبه الذى هو فى النهاية مهما كانت ثقافته أو أخلاقه الرفيعة يعانى من الهوى أحياناً أو ضعف القدرة على الوصف الدقيق.
- كيف ذلك؟!
- أنا شغوف بقراءة التاريخ من أكثر من مصدر وللأسف الحادث الواحد لا تظفر فيه برواية محددة أو مضمون واحد وتظل نهباً للحيرة.
- ربما الخوف من الحاكم أو الطمع فى رضاه هو السبب وهذا لا يتوفر فى حالة والدى.
- ربما فيما شاهده أما ما سمعه من الناس فمحل نظر ورغم ذلك فإن هذا الصندوق يحوى كنزاً عظيماً هل لى أن أطلع على ما فيه.
- بالطبع يا دكتور.
- يفتح يعقوب القفل ثم يفتح الصندوق فتبدو حافظات أوراق متراسة فوق بعضها نظيفة حيث كانت سارة تتعهده بالنظافة يومياً.
- بدأ الدهشة والإعجاب على وجوه الضيوف فاقترب يوسف وأمسك حافظة كُتب عليها ثورة يوليو وبدأ يتصفحها ثم رمق يعقوب بدهشة وعلق:
- الأحداث مكتوبة يوماً بيوم.

– نعم ولكنه لم يتمكن من تسجيل قانون الإصلاح الزراعى لقد داهمه المرض وتوفى بعده •

– ألم تفكر فى طباعة ذلك الكنز؟

– بالطبع سأفعل ولكن حينما لا يمثل ذلك خطراً لقد كان والدى محقاً فيما فعل •

– لماذا؟

– فى عام واحد وخمسين بعد تفجير معسكرات الإنجليز انتشروا فى شوارع بورسعيد يبحثون عن الفدائيين وحينما وصلتهم أنباء عن اختباء أحدهم فى الحى الأفرنجى داهموا المنازل وأحمد الله أن الأوراق لم تقع فى أيديهم •

– وهل كانوا سيصلون إلى هذا القيو؟!

– كان رئيس مخابرات بريطانيا (ميجور ويليامز) يقود عمليات البحث بنفسه وقد استطاع الإيقاع بالكثير من الفدائيين ربما أمكنه الوصول إلى هذا القيو إنه كارثة •

"كم أشتاق لرؤيته" • بغضب شديد ولهفة أشد عبر نبيل •

– إنه رأس الحربة لقوات العدوان الآن؟

– لماذا؟

– لأنه يعرف بورسعيد ويحفظ شوارعها وأزقتها أكثر من بريطانيا، ويجيد اللغة العربية كما يجيد اللهجات المصرية •

– ربما استبقاه الله ليدفع ثمن ما اقترف على يد أهالي بورسعيد •  
"لقد كان والدك حكيماً فيما فعل فلا تتعجل طباعتها حتى يرحلوا" •  
بابتسامة عقب مختار:  
– لقد أثقلت عليكم بالحديث يا سادة وكل ما أردته أن تعلموا أن لدينا  
مكاناً آمناً لكم هنا •  
"إذن نسميه قبو الأمان" • بابتسامة عقب نبيل •



(٣)

"من يطرق الباب فى هذه الساعة؟!".

بترقب وقلق تساءلت سارة.

– هل أذهب إلى القبو لأنبه الرجال ألا يصعدوا؟

– لا لنعلم أولاً من بالباب يا ابنتى.

تقتربان من الباب فتتساءل نور: "من بالخارج؟"

– أنا شريف يا نور افتحى أرجوك.

– أهى!

تهرع نور وتفتح الباب فترى شريف ومعه شاب آخر مرتديين قبعتين أوروبيتين. كان شريف طويلاً يشبه أخته إلى حد كبير وهما يشبهان والدهما و كان الشاب الآخر سامر ابن عمه شعره بنى وأشقر وله عيناه بنيّتان.

لم تتمالك نور نفسها حين رأت شريف فألقت بنفسها بين ذراعيه واحتضنته بقوة. انتبهت نور إلى الشاب الآخر فنظرت إلى شريف نظرة تساؤل فأجاب:

– هذا سامر ابن عمنا.

تأملته نور بإعجاب وحب ثم مدت يدها وصافحته قائلة:

– أهلا بك يا سامر.

صافحها الشاب بحرارة شديدة:

– أهلا بك يا نور أنا سعيد برؤيتك •

– تفضلا وأنا أيضًا سعيدة برؤيتكما •

يدخل الشابان فتغلق الباب فيواجهان سارة التي تكسوها الدهشة حينما ترى شريف وكأنه صورة تطابق والده في مثل عمره، تقترب نور من سارة وتقدمها إليهما:

– هذه أمي •

– أهلا وسهلاً يا سيدتي أنا شريف أخو نور •

– أهلا بك يا ولدي •

– تشرفتُ برؤيتك يا سيدتي •

– وأنا سامر ابن عم نور •

– أهلا بك تفضلا •

يجلس الشابان بينما تبتسم سارة بعطف وتعقب:

– مفاجأة رائعة! أنتما هنا في مثل هذه الظروف لتطمئنا على نور هذا  
يوحى بحبكما الشديد لها •

– إن رؤيتكما والاطمئنان عليكما حلم راودنا كثيرًا، ولكننا جئنا لأمر  
آخر •

– ما هو يا ولدي؟

– لقد جننا دفاعاً عن الوطن سننضم إلى كتائب الفدائيين •

– الوطن!

– لا تتعجبي يا نور، إننا نرتبط بمصر ارتباطاً وثيقاً ولا علاقة لنا  
بجذورنا التركية •

– لم أنت صامت يا سامر؟

– ليس لدى ما أقوله؛ إن حسن لقائكما يأسرني أكاد أموت خجلاً مما  
حدث في الماضي •

– لا علاقة لنا بالماضي الآن •

يقطع الحديث ظهور يعقوب ودانيال وخلفهما الرجال الثلاث عاندين من  
القبو •

يتأمل يعقوب الشابين بنظرة تساؤل، يبدو التردد على وجه المرأتين  
فتستجمع نور شجاعتها المعهودة وتواجهه:

– هذا أخى شريف وهذا سامر ابن عمى •

يستشيط يعقوب غضباً يكاد يحرق المكان فيصرخ فى وجهها:

– ماذا؟! من؟! •

– خالى أرجوك •

تحول سارة بين نور ويعقوب وبحسم تنذر يعقوب:

– يعقوب إنهما ضيفان فى بيتى ولن أسمح بالإساءة إليهما •

يتحاشى يعقوب الصدام مع المرأتين المتحفزتين لوجود غرباء بالمنزل  
فيكنتم غضبه ويقول:

– سأذهب لأحضر إيريني من بيت خالتها وسيكون لى معك يا سارة  
حديث طويل لنحسم هذه المهزلة • إياك يا دانيال أن تبرح المكان •  
– أمرك يا والدى •

ينصرف يعقوب غاضباً دافعاً الباب بعنف خلفه •  
– عفواً يا سادة إن والدى لا يقصد الإساءة أعذر نيابة عنه • أنا دانيال  
ابن خال نور •  
يصافحه شريف:

– أهلاً بك يا دانيال تشرفت بمعرفتك •  
– وأنا أيضاً تشرفت بمعرفتك وبمعرفة سامر •  
– الشرف الأعظم لى يا دانيال •  
– تفضلوا يا سادة لا داعى للانزعاج •  
يجلس الجميع بينما تبدو الدهشة على وجوه الأطباء الثلاث •  
يهمس نبيل إلى مختار: "ساموت إذا لم أعرف سبب غضب السيد  
يعقوب من الشابين" •  
– أغلق فمك وإلا لكمتك فتموت دون أن تعرف •  
يضع نبيل يده على فمه بينما تبتسم سارة وتقدمهم إلى شريف وسامر:



– أعر فكمما بالسادة الدكتور يوسف والدكتور نبيل والدكتور مختار  
جاءوا من القاهرة لنفس المهمة التى جنئتما من أجلها •

يتبادل الجميع إيماءات التحيات ثم يسود صمت قصير فتلمح نور  
نظرات فضول على وجه نبيل فتبتسم وتسأله: "ألدك كلاما تتخرج من  
قوله؟" •

– نعم لا ربما لأعلم •

تضحك نور بينما يتكتم الشابان شريف وسامر الضحك فيستجمع نبيل  
شجاعته فيتساءل دفعة واحدة وبسرعة شديدة:

– لماذا كان خالك غاضبًا إلى هذا الحد؟!

يخفى مختار وجهه بكفيه بينما يرمق يوسف نبيل بنظرات غيظ  
فيتجاهله نبيل •

– إنها قصة قديمة •

– كيف يا سيدتى؟!

– لقد تعرفت على والدها فى أستديو التصوير الخاص بأبى ومعه  
أصدقاء لالتقاط صور تذكارية وحينما رأيته وقعت فى حبه والتقينا  
عدة مرات انتهت بطلبه الزواج منى فوافقت فورًا ولكنه أخبرنى أن  
والده لن يوافق لأنه من وجهاء المجتمع ويريد له زوجة ثرية •  
"اللعة على هذا المجتمع وعلى تقاليدہ؟" • بتبرم عبر نبيل •

– لقد طلب منى أن يكون سرًا مؤقتًا حتى يقنع والده فقبلت ولكن  
والدى ووالدتى ثارا ثورة عنيفة أما يعقوب كاد أن يفتك بى لأن نور  
الدين زوجى من أسرة تركية •

"ألهذا الحد غضب السيد يعقوب؟!!" • بدهشة تساءل نبيل •

– لقد وصفنى بعاهرة من عاهرات الطريق بلا قيمة ولا كرامة ورغم  
ذلك تزوجته ومرت أيام زواجنا الأولى كحلم •

"لقد تزوجت زوجتى فى ظروف مشابهة وكانت حياتنا معًا كالحلم  
الجميل" • بتأثر عبر مختار •

– نعم يا دكتور مختار كان حلمًا فى البداية انقلب إلى كابوس مرعب  
حين علم أخوه وطلب منه أن يطلقنى وإلا سيجرمه والده من الميراث •  
"وماذا كان رأى والد نور؟" • تساءل مختار بترقب وهو يشعل  
غليونه •

– طلقنى فورًا وعاد إلى القاهرة ولم يسأل عنى أو عن نور حتى بعد  
علمه بميلادها •

– أبهذه السهولة تخلص من حبه لك؟!!

– لا أعتقد ذلك ولكنه لم يكن من النوع الذى يتحمل مشاق الحياة فاختر  
الطريق الأيسر •

بدا الحرج على وجه شريف ونظر إلى سارة بخجل:

– أعتقد أن والدى مدين لك باعتذار يا سيدتى أوديه الآن، ولو أمكننى تعويضك لفعلت ولكن العمر لا يعوض مطلقاً فاغفرى له •

– هون عليك يا حبيبى لقد سامحته منذ زمن بعيد ولم أحمل بقلبي ضغينة له، بل صممت أن يكون اسم ابنتى نور هان كما طلب منى فى أيام زواجنا الأولى إذا من الله علينا ببنت إكراماً لذكرى والدته التى كان يحبها بشدة، وكنت أناديهها نور كما كنت أناديه لأشعر أنه لم يفارقنى مطلقاً •

– الآن فهمت أمراً حيرنى كثيراً •

– ما هو يا ولدى؟

حينما كان والدى على فراش الموت طلب منى كثيراً أن يرى نور وترددت متوهماً رفضها زيارته • وفى النهاية أرسلت لها خطاباً وكانت المفاجأة زيارتها، وحسن لقاءها له لقد علمت الآن أنها تعلمت التسامح والغفران منك يا سيدتى •

يتأمل العجوز نور بإعجاب ودهشة:

– هل ذهبت إليه لرؤيته رغم كل ما فعل يا نور؟

– نعم يا عمى كنت أشتاق إلى رؤيته ولكنى خشيتُ أن يرفضنى كما رفضنى فى الماضى •

– ما أروعك يا نور! إن التسامح لا يصدر إلا من نفس قوية متحررة من الحقد والكراهية والنفوس المظلمة يحتجب نور الحياة عنها فتُحرم

من جمالها ولا تدرك قيمتها، أنت حين سامحت أباك منحك الله هذين  
الشابين الرائعين عوضاً عما حُرمت منه في الماضي •

– أشكركَ يا عمى •

– أنتِ منحة السماء لى •

– كيف؟

– لن أستطيع أن أفسر لك الآن •

ثم همس العجوز فى نفسه:

"يارب حكمتك عظيمة نقيض المنطق أكون هذه المعركة هى المعجزة  
التي انتظرتها طويلا؟!"

ولكن هل ما تصوره مختار كان حقيقة أم أن الأمل يجعلنا نتوهم ما  
نتمنى؟



(٤)

"إلى أين يا أبى؟"

بدهشة تساءلت إيرينى •

بدا يعقوب بجوارها شاردًا غافلًا عنها تمامًا يتمزق بين الدهشة والغضب، وكأن الماضى يصر على مطاردته، وكلما تصور أنه نسيه ظهر جليًا فارضًا وجوده بقوة • شغلته أفكاره عن ابنته التى تسير بجواره فعادت تسأله ثانية:

– هل تسمعنى يا والدى؟

ينتبه يعقوب ويجيب: "ماذا تريدن يا إيرينى؟" •

– فيم شرودك؟!

– لاشئ •

– ألن نذهب إلى منزلنا؟!

– لا سنذهب إلى بيت عمك أولًا؛ أريدها فى أمر هام •

– ما هو؟

– لا شأن لك بهذا والزمى الصمت فلا أحتمل نفسى •

– كما تشاء •

سار يعقوب تجاوره إيريني بخطوات مسرعة حتى وصلا إلى منزل نور ودق يعقوب الجرس بقوة، وكأنه يفتأ عين الجرس ففتح دانيال الباب محيياً:

– أهلا يا إيريني حمداً لله على سلامتك •

دخل يعقوب وخلفه إيريني فأغلق دانيال الباب • تلفت يعقوب حوله ثم تساءل:

– أين عمّتك يا دانيال؟

– إنها بالمطبخ تعد طعام العشاء •

اتجه يعقوب إلى المطبخ مسرعاً بملامح غاضبة • انتفضت نور حينما رأت إيريني فأسرعت إليها مبتسمة: "أهلا يا ريري" •

– أهلا يا نور •

تبدو الدهشة على وجه إيريني حينما ترى الغرباء الذين حفل بهم المنزل فتوضح لها نور الأمر:

– أريد أن أعرفك بالضيوف: الدكتور مختار والدكتور نبيل والدكتور يوسف وابن عمي سامر وأخي شريف لقد جاءوا من مصر للانضمام إلى الفدائيين •

– حقاً! أهلاً وسهلاً •

يومئ الجميع بالتحية فتقوم نور بتعريف الجميع بإيريني:

– إيريني ابنة خالي يعقوب •

يلفت انتباه إيريني شريف الذى يعيرها اهتماماً مميزاً فيتبادلان نظرات سريعة تتم عن إعجاب فيبادرها شريف بالحديث: "تفضلى بجوارى" •  
- أشكرك •

جلست إيريني ثم ذابت مع شريف فى حديث يفصلهما عما يدور حولهما بينما عاد الجالسون إلى حديث الحرب فافتتح دانيال الحديث:  
- هل تعتقدون أن رفض إنجلترا وفرنسا قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار اليوم وقبول مصر له سيكون ذا أثر فى سير المعركة •  
"لا أعتقد" • بإصرار أجاب نبيل •  
"ما العمل إذن؟" • بقلق تساءل سامر •

فأجاب يوسف:

- لن نفعنا سوى سواعدنا فما حك جلدك مثل ظفرك، علينا أن نجبرهم على الرحيل والاستسلام •  
"الرحيل والاستسلام! إنهم يفوقوننا عددًا وعتادًا" • بدهشة عقب دانيال •

فأجاب يوسف :

- لو فكر المصريون هكذا لما هزموا الحملة الفرنسية رغم أن حال مصر حينها كان مترديًا •  
لا تنسَ يا (جو) أن هناك أسبابًا كثيرة ساهمت فى فشل الحملة الفرنسية وأنا لا أعنى بذلك التهوين من قيمة المقاومة المصرية حينها •

أشعل مختار غليونه ونفته فى الهواء:

– أصبت يا نبيل ولكن أود أن ألفت انتباهكم جميعًا أنكم إذا أدبتم واجبكم على أكمل وجه سيريككم الله عجائبًا لأنه أعظم من عددهم وعتادهم ولكنه لا يمنح معجزاته للكسالى المتواكلين •

"ما أروعك يا عمى هذا كلام العقل والإيمان" • بإعجاب عبر نبيل •

كانت نور أثناء الحديث شاردة لا يجذبها سوى مشهد يحاكى مشاهد السينما يؤدى فيه شريف وإيرينى دورى البطولة، فألقت نظرة تتأرجح بين الإعجاب والقلق، كانا كالعاشقين فى بستان لا يضم سواهما ولكنها تدرّك موقف خالها من والدها، ومن ينتمى إليه فكان قلقها وخوفها سبب إفساد إعجابها بهذا المشهد البديع، لمح مختار شرود نور وعدم مشاركتها فى الحديث فنهض وجلس مجاورًا لها دون أن تشعر به وتساءل:

– نور فيم شرودك يا ابنتى؟

انتبهت نور إلى مختار فأجابت: "لاشئ يا عمى" •

– أحقًا؟!

تنهدت نور بقوة ثم أشارت برأسها إلى شريف وإيرينى قائلة:

– ما تراه أمامك هو سر قلقى وشرودى •

– لماذا؟!

– ألا يُنبئك هذا المشهد يا عمى بشئ مخيف؟!



– بل بشئ جميل •

– ولكنك علمت موقف خالى من أبى وبالتالى فإن ما تراه محكوم عليه بالفشل وإيرينى رقيقة القلب وشريف أخى ولن أحتمل تحطيم قلوبيهما •

– لقد تزوجت حبيبة عمرى عمّة يوسف فى ظروف أصعب من ذلك ونعمنا بسعادة لم أكن أتخيلها فلا يوجد مستحيل على هذه الأرض مادما نسعى لتحقيقه متسلحين بالإيمان بالله وبقدرته التى تفوق كل قدرة •

تنتبه نور إلى قوله "عمّة يوسف" • فتعقب بدهشة:

– كنت أتصور ان الدكتور يوسف ابن أخيك •

– لا ولكنه بمثابة ابن لى فأنا من تولى تربيته •

– وماذا عن دكتور نبيل فهو يناديك عمى أيضاً؟

– إنه صديق يوسف الوحيد وهو يعتبرنى بمثابة والده الذى رحل منذ زمن طويل •

– أرجو أن يتسع صدرك لى فيما سأقول •

– قولى ما تشائين فلا تعلمين ما أكتنزه لك من محبة بداخلى •

– إن الدكتور يوسف يناقض الدكتور نبيل تماماً ومُحال أن يكونا صديقين مقربين •

– إذا عُرِف السبب زال العجب كما يقول المثل •

– لك مطلق الحرية أن تروى السبب أو تخفيه يا عمى •

– لقد فتحتما لنا أنتِ ووالدتكِ الكريمة قلبكما وخالكِ أيضاً فكيف أوصده  
فى وجهك، على النقيض أنا أتمنى بشدة أن أروى لكِ الماضى •  
– وأنا كلى أذان صاغية •

– حسناً فلنتجه إلى ركن السفارة بعيداً عن صخب السياسة •  
– كما تحب يا عمى •

ينهض مختار ونور ويتجهان إلى ركن السفارة ويجلسان ويروى لها  
الماضى، بينما يستغرق العاشقان شريف وإيرينى فى حديثهما الذى بدا  
لا حدود له فقد أفرغ كل منهما ما بقلبه للآخر •

انتبه دانيال إليهما وبدأ الخوف يتسلل إلى قلبه فاقترب من إيرينى  
هامساً:

– أريدك بضع ثوانٍ •

– أستأذنك يا شريف لثوانٍ قليلة •

– تفضلنى يا إيرينى •

تنهض إيرينى فيرافقها دانيال بعيداً بجوار باب المنزل ويتسائل  
بدهشة:

– ألا تنتبهين إلى ما تفعلين؟!!

– ماذا تقصد؟!!

– ماذا لو جاء والدك مفاجئاً لنا ورآك تجاورين شريف وتحادثينه؟!!

- عفواً يا أخى لم أنتبه إلى ذلك .
- يبدو أنك فقدت ذاكرتك فلم يعد بها سوى هذا الشاب الذى هبط علينا فى ليلة عجيبة وظروف أكثر عجباً .
- لا أدرى يا دانيال ماذا حدث لى حينما رأيته؟!
- أشكر الرب الذى جعلنى أنتبه إليكما وإلا تحطم المعبد على رؤوسنا جميعاً ولكن الصدام يبدو مؤجلاً بتساؤلك هذا يا إيرينى .
- لا أستطيع الحديث الآن فلتؤجل كل ما تريد قوله فى وقت آخر .
- بالطبع فلا هذا الوقت المناسب ولا المكان الملائم للحديث .
- يظهر يعقوب من جانب المطبخ تعقبه سارة يرسم وجههما آثار مباراة كلامية شديدة نتيجتها تعادل بلا أهداف، يبدل يعقوب ملامحه الجامدة إلى ابتسامة زائفة:
- أعتذر لكم يا سادة أنا مضطر إلى الرحيل وأرجو أن تنعموا بالإقامة هنا فأنتم فى منزلكم .
- "شكرا يا سيد يعقوب" . بابتسامة عقب مختار .
- اقترب يعقوب من إيرينى أمراً: "هيا يا إيرينى" .
- هل تريد أن أرافقكما إلى المنزل يا والدى ثم أعود .
- لا تغادر المكان مطلقاً يا دانيال .
- كما تحب يا أبى .

يلتفت يعقوب فجأة ويرمق شريف وسامر بنظرات غضب يخالطها وعيد فيطرق سامر برأسه خجلاً، بينما يبادلّه شريف بنفس النظرة ثم يشيح بوجهه في إصرار فيأخذ يعقوب إيريني ويغادرا المكان، فيغلق دانيال الباب خلفهما في قلق تنتبه إليه سارة فتقترب من دانيال:

– ماذا بك يا دانيال؟

– لاشئ يا عمتي ، ولكن أخشى أن يصطدم والدي بشريف وسامر فأخسر نور •

– لن يحدث مادمت أسيطر على الأمور هيا لنعد المائدة؛ نور مستغرقة في الحديث •

تسرع سارة إلى المطبخ بينما يتساءل دانيال في نفسه:

"أحقا يعيد التاريخ نفسه؟" •



## الفصل السادس : صراع الحب والحرب

غير أن الفتى يُلاقى المنايا  
كالحاتٍ ولا يُلاقى الهوانا

ولو أن الحياة تبقى لحي  
لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بُدُّ  
فمن العجز أن تكون جباناً  
المتنبى

(١)

"الشأى على الفحم".

بجدية أخبر سلامة دانيال الذى بدت عينيه معبرة عن أرق شديد داخل المكان الذى تجمع فيه الفدائيون الذين تجمعوا طوعاً بل رغبة فى القتال؛ دفاعاً عن الوطن بعد خطاب الرئيس وكانوا من مستويات مختلفة اجتماعياً وثقافياً مدنيين وعسكريين من الشرطة والجيش متعلمين وغير متعلمين، جسد واحد فى مواجهة العدوان الغاشم.

سلامة أخو سميرة شاب أسمر طويل شعره مجعد ملامحه مصرية يفور شهامة ونبلاً اكتفى بتعلم القراءة والكتابة ثم احترف الصيد مع والده ليساعده على تكاليف المعيشة، ورغم ذلك كان مُشجعاً لسميرة فى مسيرة تعليمها ومحفزاً لإخوته الصغار على مواصلة التعليم.

حينما أشرقت الشمس حضر دانيال والتقى بسلامة وهو يعد الشأى على موقد الفحم بدا دانيال متلهفاً للإفصاح عن أمر هام:

– لقد وصل خمسة متطوعين من القاهرة أمس وقمت بترتيب إقامتهم لدى عمتى.

– وما وصفهم؟

– طبيبان أحدهما فى جراحة القلب والثانى طبيب نفسى وصيدلى ومهندس ومحاسب، وأحدهم تجاوز الستين ولكنه بصحة جيدة والبقية شباب.

– الجرّاح سنحتاج إليه بشدة لرعاية المصابين أكثر من القتال.

- هل أعددتكم مكاناً للمصابين؟
- هناك مستشفيات فى بورسعيد ونحتاج إلى الأطباء لأن عددهم قليل •
- لابد من وجود مستشفى احتياطى يا سلامة فى مكان آمن •
- بدت الدهشة على وجه سلامة وهو يصب الشاى ثم قدمه إلى دانيال متسائلاً:
- لماذا؟
- إن ما أخشاه أن يتم ضرب المستشفيات وحينها سنصبح فى مأزق كبير •
- وما العمل إذن؟
- لدى فكرة يمكننى أن أقيم مستشفى فى بيت عمى تحسباً لذلك •
- فكرة جيدة يا دانيال •
- ماذا عن السلاح؟
- لقد تسلمنا شحنة سلاح من ضباط الجيش أمس •
- وكيف قاموا بتهريبه؟
- فى براميل الطرشى واللبن وبمساعدة بعض النساء •
- إذن لدينا الفدائيون والسلاح سنزلزل الأرض تحت أقدامهم • أين سيتم تجهيز الخطط؟

– لقد جاء بعض الضباط من القاهرة والجيزة فى ذراعهم تخفى  
الخطط المُعدَّة حتى الآن وسيتم إعداد بقية الخطط بمبنى المباحث  
الجنائية، وسيقود العمليات ضابط بالجيش •  
– ما المطلوب منى الآن بالتحديد؟

إعداد المستشفى وإحضار الفدائيين لتدريبهم على السلاح •  
– نعم ينبغى أن يتدربوا جيّدًا ونكون على حذر المعركة ليست سهلة  
والمؤامرة كبيرة •

– ثلاث دول يحاربون دولة واحدة بل مدينة صغيرة •  
– الأمر أكبر من ذلك يا سلامة؛ إن أمريكا التى رفضت تمويل السد  
سحبت رعاياها فى اليومين السابقين على الهجوم الإسرائيلى على  
سيناء •

– هذا يعنى أنهم كانوا يعلمون بما تم تدبيره لنا؟!!

– بشكل مباشر أو غير مباشر •

– لا أفهمك •

– ربما أسرّوا لها بنواياهم وتركتمهم يفعلون ما يريدون دون الظهور فى  
الصورة، وربما كانت تعلم من مكتب استخباراتها الله أعلم •

– إنهم يفتقرون إلى المروءة حينما يتكاتفون لقتال مدينة صغيرة  
كبور سعيد قاتلهم الله •

– الرب أعظم من كل قوة وسيكون بجوارنا فنحن أصحاب الحق •



– ينهض دانيال:

– سأذهب إلى بيت عمتي لإعداد المستشفى ثم أحضر الرجال •

ينصرف دانيال بينما يتنهد سلامة متضرعاً إلى الله:

– حفظك الله يا دانيال وحفظ وطننا الغالي من كل المتربصين •



(٢)

"حقاً لا يمنع حذر من قدر" •

بسخط عبر يوسف والضيق والغضب يكادان يفجران حجرته  
بمنزل نور •

قرر يوسف أن يحبس نفسه طواعية بعد أن تم إعداد حجرة الصالون  
بالبطاق السفلى صباحاً لتصير مستشفى ونُقِل طاقم الصالون إلى  
القبو، وأُخرجت المكتبة لتجاور المكتبة الأخرى بركن السفارة وتم  
تجهيز صيدلية بالحجرة والاكتفاء في حجرات النوم بمرتبة واحدة لكل  
سرير والاستعانة بالثانية ليرقد عليها الجرحى •

بعد رحيل الرجال مع دانيال، وجد يوسف نفسه وحيداً في مواجهة  
نور ثانية فقرر تجنب الصدام معها، وحبس نفسه بالحجرة ومعه كتاب  
من مكتبة جدها ليشغل نفسه بالقراءة •

تبدل حال نور منذ عرفت ماضيه من مختار وتأثرت بما حدث له  
حتى بكت تالماً وإشفاقاً لما قاساه في صغره ولم تنم ليلتها؛ شغلها  
التفكير فيه عن النوم وأدركت من تأمل ما علمته عنه أنه إنسان نبيل  
أصيل المعدن فلا يتاجر بمهنته رغم مهارته الشديدة في زمن تقل فيه  
أعداد الأطباء كما أنه حاصل على الدكتوراه في إنجلترا، وليست  
القسوة إلا درعاً يتدثر به ليقية الوقوع في حب امرأة تشقيه فهو يتعامل  
بالمبدأ الطبى القائل: "الوقاية خير من العلاج" •

تحول إحساس نور بمرور ساعات الليل وهى تفكر فيه إلى تعلق  
وإحساس بالمسؤولية تجاه ما رسخ بذهنه من فكرة خاطئة عن النساء،

وقررت أن تحمل على عاتقها تبديل هذه الفكرة التى تحولت بمرور الزمن لمرض تأصل فى أغوار نفسه، وفشل الطبيب النفسى ذاته فى تخليصه منه ورأت أن تسامحها ورقتها ستكون سلاحها لاستئصال المرض الذى حجب عنه نور السعادة وجعله يعيش فى صحراء جرداء خالية من الجمال الذى يتصوره جحيماً بأفكاره الخاطئة.

كانت نور تدرك أن مواجهته ستكون حرباً شعواء كالتى تخوضها مصر أمام ثلاث دول فهل ستنجح؟! رأت أنها بصبرها وذكائها يمكنها تحقيق الانتصار عليه، ووجدت أن صراعها معه إن كان قاسياً فسيعطى لحبها لذة يعرفها المحبون جيداً فى السهر والقلق وترقب ما يحدث.

قررت نور أن تبادر بالهجوم متحملة رد فعله العنيف فماذا سيحدث أكثر مما حدث فى أول لقاء لهما؟! وبدأت تفكر كيف تبادره بالهجوم وتقتحم عليه الحجرة التى حبس نفسه فيها، فجأة جاءت فكرة إعداد طعام خفيف له شارف النهار على الانقضاء، ولم يتناول شيئاً بعد الإفطار وأخبر والدتها أنه لن يتناول الغداء إلا بعد رجوع الرجال فى المساء.

انتهزت نور انشغال والدتها بالمذياع ومتابعة الأخبار بترقب وقلق شديدين وأعدت له القهوة باللبن التى يعشقها، وشرائح الخبز التى يعلوها الزبد والمربى، وحملت الصينية وما إن اقتربت من السلم حتى لمحتها سارة فنادت عليها:

– إلى أين يا نور؟

- سأقدم الطعام للدكتور يوسف •
- لكنه لم يطلب شيئاً •
- تقترب نور بالصينية وتضعها على السفرة وتجلس أمام أمها فتخفض صوت المذياع وتقول:
- لن يطلب يا أمى نظراً لطباعه التى تعلمينها، كما أنه ضيف لدينا •
- أخشى أن يرفض الطعام بأسلوب فظ •
- لا يا أمى لقد تعهد لى الدكتور مختار أنه لن يتجاوز حدوده معى •
- كما ترين وينبغى أن أذكرك بما تعهدت لى أنتِ أيضاً من قبل حتى تنتهى الحرب •
- على ذكر الحرب ما الأخبار؟
- حاولت بعض القطع البحرية لإنجلترا وفرنسا إنزال قوات بحرية بالسويس لتصل إلى بورسعيد فتصدت لها زوارق الطوربيد المصرى، وأغرقت ثلاثة منها فانسحبت البقية إلى قاعدتها بعدن •
- يبدو أن الأمر سيتخذ صورة جدية ولم أشهد حرباً من قبل •
- إن الحرب موت وخراب يا ابنتى وقانا الله شرها •
- لا بد أن أصعد قبل أن تبرد القهوة باللبن •
- تنهض نور وتصعد إلى أعلى بينما تدير سارة المذياع وتتابع الأخبار •

حينما تصل نور إلى حجرة يوسف يخفق قلبها بشدة فتأخذ نفساً عميقاً وتتماسك ثم تطرق الباب، فيتحول هذا الطريق إلى غارة على حجرة يوسف الذى ينتفض متبرماً، ويضع الكتاب بجواره على السرير ويتأمل الباب برهة ثم يحاول أن يهدأ ويجيب:

– من بالباب؟!

– أنا نور •

– ماذا تريد؟!

– هل يمكننى الدخول؟

يهمس يوسف فى نفسه: "ما هذه الجرأة؟!" •

ينهض يوسف ويفتح الباب فيصطدم بنور حاملة الصينية مبتسمة •

– مساء الخير لقد أعددت لك طعاماً خفيفاً لم تتناول شيئاً منذ الصباح •

– لم أطلب شيئاً •

تبعده نور بالصينية وتقتحم الحجرة ثم تضعها على المائدة الصغيرة قائلة:

– أنت ضيفنا وينبغى إكرامك دون أن تطلب •

يرمقها يوسف بدهشة ثم ضيق و غضب فتكاد أوداجه تنفجر، تتجاهله

نور وتبتسم بهدوء فيحاول التماسك متسائلاً: "هل هناك أمر آخر؟" •

– نعم أود أن أخبرك بشئ سيسعدك تماماً •

– يسعدنى! ما هو؟! –

– أنا أجد التمرىض؛ تعلمته لرعاية جدى فى مرضه فسأعاونك فى رعاية الجرحى •

يستشيط يوسف غضبًا فاقدًا أعصابه:

– لا أحتاج إلى مساعدة أحد فلا تتطوعى بشئ لم أطلبه منك أتفهمين؟

– اهدأ يا دكتور لماذا كل هذا الغضب؟! –

– لا شأن لك بى؟ –

– هذا أمر عجيب الطبيب فى حاجة دائما إلى ممرضة •

– أنتِ تفرضين نفسك علىّ وهذا يقلل من رصيد كرامتك ألا تدركين ذلك؟! –

تطعن كلمات يوسف كرامة نور وكبرياءها فتحاول دموعها السقوط ولكنها تتماسك وتبتسم ابتسامة سائرة لألمها:

– طاب وقتك يا دكتور يوسف •

تنصرف نور بينما يشعر يوسف بالحرج البالغ لأنه أدرك من ملامحها وردها أنه جرحها بالفعل، وهى لم تفعل ما تستحق عليه التجريح بهذه القسوة، بل تستحق الشكر لقد أعدت له طعامًا بعد يوم طويل لم يذق فيه شيئًا، وعرضت عليه المساعدة التى بالفعل سيحتاجها، لم تعرض عليه الغرام كما تفعل معه بعض النساء اللائى

يحتقرهن فأدرك خطأه الجسيم ونقضه للعهد الذى قطعه على نفسه أمام  
نبيل •

ألقى يوسف نظرة على صينية الطعام وتنهد ضيقاً من نفسه لماذا  
فعل ذلك ؟ إنه يشعر بالجوع فعلاً ويحتاج إلى فنجان القهوة باللبن،  
فجلس وبدأ يأكل شرائح الخبز التى بدت لذيدة وتناول مشروبه المفضل  
وبدأ يفكر ماذا يفعل • أذهب إليها متعللاً بإعادة الصينية ليباردها  
بالاعتذار الذى لم يصدر منه لامرأة من قبل؟ أم يتجاهل الأمر تماماً  
لأن ذلك سيريحها منها؟

دار بداخله صراع حسمه فى النهاية أن ما فعله ليس من المروءة  
وأن اعتذاره ليس اعترافاً ضمناً بالإعجاب بها، وليس وثيقة زواج  
ستربطه بها وبالفعل حينما انتهى من تناول الطعام حمل الصينية،  
وهبط السلم فوجد سارة تتابع الأخبار وحدها فلمحته ونادت عليه:

– مساء الخير يا دكتور يوسف •

– مساء النور •

وضع يوسف الصينية على السفرة ثم عبر عن إعجابه بالطعام قائلاً:

– شكرًا على الطعام اللذيذ لقد جاء فى وقته وبخاصة القهوة باللبن •

تبتسم سارة فى دهشة من أسلوبه الرقيق:

– بالهناء والشفاء يا ولدى!

تقع كلمة ولدى على قلب يوسف كقطرات الندى على الطائر فيهتز جسده؛ لم يسمعها من امرأة سوى مرات قليلة فى الماضى من سيدة زوجة راضى وسرعان ما نسيها •

يدرك يوسف أن كلماته كان لها وقع أشد مما تصور لأن نور ليست هنا فعلى الأرجح بحجرتها فتلمح سارة الحزن بوجهه فتتساءل:  
- ماذا بك يا دكتور يوسف؟!

- لاشئ سوى القلق على الرجال ما الأخبار؟

- عند هبوطك السلم كان هناك خبر هام •

- ما هو؟

- أغرقت خمس سفن عند مدخل القناة فتعطلت عن العمل وأنا لا أفهم مغزى هذا الفعل •

- فى اعتقادى أن عبد الناصر أراد الاستفادة من دروس التاريخ؛ خدع "ديلسبس" الضابط الثائر "أحمد عرابى" أثناء حربه مع الإنجليز وأخبره أنهم لا يستطيعون دخول مصر منها وكان ذلك سبباً فى هزيمته واحتلال مصر، كما أن تعطيل القناة سيجعل العالم يدرك غياب العدوان الذى تسبب فى ذلك بعد إدارة مصر القناة بمهارة •

- فليكن الله فى عون مصر يا ولدى •

خفق قلب يوسف لكلمة ولدى ثانية وكأنها سهم يصيبه فأجاب فوراً:

- أستاذك يا سيدتى •



– فى رعاىة الله يا ولدى •

ينصرف يوسف بينما تعود سارة إلى متابعة الأخبار •

حينما وصل يوسف إلى حجرة نور تردد قليلاً فى طرق الباب وليس ذلك لخطرسة منه وإنما لشعوره أنه سقط فى خطأ فادح لا يدرى كيف يعتذر عنه ولكنه استجمع شجاعته وطرق الباب فجاء صوت نور من الداخل متهدجاً: "من؟" •

– أنا يوسف •

صمتت نور برهة فاستشعر يوسف رفضها النابع من غضب شديد وشعور عميق بالإهانة فأدار ظهره إلى الباب وهمّ بالرحيل فأتى صوتها من خلفه:

– دكتور يوسف!

التفت يوسف فوجدها فى مواجهته تماماً فابتلع ريقه بصعوبة ثم تراجع خطوة فبدت له آثار دموعها الجافة معبرة عما فعله، فشعر بالخجل فبادرته بالسؤال:

– ماذا تريد؟! •

– أشعر أننى قد أسأت إليك بكلماتى التى لم أقصدها ربما خاننى التعبير نظراً لظروف الحرب التى أورتتنى القلق والتوتر لذا أرجو أن تغفرى لى خطئى •

تتأثر نور بشدة حيث بدا يوسف كطفل أخطأ ويعتذر لأمه تهتم نور بالابتسام ولكنها تتراجع سريعاً وتعقب بجديّة:

– لم يحدث شئ أنا أدرك الظروف التى نعيشها لذا لم أغضب منك •

يهز يوسف رأسه متفهمًا وينهى الحديث كرسول جاء لتوصيل رسالة فيستأذنهما وينصرف فتدخل نور حجرتها سريعًا لتعبر عن سعادتها التى تملكى جسدها فصارت تقفز من الفرحة وجرت نحو المرأة لتتأمل نفسها ثم قبلت وجهها فى المرأة وهى تخاطب نفسها:

– أنت رائعة! أنت قوية!

وفجأة خطر لها خاطر حينما تأملت وجهها جيدًا فى المرأة أنها تحتاج إلى حمام ساخن لتزيل آثار الحزن عن وجهها وقلبها ولتحتفل بانتصارها عليه •

على الفور ملأت حوض الاستحمام بالماء الساخن ووضعت بعض الزيوت العطرية وألقت بنفسها فى الحوض وأغمضت عينيها وأطلقت العنان إلى خيالها يفكر فيما سيحدث فى المستقبل وكيف أن الطريق سار ممهدًا لتخترق قلبه •

ولكن هل كانت نور محقة فيما تسرب إلى نفسها من إحساس بالنصر؟! هل السد الذى شيدته السنون يمكن هدمه بضربة معول واحدة؟!!



(٣)

"لقد سلب حبها عقلى و قلبى".

بحزن بدأ نبيل يروى قصة حبه ثم أخرج سيجارة وأشعلها ونفت  
دخانها.

تبادلت سميرة ونور نظرات دهشة وتساؤل ارتسمت على وجههما،  
كانت سميرة قد تطوعت لرعاية الجرحى مع نور ويوسف بعد ساعات  
عملها فى مكتب البريد، وبعد تناول الغداء أعدت نور القهوة وقررت  
تناولها مع سميرة فى الحديقة وقد خيم الظلام على المكان وحين خرج  
نбил للسير وحيداً فيها شاردًا نادته نور ليجلس معهما.

لم تفعل نور ذلك من تلقاء نفسها وإنما تلبية لرغبة سميرة التى منحته  
اهتماماً خاصاً لم تمنحه أحدًا من قبل نظرًا لحديثه الذى يفور حماساً  
وحباً جارفاً للوطن ودفاعه عن حقوق الفقراء وخفة ظله، حينما فرغ  
نбил من الطعام كانت سميرة قد انشغلت بالتفكير فيه فبادرته بالسؤال  
بلهفة:

– من تكون يا دكتور نبيل؟

– ابنة عمى وحبى الوحيد.

– حبك الوحيد!

– نعم يا نور لقد نشأنا سوياً منذ تعلمنا السير وكانت الحياة جنة نحيا  
فيها وحدنا ولكن لحظات السعادة قصيرة.

"لماذا يا دكتور نبيل؟" بحزن تساءلت سميرة.

نفث نبيل دخان سيجارته بحزن شديد أعقبه تنهيدة قوية ثم أجاب:

– لأننا حينما نكبر نفهم الحياة جيداً ونعلم أننا لا نحيا وحدنا بل بين الناس، وكلما اقتربنا منهم قلَّ رصيد حريتنا التي يكبلونها بقيود التقاليد التي ابتكروها ليحيلوا الحياة سجنًا لا يتحملونه، ولكنهم يدفعوننا لتحمله.

– أنتَ محق يا دكتور نبيل.

– لقد خلق الله الحياة يا نور سهلة بسيطة ولكن الإنسان يسعى ليحيا في الهموم التي هي في حقيقة الأمر صغائر نمنحها قيمة من صنع خيالنا.

رشفت نور القهوة شاردة ثم تساءلت:

– ما علاقة ذلك بك وبابنة عمك؟

– لكى أزيل الغموض عن حديثي لأبد أن تعرفوا من أنا وكيف سارت حياتي.

– لتتناول قهوتك أولاً يا دكتور نبيل.

– أشكرك يا نور.

يتناول نبيل القهوة مستطرذاً: "نشأت فى أسرة ثرية تملك آلاف الأفدنة وكنت الوريث الوحيد لوالدى". وحينما دخلت الجامعة تعرفت على طلاب يساريين انخرطت معهم؛ مؤمناً بحق كل مواطن فى ثروات الوطن".

"أنا اقدر هذا الفكر رغم أنى لست يسارية" • بإعجاب عبرت سميرة •  
لم ينتبه نبيل إلى كلام سميرة فقد شرد بحزن شديد كسا وجهه حينما  
استوقفته سميرة فلفتت نور انتباهه ليكمل حديثه وقالت: "أكمل يا  
دكتور نبيل" •

– صرت ناقدًا على أسرتى التى تملك آلاف الأفدنة فى مقابل آلاف  
الفلاحين المعدمين الذين يملكون قوت يومهم بالكاد، تبلى ملابسهم على  
أجسادهم فلا تقيهم حر الشمس ولا قسوة البرد •  
رشفتم سميرة القهوة ثم عقت بسخط:

– لقد كانت مصر حكرًا على ندرة من البشر يشقى فيها الآلاف وينعم  
بaltham فئة قليلة •

– نعم يا سميرة لذلك قررت تصويب هذا الوضع •  
– كيف يا دكتور نبيل •

قررت أن أمنح ثروتى لمن يستحقونها حينما تسنح لى الفرصة وأرث  
أسرتى •

"تمنحها كلها! هذا أمر عجيب" • بدهشة عبرت نور •

– وما العجيب فى ذلك يا نور؟! هل ترين هذا الوضع عادلاً؟

– العدل منحة إلهية لا بشرية لذا فإن ما قررتة يُعد أعجوبة الأعاجيب •

– بل ما فعلته حينما ورثت ثروة والدى قررت توزيع الأراضى على  
الفلاحين ولكن بعد تفكير متعقل تراجعت •

تقاطعه نور: "أرأيت؟! هذا هو السلوك الطبيعى".

- لا تتسرعى يا نور فلم أتراجع عن قرارى بل تراجعته عن الوسيلة.  
- كيف؟

- لقد قررت بيع الأراضى وتوزيع المال على الفلاحين فلا يتمكن عمى من استردادها بسطوته وسلطانه ووزعت بعضاً من المال على العمال والجمعيات الخيرية، واحتفظت بمبلغ أقمت به صيدلية لأعول نفسى وأساعد الفقراء بجزء من ربحها.

تأملته سميرة بدهشة شديدة وإعجاب ثم خفق قلبها لهذا المخلوق العجيب الذى بدا أقرب إلى الملائكة فى صفاته من البشر، إنه يفوق أبطال الروايات التى كانت تتصورها خيالاً فأصبحت أسيرة له، وأدركت أنه لا فكاك منه رغم أنه يحيا فى عالم امرأة أخرى.  
"إن ما فعلته يثير إعجابنا يا دكتور". بابتسامة عبرت نور.

- إن حديثك يمسح الألم الذى تعرضت له بسبب ما فعلت وفجر سخط عمى الذى ثار كثور مطعون وانهاى على السبب واتهمنى بالجنون و الحمق.

- ألهذا الحد؟!

- نعم يا نور بل وزاد على ذلك رفضه القاطع زواجى بنسمة؟  
"هل اسمها نسمة؟" بحزن تساءلت سميرة.

- نعم واسمها يعبر عنها.

- إذن دفعت ثمنًا فادحًا لمبادئك ونبلك الذى يعبر عنه اسمك أيضًا •
- حقًا يا سميرة و هى أيضا دفعت ثمنًا لما لم تختاره بل ما فرضته عليها فرغم حبها الشديد لى وتوسلاتها إلى أمها تمسك عمى برأيه •
- ألم يكن فى العائلة أحد يمكنه التوسط بينك وبين عمك؟
- اللعنة على هذه العائلة يا نور إن توصيفها الدقيق قطيع من الغنم؛ تبرأوا منى جميعًا بل تقدم عمى الأكبر يطلب زواج ابنه بنسمة ليقطع السبيل إلى زواجى بها، وضياح ثروتها مستقبلاً •
- "وماذا كان موقفها؟! " • بلهفة تساءلت سميرة •
- للأسف لم تكن مقاتلة كى تجهر بالرفض بل استسلمت لإرادة عمى •
- لقد تغير المجتمع ولم تعد الفتاة اليوم كما كانت فى الماضى يا دكتور نبيل •
- أنتِ مخطئة التغيير اختيار شخصى وليس مجتمعياً كما تتصورين •
- هل أنتِ واثق أنها كانت تحبك قدر حبك لها؟
- لا تظلموها يا سميرة لقد كتمت أحزانها بداخلها حتى تجمعت وصارت ورمًا سرطانياً أسلمها إلى الموت بعد عامين من زواجها •
- ماذا؟! •
- لقد أسلمنى موتها إلى عزلة فرضتها على نفسى ولولا يوسف وعمى مختار لكان مصيرى مصحة نفسية •

– الله يخلق فى قضائه كثيرًا من الرحمة لذا حباك بصدق مخلص وأب  
حنون أنقذك من هذا المصير التّيس •

– لقد شعرت أننى مسئول عما حدث لها يا سميرة •

– وما ذنبك يا دكتور نبيل؟

– كان بإمكانى أن أفرض ما أريده حتى لو اضطررتُ إلى خطفها  
والزواج منها رغمًا عنهم •

– إنها إرادة الله الذى سيعوضك حتمًا جزاء نبلك •

– أنتِ محقة يا نور فى ذلك لقد صارت مصر حبي الجديد الذى ملأ  
فؤادى •

– ماذا؟!!

– لقد صارت هموم وطنى ما يشغلنى الآن وحينما حل العدوان تذكرت  
مأساة حبى؛ إن حبى الجديد يتعرض إلى عدوان يريد أن يسلبه منى  
ولن أستسلم هذه المرة •

أطلقت سميرة سراح دموعها بانفجار فبدا نبيل متأثرًا فاعتذر قائلاً:

– أنا آسف يا سميرة لقد أثقلت قلبك بهمومى سامحينى •

– لا تعتذر يا دكتور لقد تأثرت أنا أيضًا مثلها، وكل من يعرف قصتك  
سيكون هذا رد فعله •

نهض نبيل: "أستاذكما أريد السير منفردًا فى الهواء" •

– كما تحب يا دكتور •



ينصرف نبيل فتنهض نور وتحتضن سميرة فتنفجر دموعها كالسيل  
فتخفف نور عنها قائلة:

– كفى يا سميرة هونى على نفسك لم أركِ بهذا الضعف أبداً.

– ألا يستحق يا نور؟!

– يستحق الكثير ولكن لا تستغرقى فى جرحه الذى تجاوزه وشغل  
نفسه بقضايا أخرى.

– أنتِ واهمة إنها تحيا بداخله.

– إنها فى ذمة الله وهذه حقيقة يمكنها أن تكون نبئة أمل لكِ معه.

– إن إخلاصه الذى هو أنبل ما فيه هو نفسه الحائل بينى وبينه.

– أنت حقيقة وهى خيال.

– هذا تصورك أنتِ اللعنة على الحرب التى ساقته فى طريقى؛ لم أقابل  
إنساناً بهذا النبل وهذه القوة من قبل.

– لقد قدّر الله ذلك لحكمة وعليك أن تتعاملى مع غريمتك على أنها طلل  
ومهمتك اقتلاعه وبناء صرحك مكانه.

– أنت تنسين أن بورسعيد تواجه عدواناً شرساً والظروف لا تسمح.

– ربما تأتى المنفعة من منبع الضرر ومن يدرى ما الذى تخفيه الأيام؟

تشرذ نور قليلاً فما تقاسيه صديقتها ذكرها بمأساتها؛ لقد تجاهلها  
يوسف على المائدة تماماً. حينها أدركت أن اعتذاره لم يكن إلا شعوراً

بالخطأ وما إن اعتذر حتى أسقطها من ذاكرته فشعرت بخفة عقلها  
وسذاجتها لأنها توهمت أنها ربحت المعركة بهذه السرعة •

إنه صرح منيع بسور مرتفع يصعب اختراقه ولكنها كما تبث الأمل  
فى صديقتها عليها أن تبثه فى نفسها مهما كانت ظروفها أصعب • إذا  
كانت سميرة تواجه طلل امرأةٍ فإنها تواجه طللين تغلغلا بداخله •

انتبهت نور إلى سميرة التى هزتها بقوة:

– نور إلى أين تحلقين؟!

– ليتنى أملك القدرة على التحليق عاليًا •

– أتريدى الهروب من نفس المصير الذى أواجهه؟

– ماذا تقصدين يا سميرة؟

– أتخفين عنى ما رأيته واضحا كالشمس ونحن نتناول الطعام؟!

– عم تتحدثين؟

– عن الدكتور يوسف •

تشيح نور بوجهها حزنا وأسى •

– لماذا تخفين عنى؟! ان والدتك صديقة حنونة متفتحة ورغم ذلك أنتِ

لا تخفين عنى شيئا •

– إن ظروف الحرب تشغل أسمى فلا مجال للحديث معها وهى تتخذ منه

موقفا صارما •

– ولماذا تتخذ منه ذلك الموقف؟! –

– إنها قصة تعارفنا رسخت بداخلها انطباعاً سيئاً عنه •

– يبدو بالفعل شخصاً صموئلاً جامداً على النقيض من نبيل •

– ما علمته عن حياته جعلنى أبدل رأى وأتعلق به ولا أستطيع إفلات  
قلبي من قبضته •

– وماذا علمتِ عنه حتى يأسركِ إلى هذا الحد •

– سأروى لك ولكن عدينى ألا يعلم أحد بما سأروى لك •

– أعدك يا نور •

– هيا بنا نصعد إلى حجرتى حتى نتحدث بحرية •

– كما تحبين يا نور •

تتأبط نور ذراع سميرة ويتجهان إلى حجرتهما •



#### (٤)

انكمشت نور داخل فراشها فى الظلام تتصارع الأفكار برأسها بينما سارة مستغرقة فى النوم بجوارها • استبد بها اليأس دقائق قليلة ولكن سرعان ما تذكرت أن كل أمر لا ينجح مع المحاولة الأولى حينما خطونا أول خطوة ونحن أطفال نتعلم السير سقطنا، ومازلنا نحاول حتى صرنا نجرى فأدركت أنها لم تفشل ولكن عليها المثابرة والصبر •

وسرعان ما فتحت للتردد باباً حين تبادر إلى ذهنها سؤال اندفع كشلالٍ متدفق هل الصبر والمثابرة يمكنهما تبديل قناعاته؟! هل ما شيدته السنون يمكن هدمه فى أيام؟! نعم ولكن الوقت عدوها؛ هى لا تعلم متى تنتهى الحرب ولا تستطيع تمنى طول عمرها •

صار السؤال الأهم كيف تنتصر على الوقت وهذا يتطلب معرفة الثغرة التى تنفذ من خلالها إليه وعلى الفور تذكرت ما حدث من صدام فى أول لقاء لهما وقد تركت فى نفسه أثراً قوياً والدليل أنه لم يحتمل صورتها بالحجرة، وهنا أدركت أن رقتها ليست سبيلاً إلى قلبه بل الصدام والاستفزاز ربما بدا ذلك غريباً، ولكن البشر خلقوا مختلفين فما يناسب إنساناً لا يناسب آخر •

وقادها ذلك القرار إلى تساؤل آخر كيف ستستفز غضبه حتى تلتفت انتباهه وبعد العداوة كما قال الدكتور مختار تأتى المحبة • لم تكن الإجابة عسيرة فهمي تعلم أن لديها ذكاء فى تدبير المؤامرات الكوميدية التى كانت تدبرها لدانيال وإبرينى فى صغرهم، ولديها سعة صدر

تؤهلها للوصول إلى الهدف؛ من يملك الصبر يملك مفاتيح النجاح أما هو فصدره ضيق كتقب الإبرة لذا سيكون يسيرًا إثارة غضبه •

قررت نور ألا تنتظر الصباح فهبطت من الفراش فى خفة ثم أمسكت بحدائها الفرو الوردى وتحركت نحو الباب وفتحته فتحة صغيرة، ونظرت فبدأ الظلام مخيمًا على الطريقة إلا من ضوء خافت، ينبعث من مصباح كهربائى صغير معلق فى نهايتها بالقرب من الحمام •

فجأة انفتح باب حجرة يوسف فابتهجت نور وشعرت أن القدر يساعدها ولكن تبدلت بهجتها إلى خيبة أمل حينما وجدت نبيل يخرج من الحجرة متجهًا إلى الحمام، فانتظرت حتى أغلقه على نفسه وخرجت وأغلقت الباب خلفها •

وقفت نور أمام باب حجرة يوسف شاردة لا تدرك ماذا تفعل ثم وضعت يدها على مقبض الباب ولكنها شعرت بالخل من نفسها؛ هل يليق بفتاة مهذبة أن تقتحم حجرة رجل نائم؟ ماذا لو لم يكن نائمًا؟ إنها تبغى استقراز غضبه لا احتقاره الذى هو سبب كراهيته للنساء كما لا تريد أن تخسر احترامها لنفسها، فتراجعت وتركت مقبض الباب وارتدت خطوة إلى الخلف •

انقطع التيار الكهربائى فجأة وهنا سمعت صوت مقبض باب الحمام فأسرعت الخطا نحو حجرتها، ودون أن تنتبه اصطدمت بمائدة مستديرة صغيرة يعلوها تمثال فسقط على قدمها فصرخت أسرع نبيل نحوها وأخرج من جيبه علبة الثقاب، وأشعل عودًا فرأى قدمها تنزف •

فتح يوسف باب حجرته وخرج على أثر صوتها فلم يكن من النوع الذى يستغرق فى النوم بشدة أما سارة فلحسن حظ نور كانت نقيض ذلك فلم تشعر بشئ •

اقترب يوسف من نور ونبيل متسائلًا:

— ماذا حدث؟!!

— لقد سقط التمثال على قدمى وأنا فى طريقى إلى الحمام؟

— هل كنت تتوین دخوله فى الظلام؟!!

— لقد انقطع التيار عقب خروجى من حجرتى، آه إن قدمى تؤلمنى بشدة •

— إنها تنزف يا نور لابد أن ننقلك إلى حجرتك ونقوم بتضميد الجرح •

— لا يا دكتور نبيل أرجوك إذا استيقظت أُمى ورأتنى مصابة بهذا الجرح ربما أصابتها صدمة فلا تحتل أن يصيبنى شئ •

— إذن سأحملك إلى حجرتنا ونُجرى لك إسعافًا سريعًا •

فجأة يرتعد نبيل حينما تلهب إصبعه نار عود الثقاب عقب احتراقه تمامًا •

"انتبه يا نبيل" • بفرع صرخ يوسف •

— لا تهتم يا يوسف المهم الآن إسعاف نور •

أخرج نبيل عود ثقاب آخر وأشعله ثم طلب من يوسف أن يحمل نور إلى حجرتهما فرمقه يوسف بنظرة غيظ • أسرع نبيل إلى حجرة

الجراحة بالطابق السفلى وأحضر مستلزمات الإسعاف من شاش وقطن ومطهر •

رقدت نور على الفراش وهى تشعر أن الغضب يكاد يفجر يوسف ويحيله إلى أشلاء فقررت انتهاز الفرصة للطرق على الحديد وهو ساخن:

– الحجرة مظلمة تمامًا والظلام يصيبني بالكآبة •

– ليس لدى ما أضئ به؛ أنا لا أدخن •

يتنهد يوسف بغضب شديد تستشعره نور من صوت زفيره ورغم الألم الذى تملكها من جراح جرح قدمها غمرتها السعادة لما حدث؛ لم تتصور أن الخطوة التى خطتها أدت إلى كل ما حدث فى لحظات قليلة • من يدري ماذا سيحدث بعد ذلك؟!!

قطع شرودها دخول نبيل يحمل شمعة كبيرة ووضعها بجوار الفراش على الكومود ثم أعطى يوسف أدوات الإسعاف، فتناولها وبدأ يضمّد جراح نور التى كانت تتأوه من الألم فنهرها يوسف غاضبًا:

– اخفضى صوتك؛ لا يليق أن يراك أحد هنا فى الحجرة حتى لو كنت أضمد جرحك؟

– إنه يؤلمنى بشدة ولا أحتمله •

– تحاملى على نفسك قليلًا حتى أنتهى •

– لا أستطيع؛ الكحول على الجرح كالنار تكوى الجلد •

يتجاهلها يوسف رغم ما بدا على وجهه من غضب شديد ثم أنهى لف الشاش حول قدمها •

– سلمت يا نور •

– سلمك الله يا دكتور نبيل •

– سأحملك إلى حجرتك لتستريحى •

– لا أرجوك أريد أن أهبط إلى الطابق السفلى؛ لقد طار النوم من عيني من شدة الألم •

– ولكنك تحتاجين إلى الراحة حتى يهدأ جرحك •

– لن أستطيع النوم وأخشى أن أتألم فتستيقظ أُمى ويحدث ما أتفاده • أريد أن تستيقظ كما اعتادت وبعد أن تهدأ وتستقر تعلم بما حدث •

– كما تحبين يا نور هيا سأحملك إلى الطابق السفلى •

تتأوه بشدة وتستغيث بنبيل أن يحضر لها مُسكناً فيسرع على الفور بينما يطلب من يوسف نقلها إلى الطابق السفلى، فيحملها بغضب شديد تشعر من وجهه فى ضوء الشمعة الخافت التى حملتها لتضى لهما أنه يود أن يلقي بها من فوق السلم •

حينما وصلا إلى ركن الأنتريه، وضعها يوسف بعصبية فوق الأريكة فشكرته فتجاهلها بغضب بينما جاء نبيل حاملاً المُسكّن وكوب من الماء فتناولته نور وشكرته فابتسم لها قائلاً:



- سلمت يا نور من كل سوء •
- أنت إنسان رقيق يا دكتور نبيل!
- أشكرك يا نور •
- أهنأك ما يعكر صفو الدكتور يوسف؟
- "لا شأن لك بي" • بوجه جامد أجاب يوسف صادمًا نور •
- ألم تتعلم اللياقة في حياتك مطلقًا؟! لا أصدق أنك حصلت على الدكتوراه من إنجلترا •
- من أنت كي تصدق أو لا تصدق؟
- أنا نور • ربما يخدعك مظهرى الهادئ الرقيق ولكن ثق تمامًا أننى لست مسكينة كسيرة الجناح تبتلع إهاناتك المتكررة وتصمت •
- لقد خبرتك جيدًا منذ رأيته ولم أستشعر ما تقولين مطلقًا بل رأيت الشراسة والوحشية أما أنت فما عرفتني جيدًا و الأفضل ألا تحاولي •
- بالتأكيد لا أرغب فى معرفة كائن بغيض مثلك •
- اخرسى وإلا انتزعت لسانك من جذوره •
- كان نبيل يتابع الحديث رافعًا حاجبيه من فرط الدهشة متسائلًا فى نفسه كيف تطور الأمر بهذه السرعة؟! و لكنه أدرك يقينًا أن نور تحاول استفزاز يوسف الذى سقط فى بئرها بسهولة فلماذا تفعل ذلك؟! ولم يطل شروده فقد أفاق على صوت نور تهدد يوسف •

"سأقذفك بكل ما تقع عليه عيني حتى وإن كانت هذه الشمعة" • بعينين مشتعلتين أكثر من الشمعة بدت نور وهى تهدد يوسف فقرر نبيل التدخل حتى لا يتطور الأمر فقال:

– أعتذر يا نور عما قال يوسف •

– إنه لا يعرف اللياقة مطلقاً أنا أشك أنه طبيب •

– ليت يدي بُترت قبل أن أضمد جرحك •

– ليتها حقاً؛ إنها تؤلمنى بشدة أنت فاشل •

– أنا فاشل! أترى يا نبيل؟ هذا جزاء من يعطف على الأفاعى •

– تأدب يا يوسف، عفوًا يا نور أرجو أن تقبلى اعتذارى نيابة عنه •

– ماذا؟! أنا لم أفوضك لتعتذر نيابة عنى هى المدينة باعتذار لى عن سوء أدبها •

– أعتذر ثانية يا نور •

يمسك نبيل بذراع يوسف ويتجه به بعيداً مؤنباً:

– أهذا وعذك لى ولعمى؟! الرجال لا ينقضون عهدهم •

– ألا ترى ما تفعل يا نبيل؟! •

– الرجل يجب أن يسيطر على غضبه •

يرمقه يوسف بغضب شديد ويشيح بوجهه بعيداً فيتركه نبيل ويذهب إلى نور ويتساءل:

– هل أنتِ أفضل الآن؟

– الحمد لله •

– إذن سأحملك إلى حجرتك لترتاحي •

– لا سأقضى ليلتي هنا لا أَرغب فى النوم •

– الجو بارد وربما أصبت بالبرد •

– لا تشغل بالك بى •

– سأحضر لكِ غطاءً من حجرة الجراحة تستدفئين به •

ينطلق نبيل إلى الحجرة بينما تلمح يوسف يرميها بنظرة تكفى لإشعال المنزل فيأتى نبيل ومعه الغطاء فيعطيه لها فتشكره ثم يأخذ يوسف ويتجهان إلى حجرتهما •

شردت نور فيما حدث لقد قدم القدر لها يد المساعدة فجرحها سيكون وسيلة تواصل بينهما والموقف حتمًا سينبت مواقف أخرى للتواصل، وهنا أسندت رأسها إلى مسند الأريكة وشدت الغطاء على جسدها وأسلمت نفسها إلى النوم •



(٥)

"حينما أرى الإسكندرية كأنى أرى اللاذقية لأرى بلدين بل بلدًا واحدًا".

بإعجاب عبر "جول جمال" ضابط البحرية السورى عن امتزاج مصر وسورية فى جسد واحد • نشأ جول جمال بمدينة اللاذقية بسورية لأب تائر ضد الاحتلال الفرنسى علمه والده حب القومية العربية هو وإخوته منذ نعومة أظفارهم •

قرر جول جمال دراسة البحرية فسافر مع البعثة التى جاءت إلى مصر، وكان الأول على دفعته ومنحه الرئيس جمال عبد الناصر ساعة ذهبية تقديرًا لتميزه •

بعد تخرجه بقى بمصر ليتدرب على الطوربيد الجديد الذى اقتنته مصر، ثم عاد إلى سوريا وبعد هجوم العدوان الثلاثى على مصر أسرع إلى التطوع فى صفوف الفدائيين، فخلد اسمه بأحرف ذهبية فى سجل العظماء •

ابتسم الصاغ جلال الدين الدسوقي ضابط البحرية المصرى وعقب مداعبًا:

– أهذا ما دفعك إلى المشاركة فى المقاومة؟

– لا إن ما يجمعنا أكبر من مدينتين متشابهتين؛ إنه التاريخ المشترك •

– لقد قدر لنا القدر مصيرًا مشتركًا؛ أنا أتذكر انفصال مصر والشام عن حكم الدولة العباسية والدولة العثمانية •

– للرب حكمة فى أقداره •

– أصبت أتدرى بمن تذكرنى الآن؟!

– بمن؟

– بسليمان الحلبى الذى قتل كليبر واليوم أنت هنا تدفع عن مصر  
العدوان كما فعل فى الماضى •

أطرق جول برأسه حياءً ثم استطرد يقول:

– لقد هاجمت الحملة الفرنسية مصر والشام معًا •

– واليوم فرنسا تعيد ما فعلته متحالفة مع بريطانيا ولا يحركهما إعادة  
القناة وحسب •

– ماذا تقصد؟

– إن بريطانيا يا جول تريد العودة إلى مستعمراتها الكبرى مصر كما  
أن فرنسا ترغب فى بتر يد "جمال عبد الناصر" التى تمتد بالسلاح  
لثوار الجزائر فتهدد وجودها هناك •

– إذن القناة ليست السبب الوحيد • مصر قلب العرب النابض إن توقف  
لا قدر الله سكن الجسد العربى كله • لقد أصبحت مركز إشعاع يبعث  
نور الحرية فيمن حوله فإذا انطفأ أظلمت المنطقة العربية بأسرها •

– لقد طلب جمال عبد الناصر من فرنسا وقف دعم إسرائيل بالسلاح  
مقابل وقف الهجوم الإعلامى عليها فطلبت منه وقف دعم ثوار  
الجزائر أيضاً فرفض قائلًا:

- "لن ترتفع راية للحرية فى العالم إلا ومصر وراءها" •
- لهذا ينبغى أن نقف متحدين فى مواجهة هذا العدوان الغاشم الذى يريد لنا الفناء جميعاً •
- أصبت يا جول إنها معركة البقاء لمصر والعرب •
- وهم يدركون ذلك لذا أتوقع دعمهم جميعاً لمصر •
- أنا أيضاً لدى هذا اليقين يا جول وكان أول الغيث أمس على يد الإذاعة السورية •
- هذا أقل ما نقدمه لشقيقتنا الكبرى مصر •
- إن سورية تدرك جيداً ما تطمح إليه مصر التى لا تكفى باستقلالها وحدها وإنما تريد استقلال من حولها فإذا ملكوا قرارهم، واتحدوا تمكنوا من مواجهة ما يُحاك لهم من مؤامرات تهدف إلى السيطرة على ثرواتهم •
- نعم يا سيدى فما جدوى أن تكون مستقلاً بين أخوة مازالوا يعانون أسر الاحتلال؟
- ستعود حتماً للأسر ثانية فالحكمة تقول: "المرء بنفسه قليل وبإخوانه كثير" •

تنهد جلال الدسوقي واستطرد يقول:

- كثيرون لا يدركون ما يرمى إليه عبد الناصر للأسف بل يتهمه البعض بالخطيئة وحب الزعامة • وهذا كذب بئس؛ يكفى أن يقول:

"إن القومية العربية لا تتوقف على جمال عبد الناصر ولا من يعملون معه إنها كامنة فى ملايين العرب الذين يحمل كل منهم قبساً من شعلة القومية" •

– فارق كبير بين من حباهم الرب بصيرة يطالعون بها المستقبل مستعينين بما حصلوه من ثقافة وفكر عميق وبين من يرون تحت حذائهم •

– إن فرنسا تحشد أقوى أسلحتها البحرية فى هذه المعركة الفاصلة لتقضى على مصر وعلى كل مقاومة فى المنطقة فى مواجهة القوى الاستعمارية ولتثبيت دعائم الصهاينة •

– على جثتنا •

وكأن جول كان يرى المستقبل فى نفس الليلة فى تمام الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل تحركت ثلاثة زوارق طوربيد مصرية يقودها الصاغ جلال الدسوقي، ثقل عددًا من الجنود والضباط من بينهم الرائد جول جمال لعمل مسح تأمينى للشواطئ المصرية وعند عودتها فى تمام الخامسة والربع فجرًا، رصدت مدمرة فرنسية ضخمة وطراد يتجهان إلى بحيرة البرلس فتعاملت معها، ولم يكن هناك غطاء جوى يحمى الزوارق كما لا يوجد تكافؤ بين القوتين لكن السلاح البحرى المصرى سطر ملحمة مشرفة فى خمس وأربعين دقيقة، فخرت المدمرة والطراد جثتين هامدتين وعجزت فرنسا عن إتمام المهمة التى كانت تسعى إليها وهى التقدم إلى السويس •

عند العودة قصفتهم الطائرات المكلفة بحماية المدمرة واستشهد  
أبطال العملية إلا واحدًا فقط •

سيظل الرابع من نوفمبر شاهدًا على عظمة البحرية المصرية وعلى  
قيمة الوحدة العربية التي متى تحققت أنجزت الأعاجيب •





(٦)

"إنها تترصدنى" •

بدهشة كست وجه يوسف أطلق استنتاجه مما حدث أمس بينه وبين نور وهو يراقب الشروق يخترق المكان دون استئذان، محاكيًا نور التى بدت نموذجًا مختلفًا عن كل النساء اللائى واجههن بل تجاهلهن رغم سعيهن نحوه بخطوات حثيثة يميزها استرضاءه وإسعاده ولكنه واجههن بغلظة وقسوة تعمدها لتشفى غليله منهن •

داعبت حرارة الشمس جفنى نبيل ففتح عينيه ثم أشاح بيديه مبعداً الضوء ونهض مسنداً رأسه إلى الوسادة متأملاً يوسف يبدو جانباً من وجهه، لم ينتبه يوسف إلى استيقاظ نبيل الذى تساءل:

– ماذا بك يا يوسف يبدو أنك لم تتم أمس؟

– لاشئ •

يبتسم نبيل وقد فطن إلى ما يخفيه يوسف فعقب بسخرية:

– أدعو الله أن يترفق بك فى محنتك •

تنتفخ أوداج يوسف لسخرية نبيل فيعقب:

– عدت للحديث عن الله ثانية أيها اليسارى •

انتفخت أوداج نبيل غضباً فقذف يوسف بالوسادة فألقاها إليه ثانية ثم طرقت سارة الباب فقطعت ما يدور بينهما من شجار ففتح يوسف الباب فبادرته بالتحية مبتسمة:

– صباح طيب يا دكتور يوسف •

– صباح النور يا سيدتى •

– أود أولاً أن أشكرك لرعايتك ابنتى أمس •

– عفواً يا سيدتى لقد أدبت واجبى •

– لدى أيضاً خبر سار أرفه إليكما هذا الصباح •

انتفض نبيل مسرعاً وقفز إليها متسائلاً بلهفة:

– ماذا حدث؟!!

– حققت البحرية المصرية فجراً انتصاراً ساحقاً على الفرنسيين

ومنعتهم من التقدم إلى السويس •

ابتسم يوسف فرحاً بينما قفز نبيل فى الهواء معلقاً:

– العزة والنصر لوطننا إن شاء الله إنه خبر رائع حقاً يا سيدتى •

– إذن سيثير شهيتكما يا دكتور نبيل •

– ماذا؟

تبتسم سارة وتعقب:

– نحن بانتظاركما على السفرة فلتلحقا بى فوراً •

تنصرف سارة بينما يبدل يوسف ونبيل ملابسهما ويهبطان السلم حيث  
تحلق الجميع حول المائدة منتظرين يوسف ونبيل وتبادلوا جميعاً التحية  
معهما ثم ابتسم دانيال وقال:

– لقد استقال وزير الدولة البريطانى للشئون الخارجية منذ قليل •

– أحقًا ما تقول يا دانيال؟! •

– نعم يا دكتور نبيل كما أن العرب جميعًا قطعوا أنابيب النفط عن أوروبا كلها، وأولهم سوريا لقد أمر المقدم "عبد الحميد السراج" بتفجير أنابيب النفط القادم من العراق إلى أوروبا عن طريق الأراضي السورية •

"سلمت سوريا وسلم العرب جميعًا" • بفرحة عبر نبيل عن سعادته بما حدث •

ابتسم يوسف وعقب وهو يضع الزبد على شريحة خبز:

– سيواجه الأوروبيون وعلى رأسهم بريطانيا الموقرة شتاءً قارسًا هذا ما جنت يداها الدنسة •

اتخذت ملامح مختار جدية وقلقًا وهو يقول:

– أتوقع ردود أفعال وحشية ردًا على ما حدث بالفجر لم يعد الأمر يقف عند حد تحقيق ما جاءوا من أجله وإنما انتقامًا لكرامتهم الجريحة أمام العالم •

تناول شريف رشفة من كوب الماء ثم عقب:

– استقالة وزير الدولة البريطانى تنبئ عن تفكك فى جبهتهم الداخلية فهل يواصلون القتال؟! •

– الغطرسه يا ولدى مرض لعين إذا استبد بالنفس دمرها و"إيدن"  
رئيس وزراءهم يبدو لى شخصًا متغطرًا؛ أراه يخسر المعركة لا  
محالة.

يقطع سيل المناقشة جرس الباب فينهض دانيال ويفتح الباب فيجد  
أندرو صديقه بلامحه الأجنبية وعينه الزرقاوين وشعره البنى  
وشفتيه الرقيقتين، يبادره دانيال بالتحية قائلاً:  
"أهلا يا أندرو تفضل".

يدخل أندرو بينما يغلق دانيال الباب ثم يشير نحو صديقه معرفًا الجميع  
به فيتبادلون معه التحية ثم يدعوه دانيال لتناول الإفطار فيعذر له  
حتى يلحق بالقداس فى الكنيسة.

"لقد أنستى أحداث الحرب صلاة الأحد"، تحدث دانيال ضاربًا جبهته  
بكفه.

– سيقام قداس الجنازة أيضًا على أرواح الشهداء كما أن مسجد العباسى  
قد أقام صلاة الغائب على أرواحهم منذ قليل، سأنتظرك بالسيارة حتى  
تنهى إفطارك.

يسرع أندرو منصرفًا بينما تتساءل نور: "لم أره معك من قبل يا  
دانيال".

– لقد تعرفت عليه الخميس الماضى.

– وكيف تعرفت عليه؟

– هاجمنى مجموعة من اللصوص عند عودتى إلى البيت وظهر فجأة وهبط من سيارته وأشهر مسدسه فى وجههم مهدداً فانصرفوا •  
تأمله يوسف بدهشة ثم عقب:

– الأجانب لا يبادرون بالدفاع عن أحد على هذا النحو لقد خبرتهم جيداً وأنا بالخارج •

– إنه إيطالى وليس إنجليزياً •

– لقد زرت عدة عواصم أوربية أثناء دراستى ووجدتهم يختلفون فى بعض الأمور ولكنهم يتطابقون فى أمر واحد فكل منهم لا ينشغل إلا بشأنه •

تبادر نور معقبة بتحفز:

– نظارتك السوداء لا تريك من الناس إلا شرهم فلتخلعها لترى الخير •  
يرمقها يوسف بنظرة غضب مكتوم فتنهرها سارة:

– ماذا تقولين يا نور؟!

– التمسى لها العذر يا سيدتى فهذا تأثير جرح أمس •

– لقد جرحت فى قدمى يا دكتور يوسف لا رأسى •

– كلاهما سواء بالنسبة لك •

يرمقه مختار بغضب وينهره: "تحسس عباراتك يا يوسف" •

ينتفض يوسف ناظرًا إلى سارة بامتنان: "لقد شبعنا سفرة هنيئة يا سيدتى".

ينصرف يوسف بينما تبدو سارة متحرجة مما حدث. • ينهض دانيال مودعًا الجميع وينصرف فتنهض سارة وتقول: "فلتستمتعوا بإفطاركم يا سادة وساعد لكم القهوة". •

تتصرف سارة بينما يرمق شريف وسامر نور بنظرات تعجب لما حدث. •

دق جرس الباب ففتح نبيل الباب فوجد سلامة أمامه. •  
- صباح الخير. •

- صباح النور تفضل. •

- لا وقت لدى؛ يجب أن نتجمع بعد قليل سأنصرف وعليكم أن تتبعونى. •

اختفى سلامة مسرعًا بينما بدا القلق والترقب على وجه نبيل فتساءل مختار:

- من يا نبيل؟

- إنه سلامة يا عمى يريدنا أن نتجمع حاليًا. •

ينتفض الجميع مترقبين أسباب استدعائهم. •



(٧)

لم تكد شمس الخامس من نوفمبر تشرق على بورسعيد حتى استحالت كتلة من اللهب جراء العدوان الوحشى الذى بدأ عند الفجر • ضرب العدوان بورسعيد بالنابلم وتركز فى مناطق الجميل والجبانة والرسوة وبورفؤاد؛ تمهيداً إلى إسقاط المظليين لإحكام السيطرة بعد فشلهم أمام البحرية المصرية فى معركة "البرلس البحرية" •

فى السابعة صباحاً أسقطت كتيبة إنجليزية بمنطقة الجميل قوامها مائتان وخمسين جندياً وضابطاً، استطاعت المقاومة إبادةتها بالسلاح الأبيض؛ جندى المظلات حينما يهبط يكون مخدراً لثوانٍ انتهزتها المقاومة للقضاء عليهم •

قام الإنجليز بخديعة المصريين بإسقاط مظلات وهمية تحمل دمي قماشية لتكشف مناطق تمرکز الفدائيين، وبعد كشفها تم ضربها بالقنابل بلا هوادة •

فى الحادية عشر صباحاً أسقطت كتيبة مظلات سُميت بالشياطين الحمر على دفعتين بالجميل والجبانة، وفى نفس الوقت أسقطت القوات الفرنسية ستمائة جندي بالرسوة واحتلت وابور المياه وأربعمائة آخرين بمنطقة بورفؤاد التى تصدت بشراسة دفعت قائد الكتائب الفرنسية إلى التهديد بنسف بورفؤاد •

استطاعت قوات العدوان قطع المياه والكهرباء عن المدينة نظراً لضرب وابورالنور واحتلال وابور المياه، وفى السادسة والنصف

مساءً اشتعلت النيران فى الكبائن الخشبية المملوكة للأهالى ثم ضربت الطائرات مستودعات البترول بالرسوة •

ظل يوسف طوال اليوم مجاوراً المذيع ينصت إلى الأخبار بغضب، وقلق شديدين بينما تسارعت دقات قلب سارة قلقاً على الرجال ولا سيما قرّة عينها دانيال، أما نور التى لازمت أريكتها بسبب جرحها تابعت الأخبار بترقب وحزن وقد شغلها العدوان الغاشم عن مشاعرهما تجاه يوسف، فبدا وجهها شاحباً من قلة الطعام وشدة القلق •

اضطر يوسف إلى إغلاق المذيع لينال هدنة فى الوقت الذى يبث فيه الأغانى الوطنية التى تلهب حماس المواطنين وعلى رأسها نشيد (الله أكبر) •

راح يوسف يقطع صالة الاستقبال ذهاباً وإياباً فاستوقفته سارة مهدئة: - لا بد أن تستريح يا ولدى •

شرد يوسف فى كلمة ولدى التى تمكنت من قلبه وأصبحت سارة تتناهل شعوراً بداخله يناقض شعوره حينما رآها أول مرة، بدا ضعيفاً أمام كلمة ولدى •

انتبه يوسف من شروده معقّباً: "العجز والقلق يحرمانى من الراحة" • - أئى عجز؟! •

- الجميع يصد العدوان عن بورسعيد وأنا هنا أتابع الأخبار • - أنسيت ما قاله دانيال: "إن حياتك تساوى حياة الكثيرين"؟ •



– كان هذا رأيي أيضًا حينما قررت الرحيل إلى بورسعيد ولكن ما أسهل الكلام! وما أصعب الفعل يا سيدتى! أشعر بالصغر والضالة.

– لا يا ولدى لا تقل ذلك؛ لديك مهمة عظيمة تؤديها كما أنك ترعانا أنا ونور.

– أشكرك يا سيدتى أنت تصبين الماء البارد على نارى المشتعلة.

تبتسم سارة برقة وحنان:

– ما رأيك فى تناول فنان قهوة باللبن وشريحة خبز يكسوها الزبد؟

– أشكرك ولكن لا شهية لى.

– أنت لم تتناول شيئاً منذ الصباح وقد شارف النهار على الانقضاء فلا تردنى.

– كما تشاءين يا سيدتى فلا أستطيع ردك.

تبتسم سارة له مربتة على كتفه فيخفق قلبه ثم تنصرف بعد أن ألقت نظرة قلقة على وجه نور الذى كساه الحزن والشرود.

انتبه يوسف إلى نور مندهشاً؛ لم تعقب على حديثهما وبدأت غائبة عن المكان فاقترب منها وجلس على المائدة القصيرة المواجهة للأريكة وتأملها:

– أنت صامتة تماماً فلماذا؟!

– القلق يكاد يقتلنى فلا تعلم مقدار حبى لدانيال رفيق الطفولة والصبا  
وبهجة حياتنا بل وحبى لشريف وسامر رغم قصر الوقت الذى قضيته  
معهما، والأمر كذلك بالنسبة إلى الدكتور نبيل وعمى الدكتور مختار •  
– أشاركك عين الإحساس تجاههم جميعًا وعلى كل مواطن من  
شعبنا •

– لقد قفزت صورة سميرة أمامى حينما أذاعوا ضرب حى العرب على  
هذا النحو من الوحشية ولا أعلم مصيرها •  
تنفجر نور باكية فيبدو متأثرًا لحمرة وجهها، وانكماشه من البكاء  
الشديد متعجبًا فى أعماقه كيف تحولت إلى كائن يثير الإشفاق بعد  
شرستها معه من قبل •

– اهدئى يا نور ليس أمامنا سوى الصبر فلا نملك سواه •  
تتوقف نور عن البكاء وتتأمله كأنها تراه لأول مرة فقد بدا صوته  
رقيقًا وهو يتفوه باسمها

هل أخطأت حينما تصورت أن استفزازة وإثارة غضبه هو سبيلها  
نحوه؟ ولكن لم تطل حيرتها كثيرًا فما يشغل قلبها فى تلك اللحظة أشد  
من ذلك فعقبت قائلة:

– لم أتصور الحرب بهذه البشاعة؟

– الحرب تعنى الموت والخراب ونحن نواجه عدوانًا يفوقنا عددًا  
وعتادًا وأقسم أننا نفوقه إيمانًا بعدالة قضيتنا، وبالله وهما دعامتنا  
النصر بإذن الله •

– إن عباراتك تغذى روحى بصبر منبعه اليقين بالله ومساندته لنا •

ينظر يوسف إلى ساعته فينتفض: "نشرة الأخبار" •

يدير يوسف المذيع الذى يبث أخبارًا مكررة إلى أن يعلن عن نبأ عاجل حيث أنذر الاتحاد السوفيتى قوات العدوان بإطلاق صواريخه عليها إذا لم توقف عدوانها على بورسعيد •

وقع الإنذار على سمع يوسف كالصاعقة فهتف: "اللهم احفظ مصر وانتقم ممن تربص بها" •

تسقط الصينية من يد سارة من فرط المفاجأة فيسرع يوسف نحوها:

– هل أنت بخير؟!

تبكى سارة معقبة: " الحمد لله ، الحمد لله فلا رحيم سواه " •

– ربما يرسل الله لنا إشارات طمأنينة يا سيدتى •

ينتبه الجميع إلى صوت طرق شديد على الباب فيقترب يوسف من الباب حذرًا ويتساءل:

– من بالخارج؟

– أنا نبيل افتح يا يوسف •

يسرع يوسف ويفتح الباب بينما يخفق قلب سارة ونور قلًا فيدخل نبيل ويغلق يوسف الباب •

– حمدًا لله على سلامتك •

- سلمكم الله جميعًا •
- تقترب سارة منه بقلق وترقب: "أين الرجال؟" •
- لاتقلقى يا سيدتى كلنا بخير والحمد لله •
- لماذا لم يأتوا معك؟! •
- سيلحقون بى بعد قليل •
- تبدو الفرحة على وجه سارة فتتنظر إلى نور التى تتبدل ملامحها إلى  
تقاؤل فتحمد الله فى قلبها •
- "هل علمت بنبا الإنذار الروسى يا نبيل؟" بجدية تساءل يوسف •
- نعم سمعته وأنا فى الطريق ولا أظنه يؤتى ثماره •
- أظنه جادًا •
- المهم أن يأخذه هم مأخذ الجد أنا لا أفهم إلا ما يجرى على الأرض  
رغم أنهم فى حالة سكون الآن بعد أن حل الظلام •
- ماذا تقصد؟ •
- لن تتوقف المقاومة إلا بعد رحيلهم عن أرضنا •
- أنا أؤيد استمرار العمليات ضدهم لأنهم ربما أوقفوا الحرب النظامية  
بحرًا وجوًا ولكنهم سيستمرون فى البحث عن الفدائيين والسلاح، وما  
أعنيه أن القتال لن يكون على هذا النحو الشرس الذى شهدناه اليوم،  
ولم نشهد له مثيلًا من قبل •

– لا وقت لدى للنقاش يا يوسف لقد جئت لمهمة محددة •

– ما هي؟

– سيتم نقل المصابين ذوى الحالات الحرجة إلى هنا؛ خشية أن يقصفوا المستشفى •

– كيف ستقلهم وسط هذا الجحيم حتى لو بدا الجو هادئاً من القتال؟!

– فى سيارات نقل الموتى وستكون حافلة بالقنابل وأسلحة أخرى فإن هاجموا سنهدم المعبد علينا وعليهم، وإن تمكنا من نقلهم سنظفر أيضاً بالسلح الذى سنخزنه هنا ثم نوزعه على الأهالى •

يقطع الحوار بينهما صوت طرق شديد على الباب فيقترب يوسف من الباب معلّقاً:

– يبدو أنهم وصلوا •

يمنعه نبيل مخرجاً مسدسه من جيبه:

– لا لقد اتفقت معهم أن يدخلوا من باب المطبخ •

يقترّب نبيل بحذر من الباب ويتساءل:

– من بالباب؟!

– أنا يعقوب افتح الباب •

يخفى نبيل مسدسه بينما تضرب ساره خديها بكفيها هامسة:

– لم أحسب حسابك يا يعقوب فليكن الله فى عونى •

يسرع نبيل ويفتح الباب فيدخل يعقوب باحثاً فى المكان بقلق فيبدو  
الفرح على الجميع فيسرع قائلاً: "الحمد لله أنكم بخير أين دانيال؟"  
تتلعثم سارة قليلاً فتثير ريبة يعقوب الذى يتحول وجهه إلى غضب  
شديد:

- أين دانيال يا سارة؟! -
- لقد أصيب صديق له أثناء القصف وخرج ليطمئن عليه.
- ماذا؟! ولدى كيف تتركينه يخرج يا سارة؟! -
- دانيال عنيد ولا يستطيع أحد منعه من أمر قرره.
- أين ذهب؟ -
- لا أعلم.
- اللعنة على الحرب اللعنة على الحرب. ولدى.
- يسرع يعقوب نحو الباب ويخرج مهرولاً.
- ماذا سأفعل الآن؟! -
- هذا آخر ما يجب أن يشغلك يا عمتى.
- التفتت سارة إلى مصدر الصوت فباغتها دانيال من ناحية المطبخ  
فأسرعت نحوه واحتضنته:
- حمدًا لله على سلامتك يا حبيبى.
- نشكر الرب يا عمتى لا تشغلى بالك بوالدى سأدبر أمره.

- "حمدًا لله على سلامتكم جميعًا" • بفرحة عبرت نور •

- سلمك الله يا نور •

أسرع نبيل نحوه متسائلًا:

- ماذا عن الرجال يا دانيال؟

- فى الطريق فلنستقبلهم لننقل المصابين •

يسرع نبيل ويوسف ودانيال إلى المطبخ لنقل المصابين •

بينما جلست سارة تفكر فيما دار بين يوسف ونبيل من حوار  
خلاصته أن الحرب لن تنتهى ربما خفت حديثها ولكنها مستمرة  
باستمرار وجود قوات العدوان فمتى ينتهى هذا الجحيم؟!



(٨)

"الإنجليز هنا فى الحى الأفرنجى".

بفرع أطلق دانيال قنبلته فى وجه سارة لاهتاً يلتقط أنفاسه بصعوبة  
بالغة فعقدت الدهشة لسان سارة، أسرع دانيال يغلق باب المنزل  
تماسكت سارة ثم تساءلت:

– ماذا تقول يا دانيال؟!

– المصفحات البريطانية عند كازينو "بالاس" وعند تقاطع شارع  
"السلطان حسين" وقد اشتبك معهم رجال المقاومة متخفين فى ملابس  
رجال الإسعاف.

– فليترفق بنا الله • يبدو لى من متابعة النشرة وما رويته أنهم لا يعبأون  
بالإنذار الروسى •

– احتل رجال الكوماندز الشاطئ وأنزلوا كتيبة انجليزية بحرية كبرى  
إنهم مستمرون فى إنزال قواتهم لاحتلال بورسعيد •

– فليكن الله فى عوننا جميعاً يا ولدى •

– لا بد أن ننقل المصابين إلى القبو فرما يفتشون الحى بحثاً عن  
الفدائيين •

يخرج يوسف من حجرة الجراحة مندهشاً:

– دانيال أين ذهبت أمس بعد نقل المصابين والسلاح؟!



– إلى منزلنا لأطمئن والدى على ووعده أننى لن أغير منزل عمتى  
حتى تنتهى الحرب فلنسرع الآن وننقل المصابين إلى القبو لأن  
الإنجليز عند كازينو "بالاس" •

– ماذا ؟! القبو لايدخله الهواء بسهولة •

– لا تقلق سأفتح الباب المؤدى إلى القبو وإذا هاجموا المنزل سنغلقه  
حتى ينتهى الهجوم • أسرع •

يسرع دانيال إلى حجرة الجراحة ومعه يوسف ويقومان بنقل  
المصابين إلى القبو بينما تجلس سارة شاردة فيما يحدث •

بعد ثوانٍ يظهر نبيل هابطاً السلم يفتح عينيه بالكاد من فرط التعب  
وقلة الراحة؛ كانت مهمته أمس تأمين المكان بعد رحيل الرجال ولما  
سقط مغشياً عليه حل يوسف محله فى التأمين •

هبط نبيل السلم وما إن التقى سارة حتى نفّض عنه النوم وبادرها  
بالسؤال:

– هل هناك جديد؟

– نعم أحرقوا حى المناخ فى الفجر وهدموا المنازل، إنهم يصرون  
على احتلال بورسعيد •

– كنت أعلم أنهم لن يتوقفوا حتى يحققوا ما جاءوا من أجله، ولكن  
أقسم أنهم لن يهناؤا بمقامهم هنا ونحن لهم بالمرصاد حتى يطلبوا  
الرحيل هرباً من الجحيم الذى سيلقونه •

– ولكن الهجوم شديد يا ولدى ولن تستطيع بورسعيد صد كل هذا •

جلس نبيل وتتهد بغضب معقبًا:

– بورسعيد ليست وحدها والعبرة بالختام وبين ثانية وأخرى تتقلب  
الموازين هذا حال الحرب •

يخرج دانيال ويوسف يحملان أحد المصابين دون أن ينتبها إلى نبيل  
الذى يُبدى دهشته فتفسر له سارة الأمر فينتفض متجهًا نحو القبو ولكن  
جرس الباب يعيده مرة أخرى فيقترب منه حذرًا:

– من بالباب؟

– أنا أندرو •

يفتح نبيل الباب فتحة ضيقة يبدو غير مرحب بدخول أندرو الذى  
يبادره بالتحية:

– صباح الخير •

– صباح النور يا أندرو •

– هل دانيال هنا؟

– نعم ولكنه نائم مع الأسف •

– أشكر الرب أنه بخير لقد جاء والده فَرَعًا يسأل عنه أمس •

– إنه بخير وأشكرك لقلقك عليه •

– إنه صديقى • أين كان أمس؟

– ذهب ليطمئن على صديق له أصيب من القصف •

- نشكر الرب الذى رعاہ وأعاده سالمًا أرجو أن تبلغه سلامى حينما يستيقظ •
- بالتأكيد •
- ينصرف أندرو بينما يغلق نبيل الباب فتبدو سارة مندهشة: "لماذا لم تدعُہ إلى الدخول؟" •
- هو لا يعلم سوى أننا أقارب نور من أبيها وجئنا لننقلكما إلى القاهرة ومنعتنا الحرب •
- يبرز دانيال ويوسف فيستوقفهما نبيل:
- جاء أندرو منذ قليل وسأل عنك يا دانيال وقد أخبرته بما اتفقنا عليه •
- إنه إنسان مخلص حقًا، كم يؤنبنى ضميرى أن أخفى عنه شيئًا •
- إن ضميرك يحتم عليك أن تلتزم السرية ولا تنسى أنك أخفيت الأمر عن والدك •
- لقد فعلت ذلك لأنه سيرفض اشتراكى فى المقاومة •
- ولو كان يقبلها لما علم بأى خطط تخص المقاومة •
- "هيا يا دانيال لنكمل ما بدأنا" بلهفة تحدث يوسف •
- يسرع يوسف ودانيال إلى نقل آخر المصابين ثم يعود ويبدو منهكًا وهو يقول:
- يكاد رأسى ينفجر •

– ساعد الطعام وبعده تتناول القهوة باللبن التى تضبط رأسك •

تسرع سارة إلى المطبخ خلفها نبيل متجهًا إلى القبو لإحضار السلاح ليكونوا مستعدين لأى هجوم على المنزل •

تهبط نور السلم تتسند على الحائط المجاور للسلم فلم يكن جرحها قد شفى تمامًا ولكنها كانت تستطيع السير ببطء ثم جلست على الأريكة تستريح قليلًا، ولفت انتباهها السكون فتساءلت:

"أين الجميع؟! وما أخبار المعركة؟!" •

تزامت التساؤلات فى رأسها ولم ينقذها سوى جرس الباب الذى لم يعرف الراحة منذ أمس فتحاملت على نفسها، وقامت مترقبة نحو الباب فبرز نبيل خلفها شاهراً مسدسه ومحذراً:

"انتظرى يا نور" •

ثم أسرع نحو الباب متسائلاً: "من بالخارج؟" •

– أنا سميرة •

يضع نبيل مسدسه بجيبه ويفتح الباب فتظهر سميرة ، وحينما ترى نور ترتدى فى أحضانها منفجرة فى البكاء فتصاب نور بالفرع ونبيل أيضاً الذى تنقر الوسواس رأسه فربما أصيب سلامة بسوء فتساءل بلهفة:

– ماذا حدث؟! لماذا تبكين هكذا؟! •

– لقد ماتت عمى وأسرتها بعد قصف حى المناخ واحترقه •

تظهر سارة مسرعة نحوها وتلتقطها من بين ذراعى نور وتحتضنها قائلة:

– "إنا لله وإنا إليه راجعون" إنهم فى أمان الله الآن يا حبيبتي، ماذا عن أسرتك؟

– الحمد لله هم بخير يقيمون بمسجد "العباسى" بعد هدم المنازل أمس •  
– ولماذا لم تحضرهم معك؟

– إن أمى ترفض ترك المسجد؛ هى تشعر فيه بالأمان كما أننى جئت لمساعدة الدكتور يوسف لأن سلامة أخبرنى أنهم نقلوا الجرحى هنا ونور مصابة لن تتمكن من مساعدته •

– تبدين شاحبة يا حبيبتي استريحي حتى أفرغ من إعداد الإفطار •

اصطحبت نور سميرة وجلسنا على الأريكة، بينما أسرعت سارة إلى المطبخ خيم على نبيل ويوسف ودانيال الواقفين أمام باب المطبخ غضب مكتوم •

نظر نبيل فى ساعته فأسرع إلى المذيع، وأداره فأنصت الجميع إلى صوت المذيع بالأخبار يقول: "لقد قام العدو بخديعة دنيئة حيث رفع العلمين المصرى والروسى على دباباته فخرج الأهالى لاستقبالهم مهللين فأطلقت الدبابات مدافعها تجاههم كما قامت قوات العدوان الغاشمة باحتلال عمارات طرح البحر وطرده السكان منها" •

عقب نبيل بغضب شديد : "يا للدناءة! أى شرف لدى هؤلاء؟!!" •

تشير سميرة إليه بالصمت حينما يعلن المذيع عن أنباء عاجلة •

"تقدمت قوات المشاة البريطانية إلى شارع "محمد على" وكان فى انتظارها أفراد المجموعة الثانية فوق أشجار حديقة الباشا وقضت على تلك القوات الغاشمة، وفرّت قوات المقاومة وتبعها قدوم العدو يمطر أشجار الحديقة بوابل من الرصاص؛ ظناً منها أنها مازالت تأوى الفدائيين".

عقبت نور بفزع: "اللهم ترفق بنا وارحمنا"

استكمل المذيع النشرة يقول: "انتقلت الاشتباكات إلى شارع العبادى، واستبسل الأهالى دفاعاً عنه وفى استمرار لعمليات الخسة والدناءة هاجمت قوات العدوان جامع العباسى بحثاً عن الفدائيين دون مراعاة لحرمة المكان".

انتفضت سميرة صارخة:

– أمى وإخوتى اللهم انتقم منهم واحرق قلوبهم.

أسرعت سميرة إلى الباب فتبعها نبيل قائلاً:

– انتظرى يا سميرة سأتى معك.

خرج نبيل مغلفاً الباب خلفه مترقباً لما سيحل بأسرة سميرة التى رفضت الرحيل فى المراكب الشراعية التى أقلت النساء والأطفال والمسنين؛ تمهيداً لنقلهم إلى دمياط والمطرية المجاورتين لبورسعيد، ولكن قوات الإنجليز هاجمتهم وأطلقت نيرانها عليهم من الجو فسقط منهم قتلى وبعضهم غرق لارتفاع حمولة المركب عن الحد المطلوب.

حينما علمت سميرة بذلك فى اليوم التالى ارتاحت نفسها لأن والدتها  
أصرت على البقاء ولكن أبى القدر إلا أن تتجرع سميرة الألم على  
أسرتها؛ مصيرنا يسعى خلفنا فلا مهرب لنا منه •

هاجم الإنجليز جامع "العباسى" بحثاً عن الفدائيين فقتلوا عدداً من  
الأهالى وفرّ من استطاع الفرار وكانت والدّة سميرة وإخوتها ضمن  
من قتلوا فانهارت سميرة وتم نقلها بسيارة نقل الموتى مع بعض  
المصابين إلى منزل نور •

بحلول المساء أصبحت بورسعيد داراً محترقة وانهارت منازلها  
واستشهد وتشرد منها الآلاف وكان ذلك حافزاً أكبر للفدائيين  
للاستبسال فى مواجهة عدوان دنى يستهدف النساء والأطفال •



(٩)

"كانت تنتفض وهى نائمة".

بحزن أجابت نور على سارة حينما كانت تطمئن على سميرة.

وصلت سميرة إلى المنزل فى حالة هysterical، وأشرف يوسف على إسعافها وبعد أن أعطاها مهدئاً استسلمت للنوم بعد بكاء شديد، وامتناع عن الطعام أنهكاها وأسلماها إلى ضعف شديد قادها إلى نوم عميق.

تنهدت سارة ثم استطردت وقالت:

– إن ما حدث لها أمس من صدمات متتابة يزلزل الجبال فليرحمها الله.

– نعم يا أمى الآن أدركت معنى قلقك من الحرب فمن رأى ليس كمن سمع.

– فليكن الله فى عوننا.

ظهر يوسف من ناحية المطبخ حيث كان بالقبو يطمئن على المصابين ثم اقترب وحيا السيدتين فردت كل منهما التحية، ثم دعت سارة إلى الجلوس فجلس مواجهاً لها بينما جلست نور بجوارها. تساءلت سارة عن المصابين فطمأنها أنهم بخير ثم تساءل عن آخر الأخبار فقالت:

– لقد أعلنت قوات العدوان وقف إطلاق النار.

– أسمعت هذا بأذنيك يا سيدتى؟!



– نعم ولكن للأسف الحقيقة على الأرض تناقض ذلك •

– ماذا حدث؟! •

– لقد حاصروا بورسعيد ومازال القصف مستمرًا، كما أنهم جمعوا أجهزة المذيع من المنازل والمقاهي والمحلات حتى تُعزل بورسعيد عن العالم •

– إذن تستمر الحرب وتستمر المقاومة لا مفر •

– سأعد لكم الإفطار حاليًا والقهوة باللبن التي تحبها يا ولدي •

– كيف أتناول الطعام وبورسعيد تكابد الجوع والتشرد؟! •

– إن لم تأكل كيف ستنقذ المصابين؟! لو كان جوعنا حلًا للمشكلة لَصُمْنَا إلى الأبد •

كان يوسف قد أولى سارة مكانة بداخله لم تنلها امرأة من قبل وكانت كلمة ولدي هي كلمة السر التي تستلب قلبه وحبها فلا يقوى على رد طلب لها، فاستسلم لما تريد بإيماءة من رأسه ونظرات تنبئ عن ضعف خاص تجاهها فأسرعت نحو المطبخ •

شردت نور في نظراته تجاه سارة فلم يكن عسيرًا على أي ذى عقل أن يدرك أن جمود يوسف يذوب أمام ابتسامة سارة وحنانها الجارف، وهو من حُرِّم من حنان الأم ولم يعرفه مكتفيًا بمختار ولكنه لم يدرك أن حنان الأم له مذاق خاص لم يعرفه حتى شاهد سارة •

أعطى ذلك نور أملاً كبيرًا في تبدل حال يوسف وربما كانت إقامته قد بدلت قناعاته • انتهت نور إلى وصول سارة بالطعام ووضعت

أمامهما على المنضدة الصغيرة أمام الأريكة ثم تركتهما واتجهت إلى المطبخ •

جلسا يتناولان الطعام مخيمًا الصمت على المكان بل كانت نظرات يوسف تتعمد تجاهل نور وحينما فرغ من تناول الطعام أخذ فنجان القهوة باللبن، واتجه إلى ركن السفرة ليتابع الأخبار بشغف متجاهلاً وجودها تمامًا •

أدركت نور أن ما تصورته كان وهماً كبيراً، كلما تشبثت بالأمل وشعرت أنها توشك أن تصل إلى مرادها قتل الأمل فيها • ارتسم الأسى على وجهها وهى تتساءل ما هذا المخلوق العجيب؟! كيف يوجد إنسان فى الحياة بهذه الصورة؟! بل كيف تحب إنساناً كهذا؟!!

دق جرس الباب فانتبهت نور واقتربت من الباب فمنعها يوسف بإشارة من يده، ثم أسرع نحو الباب و أخرج مسدساً من جيبه، وأمسكه بتردد فقد اعتاد المشرط والشاش والقطن حتى وهو هنا ولكن الظروف العصيبة فرضت عليه أمرين متناقضين أن يشفى جريحاً ويكون سبباً فى منحه الحياة وأن يزهق روح آخر يحاول الاعتداء عليهم بالمنزل • أمسك المسدس ثم تساءل:

– من الطارق؟

– أنا مختار يا يوسف افتح يا ولدى •

أخفى يوسف مسدسه وأسرع يفتح وما إن رأى مختار حتى ارتمى فى أحضانه بعنف وقوة فاحتضنه العجوز بشوق وحنين شديدين بدت دقات قلبه تفصح ما يخفيه، ولكنه أعلنه بلسانه:

– لقد كاد القلق يقتلنى وما يزيد فى ألمى كتمانى •

– أنا بخير يا حبيبى فلا تقلق علىّ ألم يخبرك الشاب؟! •

– أريد أن أراك لا أن أسمع عنك •

ينتبه العجوز إلى نور فيبسط ذراعيه لها فترتمى فى أحضانها باكية  
فيسأل يوسف بنظرة اتهام: "لماذا تبكى نور يا يوسف؟! •"  
"لا أعلم" • بضيق أجاب يوسف وتركهما متجهًا إلى الأنتريه فنظر  
العجوز إلى نور وتساءل:

– لماذا تبكين يا حبيبتى؟! هل ضايقك هذا الشاب ثانية؟! •

– لا علاقة له ببكائى إنى قلقة على الشاب •

– إنهم بخير جميعًا اطمئنى •

اصطحبها مختار واتجه إلى الأنتريه وجلس ونور عن يمينه ويوسف  
عن شماله، فهمَّ يوسف بالنهوض، فمنعه مختار الذى أحاط نور  
بذراعه الأيمن وأحاطه بالأيسر حتى لا يفلت فبدا جسراً يقربهما فى  
حين شعرت نور أنه حائل بينهما، ولم يكن مختار سر هذا الانطباع  
ولكن يوسف الذى أشاح بوجهه بعيداً فأدركت أنه لن يقبل بجسر  
يقربهما ولكن بحائط مرتفع يفصلهما •

أصبحت نور على يقين ألا شئ يجعله يلين ولكن قفز إلى ذهنها  
خاطر لقد بدا متأثراً حينما رأى مختار وأدركت من كلامه أن القلق  
كان ينهشه ولكن لم يَبُحْ بذلك لأحد بل اعترف أنه كتم مشاعره تجاه  
عمه •

جعلها ذلك تتذكر مشاعره وضعفه تجاه سارة فمنحها قليلاً من الأمل،  
ولكنها خشيت أن يكون خداعاً جديداً من نفس تتمنى فنتصور ما تريد  
لا من نفس عاقلة تمنحها الحقيقة •

مزقتها الحيرة ولكنها شعرت أن بداخلها إحساس يمنحها السكينة  
والأمل فهدأت نفسها •

ربت العجوز على كتفها مطمئناً ثم ابتسم وقال مداعباً:

– لقد جئت للاطمئنان عليكِ لا على هذا الشاب فهو يستطيع تدبر أمره  
جيداً •

رمقه يوسف بدهشة وهمّ بالتعقيب ولكنه أدرك أن مختار يستغزه ليقع  
فى فخ الرد فيخلق بذلك مجالاً للحديث بينهما، فأمسك عن الكلام  
وصمت بل قرر أن يقطع عليه الطريق لنصب فخ آخر فنهض متعللاً  
بمتابعة المصابين وهو يرمى نور بنظرات تحفز حتى لا تعقب •

صمتت نور فرحل يوسف وتركهما فنظر العجوز إليها بحنان شديد  
رغم شعوره القوى بخيبة الأمل لقد نسى أن الطفل الذى أشرف على  
تربيته يفهمه أكثر من نفسه، ولن يقع أسير فخاخه سألهما الرجل  
بإشفاق: "أتخفين عنى شيئاً؟" •

– لا يا عمى أنا أتألم لما تمر به بورسعيد •

– اعلمى يا ابنتى أن الإنسان صانع البهجة والحزن زائل وكذلك ما  
يصنعه من أحداث •

– أعلم أن الحرب ستنتهى حتماً ولكن لا أعلم كيف ستنتهى؟

– إن قيمة التجربة ليست فى نهايتها ولكن فيما تحويه من دروس تعيننا على صراع الحياة، وكل ما يمر علينا ينبغى تأمله لنذكر إيجابياته وسلبياته فنتعلم منه، فلا يوجد تجربة ذات لون واحد ولكنها تحوى لونين والغالب فيهما هو ما يراه الناس وصفاً لها •

– فى النهاية هى تجربة إما ناجحة أو فاشلة •

– رُبَّ نجاح قادننا إلى فشل وربَّ فشل قادننا إلى نجاح •

– ماذا؟! لا أفهمك ولكن ما أفهمه أن الفشل مؤلم •

– إن الدهر يقسو علينا ليعلمنا، و"الضربة التى لا تقتلنى تقوينى" فالفشل يؤلم ولكنه يحفز ويمنحنا الخبرة، والنجاح يبهج ولكنه يغرُّ صاحبه • وهذا ميزان الحياة فلا شئ يُوصف بالكمال •

– الفشل يحفز!

– لأنه يدفعنا إلى التجربة مرات عديدة حتى نصل إلى ما نريد ولا يسمى هذا فشلاً فى حقيقة الأمر يا ابنتى •

– ما الفشل إذن؟! •

– الفشل الحقيقى هو التوقف عن المحاولة •

– إذن لا فشل إلا بانتهاء الحياة •

– ها قد فهمتنى يا ابنتى •

– ما أجمل حديثك يا عمى! لقد أثار فى نفسى روحاً جديدة أدعو الله أن يديمها بداخلى •

يقبل العجوز رأسها ثم يحتضنها وينهض مبتسمًا ويستأذنها في  
الرحيل ويطلب منها أن تخبر يوسف أنه لا يستطيع البقاء أكثر من  
ذلك، ويخرج وهو في أشد الشوق لتوديعه ولا يمل من بناء الجسور  
بينهما ويوسف أيضًا لا يمل من هدمها.

قررت نور ألا يعرف اليأس إليها سبيلًا، فمسحت دموعها واستعادت  
روح الأمل بداخلها واستحال شحوبها إلى نضرة طبعتها نفسها على  
وجهها.

عادت التساؤلات تتزاحم برأسها أى طريق ستسلكه لتصل إلى قلبه  
الحصين؟! فقررت الخروج إلى الحديقة؛ تتنسم الهواء لعله يسبغ  
عليها أفكارًا تحبسها هذه الجدران فخرجت إلى الحديقة وتنسمت رائحة  
الأشجار التى غابت عنها أيامًا افتقدتها.

راحت نور تعود إلى سابق عهدها مرحة لا يتسلل الحزن إلى قلبها  
لا تعرف اليأس فتحدث آلامها وقلقها، وحاولت الاستدارة حول نفسها  
مغمضة العينين رغم جرحها متحدية له، يهئ لها خيالها أن فارسها  
يوسف يراقصها فارتسمت الابتسامة على وجهها، واختلط بياضه  
بحمرة السعادة.

لم يكن جفنا نور مطبقين تمامًا بل يكادان يدركان ما حولهما وإلا  
سقطت على الأرض. فجأة شعرت أنها لمحت خيال إنسان عند  
الشجرة التى تبتعد عنها لمسافة ففتحت عينيها ووقفت تفكر هل ما رآته  
حقيقة أم أنه خيال ألفته نفسها بداخلها؟! هل يتلصص يوسف عليها  
ويكتم مشاعرًا يظهر نقيضها أم ماذا؟!!

دفعها ذلك إلى البحث فى جنبات الحديقة تستكشفها ولكنها لم تجد  
أحد فقررت أن تسرع إلى المطبخ متعللة أنها ستساعد أمها، ولكن  
الحقيقة كانت القرب من يوسف الذى يقبع بالقبو متعللاً بتفقد المصابين  
هرباً منها •

هل حقاً كان يوسف أم أن نفسها مازالت تخذعها؟ وإن لم يكن يوسف  
فمن يكون؟!



(١٠)

"ما أعجب تدابير القدر!"

بشرود أقرب إلى التأمل عبرت إيريني عن قوة القدر الذى حثها  
على الحضور مع والدها لزيارة عمته، والاطمئنان على دانيال بعد  
هدوء نسبي منذ مر يوم على وقف القتال.

غاص يعقوب وسارة فى حوار طويل غيَّبه عن ابنته التى هامت فى  
حب شريف فرماها بنظرة إعجاب شديدة وعقب: "تدبير القدر يمنحك  
أملاً فيما يختزنه لنا من نهاية سعيدة".

تبدلت ملامح إيريني ليرتسم الحزن والقلق عليها ثم ابتعدت وسارت  
نحو شجرة أمامهما بالحديقة فأسرع نحوها مندهشاً:

– ماذا بكِ يا حبيبتي؟! لماذا تبتعدين عني؟!

– كم تسعدنى وتؤلمنى هذه الكلمة فى آنٍ واحد.

– لا أفهمك.

– يسعدنى حبك ويؤلمنى فراقك؛ النهاية السعيدة ليست لنا.

– لماذا؟!

– والذى لن يقبله بل ربما حاول قتلك وأعلم أنى سأستسلم له لقد اعتاد  
قهري منذ الصغر.

أحاطها بذراعه وسارا فى الحديقة حتى وصلا عند مقعد خشبي فجلسا  
ثم استطرده يقول:



– ما سر هذا القهر؟

– لقد توفيت والدتى بعد ميلادى مباشرة، فاهتمت عمتى وجدى وجدتى بتربيتى •

– ولكن هؤلاء يمنحونك القوة لا القهر •

– إن مأساتى بدأت عندما رآنى والدى أفلد جدى وهو يصلى فاستشاط غضباً، وكنت فى الخامسة من عمرى حينها، فأخذنى إلى البيت وقرر ألا أذهب إلى هناك ثانية إلا بصحبته وأعود معه •

– ولم كل هذا الغضب؟!

– منذ جاءوا إلى هنا قرر والدى الحفاظ على هويته الأرمينية فحافظ على اللغة بقراءة الكتاب المقدس بها، وكان يكتب خاطره بها وتزوج أرمينية مثله واحتفظ بديانته •

– لماذا؟

– كان يدبر كل هذا لليوم الذى يعود فيه إلى موطنه الأصلي •

– ولكنه ناجح هنا فلماذا؟

– إنه متمسك بجذوره هناك ولم ينسَ أصله يوماً واحداً •

– وماذا حدث بعد أن أخذك إلى البيت؟

– قرر أن أتعلم كل شئ بسرعة كاللغة والدين وكلما أخطأت فى أمر نهرنى ونعتنى بالغيبة ففقدت ثقتى بنفسى بسبب قسوته •

– التمسى له العذر لقد ظل على دينه وأراد لك ولدانيال ذلك الدين •

- بل رسم لنا مصيرًا وفق هواه دون أن يسألنا •
- أكنتِ تريدين الإسلام؟
- لا أنا متمسكة بالمسيحية عن قناعة أما هو فيراها جزءًا من هويته فقط •
- ليس من حق أحد التفتيش في نوايا البشر •
- إن التسامح قيمة أصيلة في المسيحية التي تعلمنا أن نحب أعداءنا ولكنه يفتقر إلى هذه القيمة •
- ما كابده في الماضي لم يكن هينًا فليس من السهل التسامح معه •
- أتعلم أن اسمه الحقيقي "يعقوبيان" وكان جدى يناديه يعقوب كبقية المصريين لأنهم استقلوا نطق الاسم على هذا النحو، وكان أبى ساخطًا لسنوات طويلة على ذلك حتى ألفه مرغمًا •
- إلى هذا الحد!
- لهذا لا أستطيع مواجهته لعناده ولأننى جُبلت على الضعف •
- القوة تكمن فى كل منا كالضعف ونحن من نسمح لأى منهما بالظهور وننحى الآخر •
- لا أستطيع مواجهته مطلقًا •
- إن كنتِ تحبيننى حقًا فلن يعرف الضعف إلى نفسك سبيلًا؛ الضعف ينهار أمام ما نريده ونتمسك به ونرى فيه الحياة ودونه الموت •
- ما أعذب كلماتك! أنت تعلمنى فن الحياة دون توبيخ أو تأنيب •

يقطع سيل الحديث ظهور سامر متجهًا نحوهما ومحيطًا لها، ثم يأخذ شريف معه إلى القبو لأمر هام فيرحلان، بينما هي منتشية مبتسمة فجأة تتبدل ابتسامتها لفزع شديد حيث يباغتها ظهور يعقوب كعفريت فى الظلام، فتنتفض وتراجع إلى الخلف وهو يقترب منها رويدًا رويدًا حتى تصطدم بشجرة فيرمقها بنظرة غضب ترميها بشرر يكاد يحرقها ثم أطلق رصاصات كلامه:

"أنحبين هذا الدنى؟!!"

تصمت إيرينى فيسألها بغضب: "هل أصبت بالخرس أم تخجلين مما تفعلين أيتها العاهرة؟!"

تباغته بصرخة فى وجهه: "لست عاهرة إنه يحبنى ويريد الزواج منى!"

يباغتها بصفعة قوية فتجيبه بإصرار: "سأ تزوجه ولن يمنعنى مخلوق!"

- يمنعك الموت لأنى حينها سأقتله وأقتلك وأدرك ما فاتنى فى الماضى!

صمتت إيرينى فزعا بينما دهش يعقوب كيف تحولت إيرينى هكذا! أهى قوة المشاعر أم نزع فتيل فجر قهر السنين بداخلها وهنا تذكرت إيرينى كلمات سميرة "إننا نستطيع حينما نريد!"



( ١١ )

"لدينا عملية الليلة".

بجدية تعبر عن خطورة العملية أخبر سلامة الشباب داخل القبو .  
دخل سلامة منزل نور من باب المطبخ فى ملابس عامل سباكة ثم  
أدخلته سارة القبو بعد رحيل يعقوب وإيرينى ليلتقى بشريف وسامر  
ودانيال .

أخبرهم سلامة أن السلاح سيتم نقله أولاً وسيتولى الضباط الفدائيون  
توزيعه على الأهالى بعدما داهمت قوات العدوان ضباط الشرطة فى  
الشوارع وصادرت السلاح منهم .

لم تكن مهمة توزيع السلاح مهمتهم الوحيدة بل كانوا يأتون  
بالتعليمات تحت جبهة لفوها حول أذر عهم لينقلوا الأخبار إلى أهالى  
بورسعيد بعد تدمير معظم أجهزة المذيع، ونقل أخبار بورسعيد إلى  
القيادة وكان منفذهم بحيرة المنزلة متخفين فى ملابس الصيادين .

كانت خطة العملية قائمة على مهاجمة معسكر إنجليزى ، وخطف  
عدد من الجنود كأسرى ليتم تسليمهم مقابل أسرى مصريين والاستيلاء  
على الأسلحة تعويضًا عما صادروه من سلاح .

"لابد أن نختطف عددًا كبيرًا" . بحماسة تحدث دانيال .

"لابد أن تلتزم بالأوامر يا دانيال" . بصرامة عقب سلامة .

– كما ترى ولكن لديهم الكثير من أسرارنا .

"أصببت يا دانيال وقوات العدوان تقتادهم للإستاد وتستجوبهم بأبشع الأساليب وتقتل فى النهاية من يتعاون ومن لا يتعاون" • بأسى تحدث شريف •

– ما أعجب ما تروى فهذا الإستاد أنشئ لإدخال البهجة فى نفوس الناس أصبح مصدرًا للحزن والعذاب، وقبرًا أيضًا •  
– هى الحياة يتجسد فيها النقيضان يا سامر •

أنهى سلامة الحوار متعللاً بضيق الوقت وبضرورة إطاعة الأوامر • تم تحديد مهمة كل منهم بدقة وعلى الفور خرج سلامة حاملاً حقيبة تشبه حقائب السباكين بها أسلحة، وبعد مدة خرج الشباب يحملون البراميل مرتدين ملابس بائعى اللبن •

بعد رحيل الشباب لاح شبح فى الظلام راح يتحرك متسللاً يسير فى الحديقة باحثاً عن شئ بعد قليل خاب سعيه، فاتجه إلى باب المنزل وطرق الباب كأنه يود تحطيمه، ففتحت سارة ففزعت لرؤيته ولم تستطع إخفاء فزعها قائلة: "يعقوب! لماذا عدت ثانية؟!!" •  
لماذا عاد يعقوب إلى المنزل ثانية؟!



## الفصل السابع : فراق الأحبة

صار الفناء خُلوًّا للذي عَرَفَتْ  
أنفاسُهُ مَعْنَى الحُبِّ والوَطَنِ

أَسْمَى الفَنَاءِ فَنَاءَ الحُبِّ لو عَرَفَتْ  
نُفُوسُنَا وَسَمَتْ بِالْحُبِّ عَنْ ضَعْنِ

أحمد زكى أبو شادى

(١)

"لقد قررت العودة إلى الوطن".

ألقى يعقوب هذه العبارة ككرة من لهب في وجه سارة.

تأملت سارة يعقوب بدهشة ثم وضعت فنجان القهوة على المائدة الصغيرة فزعة وعقبت:

"ماذا تقول؟!".

– كما سمعت وهو قرار نهائي لن أترجع عنه وسأصطحب أولادي  
معي بعد انتهاء الحرب.

– عن أي وطن تتحدث يا يعقوب؟!

– أرمينيا.

– وهل كانت وطننا في الماضي؟!

– بعض الأرمن عادوا إلى الأناضول بعد الحرب العالمية الأولى ولكن  
هذا لا ينفي أن الأتراك يقيمون بها ويسيطرون عليها، وأرمينيا الآن  
وطن خالص للأرمن.

– إذن لن تعود إلى الوطن الذي تركته وسترحل إلى مكان جديد.

– أريد وطنًا خالصًا لهويتي. أفهمين؟!

– وتتركنا أنا و نور!

– أنتِ من أراد ذلك فلا تفرضى علىّ إرادتك كما فرضها على والدنا من قبل • لا أدري من أى مكان فى الجحيم هبط علينا هذا الحقير؟!!

– عمن تتحدث يا يعقوب؟!!

– عن شريف •

– لماذا تسبه يا أخى؟!!

– لأنه هدم ما بنيته فى السنوات الماضية لقد استطاع الإيقاع بإيرينى فى برائته ويريد أن يعيد ما فعله والده فى الماضى يا "جولييت" •

تنفجر سارة فى وجهه صارخة:

– كفانى إهانات منك توقف عن هذا الحديث الجارح الذى أوجعتنى به سنوات علام تحاسبنى وتحاسبها؟ الحب قدر لا حيلة لنا فيه وشريف شاب رائع •

– أنتِ تدافعين عنه لأنك مازلت مريضة بحب أبيه حتى بعد رحيله عنك وعن الحياة • ألا تخجلين مما تفعلين؟! إن نظراتك إليه تقضحك لعلك تبحثين عن أبيه فى ملامحه التى تطابقه •

– اصمت أرجوك أنتِ لم تشعر بى مطلقاً • لترحل إلى أرمينيا واعلم جيداً أنك ستذهب وحدك •



– ماذا؟!!

– لم يعد دانيال وإيريني صغارًا إنهما مستقلان الآن، ولم يعد في إمكانك معاملتهما كقطع الشطرنج؛ إنهما مرتبطان بمصر ولن يبرحا أرضها فعليك أن ترحل وحيدًا وتقيم حلمك هناك وحيدًا بلا أهل،  
وحينها ستندم فلا قيمة للوطن بدون من نحب •

– أنت تهذين •

يقطع حديثهما طرق شديد على الباب فينهض يعقوب متسائلًا: "من  
بالباب؟" •

يأتى صوت شريف من الخارج لاهنًا:

– أنا يا سيد يعقوب افتح أرجوك •

يتنهد يعقوب تنهيدة قوية مخرجًا شحنة زفير كبيرة:

– إنه الحقير لا أدري بحق الرب لماذا يخطئه رصاص الانجليز؟!!

– سلّمه الله من كل سوء اخفض صوتك أرجوك •

ينطلق يعقوب متحفزًا ويفتح الباب وفجأة يثبت مكانه كتمثال من  
حجر وتجذب عيناه فاغراً فمه فى فزع ورعب، بدا شريف أشعث  
الرأس يتساقط عرقه من وجهه كمطر منهمر، آثار الدموع الجافة على  
خديه حاملاً دانيال الذى تغطى الدماء معظم جسده •

بدا شريف مجهداً لاهثاً وهو يقول: "أفسح لى الطريق أرجوك يا سيد يعقوب" •

ركز يعقوب نظره على دانيال غائباً عن الوعى فاضطر شريف أن يبعده من طريقه ليدخل وأسرع إلى الأريكة، ووضع دانيال عليها ثم قال: "أغلق الباب أرجوك يا سيد يعقوب" •

أفاق يعقوب من غيبوبته وأغلق الباب ثم أسرع إلى ولده يهزه:

– دانيال ولدى!

بدا الذهول على وجه ساره ثم انخرطت فى البكاء فاقترب يعقوب من شريف متسائلاً:

– ماذا حدث لولدى؟! تكلم •

أطرق شريف رأسه ثم رفعها باكياً وأجاب: "لقد أصيب فى مواجهات الليلة" •

– عمّ تتحدث؟

– عن مواجهة العدوان؟

– وما شأن ولدى ومواجهة العدوان؟! •

استجمع شريف شجاعته وفجر قنبلة فى وجه يعقوب موضحاً:

– لقد انضم إلى الفدائيين فى بورسعيد منذ بدء العدوان عليها •

"ماذا تقول؟! ولدى دانيال لا دانيال" بصراخ عبر يعقوب عن رفضه  
لما حدث.

جاءت نور وإيريني على أثر صراخ يعقوب بينما نبهه شريف:

– اخفض صوتك أرجوك.

حينما رأت نور دانيال ارتفع صراخهما ثم ارتمت إيريني عليه  
واحتضنته تبكى وتقول:

– أخی حبيبى ماذا حدث لك؟!.

تقترب نور من شريف باكية متسائلة:

– ماذا حدث له؟!.

يلتفت يعقوب يميناً ويساراً:

– أين الدكتور يوسف؟

– سيأتى حالاً لقد قام بتأمين الطريق وحماية ظهرنا.

يتأمل يعقوب ابنه:

– إنه ينزف سيُصْفَى دمه ما العمل الآن؟

ينتبه الجميع إلى طرق على الباب فيسرع شريف إلى الباب بحذر:

– من الباب؟

يأتى صوت يوسف من الخارج فيفتح شريف مسرعاً فيدخل يوسف  
ثم يغلق شريف الباب خلفه يصرخ يعقوب: "إن ولدى ينزف يا  
دكتور يوسف أرجوك إنه يحتاج إليك".

– لا تقلق يا سيد يعقوب سيكون على ما يرام.

يلتفت يوسف إلى شريف:

– احمله معى إلى الحجرة بالطابق العلوى.

– يمكننى حمله وحدى.

– وأنا ألا يمكننى حمله يا شريف؟! ولكننا سنصعد السلم وأنتَ منهك.

– حسنًا.

يقاطعهما يعقوب: "بل أحمله أنا وأبقى معه".

– لا يا سيد يعقوب أنا أحتاج إلى شريف فلديه خبرة فى الجراحة  
علمته إياها وأنتَ لن تتحمل رؤية الجراحة التى ستجرى له أسرع يا  
شريف.

يحمل شريف ويوسف دانيال ويصعدان إلى أعلى فتحتضن سارة  
إيرينى وتربت على ظهرها

وهى تحاول أن تخفف عنها: "تماسكى يا إيرينى سينجيه الله لا تخافى  
يا حبيبتى".

يرتمى يعقوب فوق المقعد كأنه جثة ذاهلاً يحادث نفسه:

– لماذا يترصدنى القدر على هذا النحو ألا يوجد فى الكون سوى؟!!

ثم ينظر يعقوب إلى أعلى ويقول:

– إن ضرباتك الموحجة تلاحقنى بلا هوادة أتكون هذه ضربة النهاية  
التي تقصم ظهري؟

– تمسك بالإيمان يا أخى العزيز ثق بقدرة الله ورحمته ليس أمامك  
الآن سوى الصلاة والدعاء كى يرفع الله هذا البلاء.

يشرذ يعقوب قليلاً ثم يخرج سلسلة معلقة فى رقبتة تحوى صليباً  
كبيراً ويقبله متمماً بعبارات تستدعى دموعه، بينما ترفع نور وسارة  
يديهما بالدعاء، تنتبه إيرينى وتجفف دموعها ثم تصلى فیسود المكان  
صمت لفترة يقطعه صوت طرق عنيف على الباب فينتفض الجميع  
وينهض يعقوب مقترباً من الباب ويتساءل:

– من بالباب؟

يجيب الدكتور مختار من الخارج:

– أنا مختار يا سيد يعقوب.

يفتح يعقوب الباب بحذر فيدخل مختارونبيل وقد كسا التراب شعرهما  
وملابسهما يغلق يعقوب الباب مسرعاً فتقترب نور منهما:

– حمداً لله على سلامتكما •

– سلمك الله من كل سوء يا ابنتى هل وصل يوسف؟

– نعم وقد سبقه شريف حاملاً دانيال •

يتنهد مختار بارتياح:

– الحمد لله يا لها من ليلة ثقيلة كالجبال!

تقترب سارة من الدكتور مختار:

– لماذا تأخرتما؟

– لقد خضنا معركة ضارية حتى تمكننا من الوصول إلى المقابر •

"المقابر!" • بدهشة علقت نور •

يمسح نبيل وجهه بكفه مجيباً:

– لندفن الشهيد سامر •

تفرع نور وتجحظ عيناها:

– ماذا؟! الشهيد سامر! لا لا •

ثم يعلو صراخها فتسرع سارة وتحتضنها مهدئة:

– لا إله إلا الله •

تنفجر نور باكية فيبدو الحرج على وجه نبيل ثم يسأل يعقوب:

– ألم تعلم نور باستشهاد سامر؟!

– لا لم يخبرنا أحد بهذا الأمر •

– لقد تصورت أن شريف ويوسف قد قصّا عليكم ما حدث يا لغبائي!

"إنا لله وإنا إليه راجعون لعن الله الحرب" • بسخط شديد عبر مختار •

فعقب نبيل بسخط أكبر:

– بل لعن الله الطمع الذى يحيل دنيانا إلى جحيم هكذا إذا كانت هذه هى

النهاية الحتمية لنا جميعاً ففيم صراعنا؟!

يرتمى يعقوب على المقعد:

– أصبت إنها حياة لا تستحق الصراع ولكن الطمع يعمينا فمن أين لنا

أن نتعلم أو نبصر؟

يظهر يوسف هابطاً السلم وخلفه شريف فيبدو الترقب على وجه

الجميع فينتفض يعقوب مسرعاً نحو يوسف ومتسائلاً بلهفة:

– كيف حاله الآن يا دكتور؟

– إنه فى غيبوبة الآن وسيفيق بعد قليل •

– هل سيعيش يا دكتور؟

– إن شاء الله يا سيد يعقوب •

– سأصعد كى أراه •

يسرع يعقوب ويصعد السلم كالريح بينما تنتفض إيرينى قائلة: "وأنا أيضا سأذهب لأراه" •

ثم تصعد بسرعة خلف والدها • بينما تتأمل سارة ملامح يوسف ثم تقترب منه وتقول:

– إن وجهك ينبئنى أن القدر سيفجعنا فى عزيز آخر فى هذه الليلة المشئومة •

– الموت والحياة بيد الله وحده يا سيدتى •

– أنت تراوغ سأصعد لأرى دانيال هيا يا نور •

تبدو نور أشبه بتمثال جامد تتحرك مستسلمة مع والدتها ثم تصعدان السلم سوياً •

يرتمى يوسف على المقعد ثم يتنهد: "لم أعش فى حياتى ليلة كهذه الليلة القاسية" •



يسند شريف ظهره إلى الجدار حزينًا قد تحجرت الدموع فى عينيه  
فيقترب مختار منه ويمسك ذراعه ثم يأخذه ويجلسان على الأريكة،  
يحيط مختار ذراعه برقبة شريف بحنان مهوّنًا:

– اسمعنى يا ولدى إن الموت مصيرنا جميعًا وأنتَ عاينته بنفسك قد  
صار سلعة مجانية يتنافس عليها شعبنا العظيم دفاعًا عن وطنهم، وقد  
هان عليهم النفيس والرخيص وربما يخفف هذا عنك ناهيك عن مصير  
الشهداء عند الله • إنه فى مكان أفضل من عالمنا الحقيقى الذى لا يساوى  
عند الله جناح بعوضة •

– أعلم ذلك ولكنك لا تعلم ما كان بيننا لقد ارتبطنا منذ كنا نتعلم  
السير على أقدامنا إنه يعرفنى أكثر من نفسى وأنا أفهمه أكثر من نفسه  
لم نفترق أبدًا ولم أتصور يومًا أننا سنفترق •

– الفراق سنة الحياة •

– أعلم ولكن ما يزيد حزنى أننى لم أشهد دفنه ولا الصلاة عليه •

– يمكنك أن تدعو له بالرحمة وإن كنا أحوج إلى الدعاء بالرحمة  
منه •

يتنهد نبيل بشدة وتبدو على وجهه أمارات الغضب الذى يعبر عنه  
صوته وهو يقول:

– لقد خلق الله الكون يتسع لنا جميعًا والنعم تكفينا جميعًا فلم الصراع؟!

– إن البعض يا ولدى يرى مصالحه تتحقق على حساب مصالح غيره بل على رقبته أحياناً.

– ليس صحيحاً لو تأملوا الحياة جيداً لوجدوا نعم الله تكفيها ولكنه الطمع إن أكثر ما نستهلكه الهواء الذى نتنفسه فى كل لحظة بل ونحن نيام أيضاً ولكن لا تجد إنساناً يشكو نضوب الهواء والسبب أنه لا يُخزّن بل لا يستطيع بشر تناول جرعة زائدة منه وإلا هلك.

– أصبت يا ولدى فهناك نعم استأثر الله بالسيطرة عليها وحده حتى لا تقنى البشرية، ونعم أخرى منحهم السيطرة عليها فكان الجشع والرغبة فى الاحتكار سبباً فى كل هذا الدمار والهلاك. إذا كنا سنقضى فى النهاية ولن نأخذ معنا شيئاً فلم الصراع؟!



(٢)

رقد دانيال على الفراش غائبًا عن كل ما يدور حوله يكسو الشاش  
والقطن صدره وذراعه اليسرى بينما جلس يعقوب وإيريني عن يمينه  
وجلست سارة ونور عن يساره •

خيم الحزن على الجميع وكست الدموع وجوههم، مهد حديث يوسف  
إلى سارة ونور ما ينتظرهم، أما يعقوب وإيريني فكانا يترقبان بأمل  
شديد إفاقة دانيال من غيبوبته •

مر وقت طويل وفجأة تحرك رأس دانيال يمينًا ويسارًا فانتبه الجميع  
إلى دانيال الذي بدأ يهذى بكلمات غير مترابطة:

"سامر ••• أيها الأوغاد ••• القناة لنا ••• سترحلون أقسم" •

يستدعى اسم سامر دموع نور بشدة التي تدعو له:

– فليرحمك الله يا حبيبي •

يهز يعقوب دانيال برفق:

– دانيال أسمعني يا حبيبي؟

يفتح دانيال عينيه بصعوبة بالغة يتبعها تأمل الحجرة وما حوله  
متسائلًا:

– أين سامر؟

نظر دانيال إلى نور:

– أين سامر يا نور لماذا لا تجيبين؟ لماذا تبكين هكذا؟!

تمسح نور دموعها وتتمالك نفسها ثم تجيب:

– هون على نفسك يا حبيبي سامر مرتاح الآن.

– ماذا؟! أقتله الأوغاد؟!

– ترفق بنفسك يا ولدي وبوالدك الذي انشق قلبه حزناً عليك لماذا

هانت عليك حياتك؟! ما علاقتنا بهذه الحرب؟!

– علاقة من إذن يا والدي؟!

– أهلها هم المسؤولون عن الدفاع عنها.

– ومن نحن؟! أترانا سائحين هنا أم مماليكاً مرتزقة كيف ترانا يا

والدي؟!

– ليست أرضنا.

– أنا أحب هذه الأرض حباً شديداً أحب شعبها وترابها وذكرياتى فيها

وقريباً أستقر فى باطنها.

– لا يا دانيال لا تؤلمنى بحديثك ستعيش يا حبيبي وسنرحل إلى وطننا

الحقيقى.

– لاوطن لى سوى مصر التى تختزن رفات جدى وجدتى وسألحق بهما • ماضيك ومستقبلك هنا يا والدى الحبيب لا وطن لك غيره •

– ترفق بنفسك يا حبيبي ولا تجهدا بالحديث •

– لا فرق أنا أقترب من النهاية •

– لا تقصم ظهري بكلامك ترفق بى يا ولدى •

– بل ترفق أنت بنفسك وبمن حولك قبل أن أغادر هذه الحياة عدنى أن تنفذ وصيتى لتهدأ روحى فى مرقدى الأخير •

بيكى يعقوب: "كفى يا ولدى" •

– اسمعنى أرجوك الوقت يداهمنا أتعلم كيف مات سامر؟ مات دفاعاً عنى لقد ارتمى بجسده ليجنبنى رصاصات الإنجليز التى انهالت على كالمطر ناسياً أصله وأصلى إن ما جمعنا أعظم مما كنت تظن أنه يفرقنا • لقد جمعتنا هذه الأرض وقبلها الإنسانية التى جمعنا عليها آدم وحواء •

يبدو الذهول على وجه يعقوب فيعقب:

– ماذا تقول يا دانيال؟!

– لقد تحمل شريف مسئولية إنقاذى وحملنى إلى هنا وكان يمكنه تركى للإنجليز أنال منهم ألوان العذاب ولكنه صمم أن يحملنى وكان نحيبه على سامر آخر ما سمعت قبل أن أفقد الوعي •

يحنى يعقوب رأسه خجلاً:

– لا أكاد أصدق ما أسمع •

– إنه إنسان نبيل يا والدى جدير بأختى إيرينى عدنى يا والدى بجمع  
شملهما •

يتعثر دانيال فى النطق فجأة وتتلاحق أنفاسه سريعاً فيفزع يعقوب  
وينتفض صارخاً:

"دانيال دانيال" •

يسلم دانيال الروح فيميل رأسه يميناً نحو والده وإيرينى التى تصرخ:

"دانيال • دانيال • لا • • •"

يصرخ يعقوب مستنجدًا: "دكتور يوسف دكتور يوسف" •

يأتى يوسف وخلفه مختار ونبيل وشريف على أثر صراخ يعقوب  
وإيرينى التى تحتضنها نور وتبكيان معاً بينما يبدو يعقوب مصدوماً:

– لا هذا خيال إنه كابوس سرعان ما أفيق منه •

تحاول سارة الاقتراب من يعقوب فيمنعها مختار:

– دعيه يفرغ كل ما بداخله من حزن وسخط وسيهدأ بعد قليل •

يتقدم يعقوب نحو باب الحجرة كأنسان آلى •

تبكى نور بشدة وهى تقول:

– ما هذا القدر العصيب هل أفقد ابن عمى وابن خالى فى ليلة واحدة؟!  
إن أنفاسى تتناقل •

يقرب مختار منها مهوناً:

– لا ينبغى أن تفقدنا المحن إيماننا بل تزيده قوة وتزيدنا صلابة •

يتنهد يوسف حزيناً ثم يقول:

– يجب أن نستغل سكون الليل وظلامه لندفن دانيال •

على الفور يؤيده نبيل قائلاً:

– ستتكفل أنت وشريف بحمله إلى المقابر وأنا سأدبر أمن الطريق  
فلدينا عدد من القنابل فى القبو تحسباً لأى غدر من الأعداء، أما عمى  
مختار فسيبقى هنا لحماية النساء •

– يمكننى أن أحمله إلى المقابر وحدى كما حملته عندما كان مصاباً •

– لا يا شريف الطريق من هنا إلى المقابر أطول من الطريق الذى  
قطعته •

– حسناً كما ترى •

يتنهد الدكتور مختار ثم ينظر إلى أعلى متضرعاً:

" اللهم ألهمنا الصبر والقوة لنتحمل قدرك برضًا وتفرق بنا وارحمنا  
فلا رحيم سواك •





(٣)

جلس يعقوب ذاهلاً على مقعد الأنتريه شاردًا يتذكر الماضى البعيد لحظة هروبهم من جحيم الأتراك وموت عمته التى لم تتحمل مشقة الطريق، ثم تذكر الأيام التى قضوها فى "جبل موسى" والسفينة التى حملتهم إلى بورسعيد حيث المصير المجهول، وكيف تغيرت حياتهم واستقرارهم فى مصر ثم زواجه ولحظة ميلاد دانيال، وفرحته العارمة بإنجابه وحلم العودة إلى الوطن وفجأة انهار الحلم فى اللحظة التى فقد فيها قرة عينه وامتداد عرقه الأرمينى •

لقد بات الحلم محالاً لماذا سيعود؟! لقد دُفن والداه هنا وبعد قليل يجاورهما ولده حقاً ما قيمة الوطن بدون الأهل والأحباب؟! إنه الآن يدرك صواب ما قالته سارة ودانيال إن جذوره هنا •

يسمع يعقوب وقع خطوات على السلم فيفوق من شروده ويرفع رأسه فيرى شريف ويوسف يحملان دانيال ملفوفاً فى كفن أبيض؛ احتفظت به سارة لنفسها كما يفعل بعض المصريين تتلاحق أنفاس يعقوب وتسرى قشعريرة فى جسده؛ حانت اللحظة العصبية سيرحل دانيال بجسده الآن إلى الأبد كان عليه أن يتماسك كى يقوى على مواجهة ما ينتظره من مسئولية دفن ولده •

كتم يعقوب أحزانه ونهض حينما اقترب الشبان يحملان جثمان دانيال ووضعاه على الأريكة بينما هبطت سارة ونور وإيرينى يتبعهما نبيل ومختار •

" سأتكفل بدفنه أنا وشريف" • بحزن شديد تحدث يوسف إلى يعقوب  
الذى بدا مستنكرًا حديثه •

– ساتى معكما يا دكتور •

– أنت فى حالة سيئة يا سيد يعقوب •

يقاطعه يعقوب: "أريد ان أصلى عليه فلا يوجد سواى يمكنه ذلك" •

– عفواً يا سيد يعقوب اغفر لى فما نحن فيه أفقدنا وعينا •

– أود ان أنبهك أنه لا يوجد صندوق لنضعه بداخله يا سيد يعقوب •

– لا أهتم بذلك إن روحه الطاهرة تجاور المسيح الآن •

تقترب سارة من يعقوب وتربت على كتفه:

– إننا نملك صندوقاً يمكننا وضعه بداخله •

– ماذا؟! عن أى صندوق تتحدثين؟

– عن الصندوق الذى يحوى أوراق أبى فى القبر •

يرمقها يعقوب بدهشة فتستطرد سارة:

– لا وقت لدينا للحديث سأفرغ الصندوق مما فيه تعالى يا نور وأنتِ  
أيضاً يا إيرينى •

تتنصرف سارة ومعها الفتاتان نحو المطبخ الذى يؤدى إلى القبو •  
"علينا أن نساعدهم" بحماس تحدث نبيل إلى يوسف وشريف فاتجهوا  
إلى القبو •

جلس مختار بجوار يعقوب الذى بدا لا يدرك وجود مختار وكأنه  
يحادث نفسه:

– هل كان والدى يعلم حينما صنع صندوقًا بهذا الحجم أنه سيصير فى  
النهاية تابوتًا يرقد فيه حفيده إلى الأبد؟! كم سخرت من هذا الصندوق  
فى الماضى ووصفته بتابوت الموتى وأنا لا أعلم مصيره فى النهاية •  
ما أعجب القدر!

– كان الفراعنة يحنطون الجثث فيحتفظون بها كما هى فعاشت إلى  
الآن آلاف السنين •

– ليتنى كنت أعلم سر هذا التحنيط أقسم لاحتفظت بولدى معى إلى  
الأبد •

– سيعيش دانيال فى وجداننا تخلده بطولته •

يدخل شريف ويوسف يحملان الصندوق ويتبعهما بقية من بالقبو •  
يتأمل يعقوب الصندوق فيجد به تغييرًا فيلمح نبيل تعجب يعقوب  
فيقترب منه موضعا:

– لقد ثبتت القطع الخشبية فى أطرافه الأربعة لنتمكن من حمله والإمساك به جيداً •

يهز يعقوب رأسه موافقاً مستسلماً •

يقترّب يعقوب من شريف:

– أشكر الرب الذى سخر لكى أتمكن من دفن ولدى والصلاة عليه •

يبدو الحرج على وجه شريف بينما يمد يعقوب يده ليصافح شريف فيصافحه بأسى قائلاً:

– لقد عرفت دانيال منذ وقت قريب وأحببته كائى أعرفه منذ زمن طويل •

– اغفر لى يا ولدى؛ أنا إنسان أخطئ وأصيب ربما لم أدرك حكمة الحياة ولكن المحن تمنحنا الكثير من الحكمة والتعلم، وسأكفر عن خطيئتى فى حق ابنتى وحقك وأريح ولدى الحبيب وليغفر الرب لى •



## الفصل الثامن : صمود واستبسال

وللأوطانِ في دَمِ كُلِّ حُرٍّ  
يَدٌ سَلَفَتْ وَدَيْنٌ مُسْتَحَقٌّ

ومن يَسْقَى وَيَشْرَبُ بِالْمَنَايَا  
إذا الأحرارُ لم يُسَقَوْا وَيَسْقُوا؟!!

أحمد شوقي

(١)

"الجنرال أستوكويل يريد مقابلتك".

بصاف تحدث الميجور "جون ويليامز" رئيس المخابرات البريطانية  
إلى السيد "محمد رياض" محافظ بورسعيد •

فوجئ محافظ بورسعيد برئيس المخابرات البريطانية وبصحبه  
ضابطان إنجليزيان يقتحمان مبنى المحافظة، ويطلبان منه لقاء الجنرال  
"أستوكويل" قائد القوات البرية الأنجلو فرنسية ودهش المحافظ لهذا  
الطلب، ثم طلب من "ويليامز" أن يتحدث معه على انفراد نظرًا لدقة  
الحوار ولكنه رفض لأنه جاء بصحبة زميله فلا بد أن يكون الحديث  
في حضورهما، فعرض المحافظ انسحاب زملائه من الغرفة مقابل  
انسحاب زميله فقبل رئيس المخابرات وتم اللقاء بينهما •

حينما جلس المحافظ ورئيس المخابرات منفردين بادر المحافظ  
بالتساؤل:

– لماذا يريد الجنرال "أستوكويل" مقابلتي؟

– لبحث معك بعض الأمور الهامة •

– ولماذا لم يحضر بنفسه؟

– لأنه مشغول جدًا ولا يمكنه الحضور •

– ما الأمور التي يريد بحثها معي؟

– يريد أن يعرض مساعدات لإمداد أهل المدينة بالطعام •

– المدينة بها من الطعام ما يكفيها •

أدرك المحافظ على الفور أن بريطانيا التى لم تفلح فى وقف المقاومة بالوحشية تريد استمالة المصريين وكسب ودهم فى مقابل بث السخط على الرئيس الذى أودى بهم إلى هذه الحرب •

استنكر الميجور رفض المحافظ قائلًا:

– ألسن محافظ بورسعيد؟ ألا يهكم مصلحة المواطنين؟

– بلى ولكن لدينا ما يكفينا من الطعام كما أننا لا نأمل من المعتدين مساعدة •

– نحن لا نريد الإضرار بالمدنيين بل نريد مساعدتهم •

– يكفينا ما نلنا منكم فى اليومين الماضيين •

صمت "ويليامز" برهة ثم استأذن المحافظ فى مقابلة الجنرال "أستوكويل" فأجابه المحافظ أنه لا يليق بوضعه حاكمًا لبورسعيد أن تتم دعوته بهذه الطريقة، فأخبره الميجور أن تأخير اللقاء سيكون له عواقب وخيمة ربما تضر بمصالح المدنيين، فأخبره المحافظ أنه لن ينزل معه الآن •

كان سبب رفض المحافظ مقابلة الجنرال "أستوكويل" أن الوضع لا يسمح بذلك الآن ولكن فيما يخص الزيارة فسيقوم بردها بشرط أن يفهم

الجنرال "أستوكويل" أنه لم يحضر لزيارته إلا ردًا للزيارة وليس  
إجابة لطلبه •

تم اللقاء بين المحافظ الذى ذهب لتوضيح بعض الأمور للجنرال  
وتوصيل رسالة هامة له وحينما التقى بالجنرال "أستوكويل" فى ملهى  
فندق "بالاس" كان القنصل البريطانى يجاوره وحوله عدد من الضباط  
الإنجليز • بادره الجنرال بالتساؤل قائلاً:

– هل يوجد كميات من التموين تكفى المواطنين؟

– نعم ولا نحتاج إلى دعم من أحد •

– ولكن هناك معلومات عن نقص المواد التموينية فى بورسعيد •

– قلت لك أن لدينا ما يكفينا من التموين •

– هل ستستمر فى عملك كمحافظ لبورسعيد؟

– نعم فأنا الحاكم الشرعى للمدينة ولن أسلم المدينة إلى أحد •

– يمكننا تأمين مبنى المحافظة بحراسة بريطانية تحميها •

– لا الحراسة ستكون مصرية ولا حاجة لنا بمساعداتكم •

– ألا تهتم لأمر المواطنين الذين ترعى مصالحهم؟!

– أنا أفعل ذلك انطلاقاً من هذه الأمانة ولا أتصور أن قاتلى شعبنا  
يريدون مساعدتنا •



– رئيسكم من فعل ذلك •

– ألم تكن الغارات الوحشية على مدينتنا بطائراتكم؟!

– إن معركتنا مع "ناصر" لنسترد حقنا الذى سلبه ولا معركة لنا مع الشعب المصرى •

ضحك المحافظ ثم عقب ساخرًا:

– عبد الناصر يقيم بالقاهرة ولا يقيم ببورسعيد فهل ضللت الطريق؟!

قرر "أستوكويل" تغيير مجرى الحديث محاولًا استمالة المحافظ ذاته فتساءل:

– أين تقيم الآن؟

– أقيم فى منزل الحاكمدار لأن منزلى انهار بعد إصابته بالقنابل التى ألقتها قواتكم •

– يمكننا توفير مكان أفضل وحراسة خاصة لك •

نهض المحافظ وكان ذلك بمثابة تمهيد لإنهاء الحوار بعد أن وصل رسالته إلى الجنرال أنه لا يوجد أمل فى استمالة المصريين وأنهم على قلب رجل واحد، ولا يمكن زرع نبذة السخط على رئيسهم بقلوبهم وأن محاولات المعتدين فاشلة وتبريراتهم واهية ثم عقب قائلاً:

– السلام عليكم •

رحل المحافظ وترك الجنرال ينهشه الغضب، والسخط فقرر  
الجنرال تحديد إقامة المحافظ "محمد رياض" ولكن ذلك زاده إصراراً  
على بث روح المقاومة فى المواطنين بإغلاق المحلات ورفض  
التعامل مع الإنجليز، وكان يساعده فى ذلك ضباط المباحث الجنائية.

حينما فشل الترغيب لجأ الإنجليز إلى الترهيب باقتحام مبنى البلدية  
وإرهاب مدير المبنى السيد "محمد توفيق الديب" واتهموه أنه يحرض  
العمال على عدم التعامل مع الإنجليز وهدده الميجور "ويليامز" أنهم  
سيواجهون ذلك بكل شدة وحزم.

ألقت قوات الإنجليز القبض على عدد من العمال والباطعين وقامت  
بتعذيب بعضهم وقتل البعض الآخر، ولكن المقاطعة ظلت مستمرة  
وفشلت كل محاولات العدوان فى وقف المقاومة الإيجابية المتمثلة فى  
العمليات الفدائية والمقاومة السلبية بمقاطعتهم.



(٢)

فى العاشر من نوفمبر أعلنت الإذاعات العالمية أن "أنتونى إيدن" رئيس وزراء بريطانيا مصاب بحالة نفسية سيئة وانتقل إلى جزيرة "جامايكا" على البحر الكاريبى للاستشفاء تاركًا مهمة الوزارة إلى "بتلر" حامل أختام الملكة؛ تمهيدًا لاستقالته.

كان هذا بمثابة اعتراف بفشل العدوان على بورسعيد، والهروب من مسئولية إيقاع بريطانيا فى حرب لم يُحسب حسابها جيدًا فقادتها لتصبح دولة من الدرجة الثالثة كما قال "عبد الناصر" فيما بعد وقطعت ذيل الأسد البريطانى كما قال "خروشوف" رئيس الاتحاد السوفيتى.

ورغم ذلك استمرت قوات العدوان داخل بورسعيد تدهم كل شبر فيها بحثًا عن السلاح والفدائيين فى حين أدركت المقاومة أن ذلك من قبيل حلاوة الروح؛ الطائر الذبيح يطيح بجسده يمينًا ويسارًا قبل أن يسقط جثة هامة، فكان على بورسعيد ان تستمر فى المقاومة التى تجبرهم على طلب الرحيل؛ هربًا من جحيم المقاومة.

صدرت الأوامر إلى ضباط العدوان بالسير فى جماعات وعدم السير فرادى وربط أسلحتهم بأجسادهم بسبب مهاجمة المصريين دوريات العدوان والذى لم يتوقف رغم حذرهم الشديد.

خيم الحزن على منزل نور بعد رحيل سامر ودانيال وحل يعقوب محل ولده بالمنزل وتبدل يعقوب فصار أبًا حنونًا لنور التى كان اسمها وملاحها يذكرانه بوالدها وما فعله وبعد رحيل دانيال تبدل كل شئ لقد

فهم درس الحياة القصيرة التى لاتستحق كل هذا الصراع والكراهية  
ولكن نور لم تتجاوز أحزانها •

نور التى لم يعرف اليأس إليها سبيلاً فى الماضى أحالها إلى شجرة  
عجوز جافة الفروع ساقطة الأوراق صموتة، وحيدة لايونس وحدثها  
أحد ولاسيما أن سميرة قد تطوعت مع الفدائيين وأقامت إيرينى لدى  
خالتها وسارة تحمل أعباء خدمة الجميع فلا وقت لديها لتؤنسها فلم يعد  
لها سوى الحزن أنيساً •

بدأت سارة قلقة على نور فأفضت بقلقها إلى الطبيب العجوز الذى  
طلب رؤيتها وقوبل طلبه بالرفض مرات عديدة فقرراقتحام الحجرة  
وكم كانت صدمته حين رآها وقد استحالت من ربيع مورق إلى خريف  
ذابل •

جلس العجوز على حافة الفراش يتأملها بأسى ثم أخرج غليونيه وأشعله  
ونفث دخانه فى وجهها فأشاحت بعيداً فنهض وجلس على الحافة  
الأخرى ونفث دخان غليونيه فى وجهها مرة أخرى، فزفرت زفرة  
حارة فركز عينيه فى عينيها فأطرقت برأسها

فابتسم قائلاً:

– نور مادامت أنفاسنا تطرق صدورنا وتغادرها فينبغى أن نلبى نداءها  
ولا نردها •

– أريدها أن تياأس منى وترحل إلى الأبد •

– إنها تتبع إرادة الله لا إرادتنا نحن •

تنهار نور ثم تدفن وجهها بين كفيها وتغرق فى موجة بكاء شديدة •

– إن الله رحيم بعباده يا نور فكما يأخذ يعطى وهو المانح الأول  
والوحيد فحينما حرمك الأب منحك الأخ، وحينما حرمك دانيال منحك  
يعقوب وسيمنحك الأكثر فيما بعد •

– أصبت ولكنى أشعر بثقل الحياة وثقل جسدى معها •

– إننا نفقد رغبتنا فى الحياة حينما نفقد هدفنا منها •

– وماذا أفعل ولاهدف لدى لقد انضمت سميرة إلى الفدائيين، وكذلك  
أنتم وأنا أقبع هنا كحشرة متطفلة على الحياة بلا هدف •

– لقد خلقنا الله مختلفين يؤدى كل منا دورًا يتكامل مع غيره ولو  
تشابهنا لخربت الحياة •

– وما الدور الذى يناسبنى؟

– كنت تؤدين دورًا عظيمًا فى رعاية المصابين، وكنت تحاولين فك  
أسر ذلك المسكين الذى بيدو أنه قد أغرم بالسجن ولا يريد الخلاص  
منه •

– لم يعد ذلك يشغلنى ولو شغلنى لاحتقرت نفسى وبور سعيد تحترق •

– إذن جميعنا خونة •

– ماذا؟! –

– مازلنا نتنفس ونأكل ونشرب وننام حتى وإن كان بمقدار قليل  
ومازلت قلوبنا تنبض بالحب •

– الحب!

– الفدائي يصارع من أجل مصر فمن مصر؟ إنها أخته وحبيبته  
وزوجته وابنته وأصدقائه والحياة تستمر بكل معانيها في كل وقت  
لأنها صراع نعيشه ولا ينتهي إلا بانتهاء الحياة •

– إن سلمت بما تقول فما زالت المأساة قائمة إنه حصن منيع •

– ربما لم تستخدمى معوًلاً مناسباً لهدمه ولن يكون ذلك إلا بفهمه  
ومعرفة نقاط ضعفه •

– ماذا تقصد؟

– إن أبرز ما يميزك رقتك وحنانك والطفل يا نور يذوب حباً فيمن  
يعطف عليه •

– ولكنه رجل •

– هذا ما يبدو لك ولكنه طفل حرم من الحنان والعطف طوال حياته ولم  
يذق لذتهما •

بدت نور مقتنعةً بحديثه وقد أحيت عباراته أملاً جديداً بداخلها فابتسمت  
وهزت رأسها بالقبول فاقترب العجوز منها وقبل رأسها •



(٣)

"هذه ديون عمى يسدها الآن" •

بدا شريف شاردًا وعلى وجهه أمارات العبرة وهو يتحدث، ثم رشف من فنجان القهوة قليلاً بينما بدت نور متعجبة من حديثه، وضع شريف فنجان القهوة على الكومود المجاور لنور التي كانت قد تحسنت نوعاً ما وقال: "نور فيم شرودك يا حبيبتي؟"

– في حديثك الذى يذهلنى ويؤلمنى ويثير الرعب بقلبى •

– لِمَ كل هذا يا نور؟

– لقد سامحته أنا وأمى ولم نحمل له بقلبنا ضغينة يوماً ما وأنت الآن تخبرنى بعقاب الله له •

– عفواً يا أختى العزيزة فلم أقصدكما بحديثى فلستما إلا قطرة فى بحر ديونه •

– وهل على الآن انتظار عقاب السماء لوالدى فيك، لا أحتمل ذلك يا شريف •

– أنا لم أقصد ذلك يا نور ولكنى أتأمل أقدار الله وأحاول فهمها •

– كان سامر إنساناً رائعاً فلم تتصور ذلك؟! •



– لقد نال عمى الجزاء الذى يستحقه ونال سامر الثواب الذى يستحقه  
أيضاً الله حكم عدل •

– إذن ما ديون عمى التى تتحدث عنها يا شريف؟!

– لقد ورث عمى ثروة هائلة ولكنه كان ذا نفس لا تشبع لقد ضاعف  
الأرض على حساب الفلاحين المساكين، وصار المصنع الذى ورثه  
اثنين على حساب العمال الذين يعملون لديه بأجور زهيدة ومن يسقط  
منهم مريضاً يكون مصيره الشارع، بلا علاج ولا أجر يكفل أسرته •

– ما أقسى ما تروى يا شريف!

– نعم ولكن الله يسمع أنات المظلومين • لقد تزوج عمى من ابنة عمه  
الثرية كى لا تذهب الثروة إلى أحد من خارج العائلة وانتظر أن ينعم  
الله عليه بطفل ولم يتزوج من أخرى رغم مرور السنين خشية أن  
تطلب الطلاق، ويخسر ثروتها ثم أنعم الله عليه بسامر بعد عشر  
سنوات •

– وهل تغير بعد كل ما حدث له؟

– لا بل ازداد طمعاً ليزيد الثروة لوحده سامر وبخاصة أنه لن يستطيع  
إنجاب أطفال غيره •

– لماذا؟!

– لقد أُصيبَت زوجة عمى فى حادث استأصلت على أثره الرحم ومن يومها صار سامر عينيها فصارت تلازمه كظله، بل تخشى عليه من ظله أيضاً •

– إنها مسكينة كم أشفق عليها حين تعلم ما حدث!

– هذا حمل ثقيل ينتظرنى ولا أعرف كيف سأخبرها •

– ولكن كيف وافقت على مجئ سامر هنا؟

– لقد ترك لها سامر خطاباً فى حجرته يخبرها بانضمامه إلى الفدائيين لأنها لم تكن لتقبل بذلك خوفاً عليه، أما عمى فلسخرية القدر فرح بما حدث لبور سعيد واصفاً قوات العدوان بالملائكة التى هبطت من السماء لتقتص له ولغيره من القرصان الذى أخذ أرضهم ومنحها للفلاحين •

– ماذا؟! أتقول إنه فرح بما حدث لمصر؟!!

– نعم ولا يعلم أنهم جاءوا ليقتلوا قلبه من بين ضلوعه لاعبد الناصر من مصر كما توهم •

– وماذا عن والدتك المسكينة يا شريف هل أخبرتها بما فعلت أم أنك تركت لها خطاباً أيضاً؟

يبتسم شريف ساخراً ثم يجيب:

– المسكينة! ربما تعثر على الخطاب بعد أيام فهى لاتنتبه إلى وجودى أو رحيلى إنها مشغولة دائماً •

– بماذا؟

– تشغلها أمور جسام كالحفلات وصالونات الأزياء كان الله

فى عونها •

تنظر إليه نور بإشفاق ثم تعقب:

– إذن حُرِمَ والدى من الحنان والعطف طوال حياته •

– هذه أيضًا عدالة السماء لقد حرمتك من حبه وحنانه فإل ما يستحق

من جزاء فليرحمه الله •

– فليرحمه الله يا حبيبى ولتدع ما فات فلدى فيض من الحنان أعوضك

به ما حُرمت •

– دائمًا اسأل نفسى هل أنتِ بشر مثلنا يا نور؟! وهذا يقودنى لأسأل

نفسى أيضًا هل يحبنى الله إلى هذا الحد؟! لقد عوضنى بك عن سامر •

حقًا الله خير معوض •

يقطع حديثهما صوت طرق على الباب فيبادر شريف معقبًا:

– من؟

– أنا إيرينى يا شريف •

– ادخلى يا إيرينى •

تدخل إيريني فتبتسم حين ترى نور وقد بدت في حال أفضل فتقترب منها وتقبلها قائلة: "أشكر الرب أنت الآن في حال أفضل".

– الحمد لله يا ريري

تنظر إيريني إلى شريف الذي يبادلها نفس نظرة الحب والشوق، فتبتسم نور وهي ترقبهما ويخفق قلبها لما يبدو من نظراتهما المتبادلة، ثم تدعوه ليصطحبها إلى الحديقة وبالفعل يلبي طلبها ويخرج متأبطاً ذراعها ويغلقان الباب خلفهما.

تشرد نور في الحب الذي جمع شريف ونور والظروف القاسية التي التقي فيها واستحالة ارتباطهما وهما الآن ينتظران انتهاء الحرب ليجمعهما بيت واحد.

لا أحد يدري ما الذي سيحدث بعد ثوانٍ في هذه الحياة ولكن ما ندركه حقاً أننا لابد أن نسعى لننال ما نريد.

إيريني للمرة الأولى في حياتها تنمرّد على والدها وتقف في مواجهته لتنتزع حقها في الحياة وربما كان صمودها هو ما حقق لها ما تريد.

إن خضوعنا واستسلامنا يضيعان منا الكثير والحياة لا تعطى من يخضعون ويقبلون الأمر الواقع إنها لمن ينتزعون حقهم فقط.



## (٤)

واصل يوسف الليل بالنهار لرعاية الجرحى ولم يساعده سوى يعقوب ومختار أيضًا أحيانًا ولكنهما لم يصمدا أمام الجراحات الدقيقة، وإن بدا عليهما القوة والصلابة فليس كل ما يبدو منا حقيقتنا •

افتقر يوسف إلى ممرضة ماهرة تعينه مثل نور التى برغم رقتها كانت قوية فى هذا المجال الذى أتقنته من أجل رعاية جدها الذى دفعها حبها له إلى الصبر عليه، وبرقادها شعر يوسف بقيمتها وهو يعمل وحده حتى نال منه التعب •

وبينما يوسف منهمك فى تضميد جرح أحد المصابين طرقت نور باب الحجرة ففتح يوسف الذى اصطدم بوجهها وقد صار هالة من النور تثير البشاشة بابتسامتها، فخفق قلبه فجأة دون أن يدرى أكان ذلك من وقع المفاجأة أم لسبب آخر لا يدركه؟! فتماسك أمام ابتسامتها الساحرة وتحير أيقبلها معه أم يصدّها ولكن نور قطعت حيرته بقولها:

– صباح الخير يا دكتور يوسف •

تلثم يوسف عاجزًا عن الرد فابتسمت نور ابتسامة واسعة واستطردت تقول:

– ماذا بك؟ تبدو منهكًا!

– لا أنا فى أفضل حالاتى •

- إن وجهك ينفى كلامك أعتقد أنك بحاجة إلى المساعدة فهل تسمح لي؟

- لا أشكر لا أحتاج إلى مساعدة أحد .

- وأنا أحتاج إلى هذه المساعدة؛ شفاء الجرحى يشفى أحزاني جراء رحيل دانيال وسامر .

تأثر يوسف بكلامها عن رحيل العزيزين دانيال وسامر فلم يستطع صدها فأفسح لها المكان فدخلت واستأنفت عملها تساعده بمهارة شديدة، فأدرك أثرها وأدرك الفرصة التي كادت تضيع من يده برفضه وقد أصبح لا يقوى على المواصلة . ارتعشت يده فجأة وهو ينهى خياطة جرح أحد المصابين فأمسكت نور يده برفق فأفلتها منتفضاً من ماس كهربائي فابتسمت نور وتساءلت: "أنت تحتاج إلى الراحة فلم المكابرة؟!".

عجز يوسف عن الرد وقد بدأ يفقد توازنه وقدرته على الوقوف فأصبح كفرع شجرة تطيح به الرياح في اتجاهين متعاكسين، فأمسكت نور ذراعه ولم يرفض مساعدتها فلم يكن يملك إرادة الرفض واصطحبته إلى خارج الحجرة، ثم جلس على الأريكة وأسند رأسه إلى مسندها فأشفقت عليه وتركتة مسرعة تصعد السلم لتأتى بغطاء ووسادة، ثم دخلت حجرتها وتنفست نفساً عميقاً وابتسمت ملء شفيتها بسعادة وأخذت الوسادة والغطاء الثقيل واحتضنتهما؛ عما قريب يحملان أنفاسه ورائحته .

هبطت نور السلم مسرعة وعندما وصلت إلى الأريكة وجدتة  
مستغرقاً فى نوم عميق وقد أطاح الهواء بخصلات شعره فتدلت على  
جبينه فبدا ذو الوجه الصارم طفلاً صغيراً قهره النوم فاقتربت منه  
وأسدلت الغطاء على جسده ووضعت الوسادة خلف رأسه ثم مسحت  
شعره بيدها كما تفعل الأم بصغيرها وهى تتأمل جماله عند النوم •

أدركت نور مما حدث أنه سيستسلم أمام صمودها فهو إنسان فى النهاية  
يمكن الوصول إليه مهما بدا صلباً فزادها ذلك ثقة وسعادة، وفجأة  
انتبهت فزعة إلى يد تسقط على كتفها من خلفها فالتفتت فإذا به  
العجوز مبتسماً لها فرمته بنظرة ثقة وتصديق لما أخبرها به فأطبق  
بكفيه على وجهها مركزاً فى عينيها فابتسمت وقالت:

– إنه بالفعل طفل مسكين •

– إذا كنتِ قد أدركتِ ذلك فسيمنحك هذا الإدراك السبيل الأمثل لتصلى  
إليه ولن يعرف الاستسلام إليك سبيلاً •

ابتسمت نور ثم تركته لكى تعتنى بالمصابين بينما رمى العجوز  
يوسف بنظرة إشفاق وابتسامة ساخرة من أداء دور الأسد، وهو فى  
حقيقة الأمر قط مسالم، ثم اتجه نحو السفارة وأدار المذيع ثم أشعل  
غليونه ونفت دخانه منصتاً إلى ما يبيت من أخبار الحرب كالمدم  
والجزر بين العدو والمقاومة تارة لها وتارة له •

أثناء استغراق مختار مع الأخبار دخل يعقوب من باب المنزل يحمل  
عيدان الريحان يتشممها متأثراً تلمع عيناه بدموع حبيسة أثارت مختار،

فأغلق المذيع وتأمل يعقوب الذى جلس مواجهًا له فبادره مختار  
بالحديث قائلاً:

– نور تعشق رائحته بشدة •

– نعم وكان دانيال يعشقه ويثير بداخله سعادة وحينما أشمه الآن يخفق  
قلبى كأنى أحتضن صغيرى لحظة وداعه ورحيله عن دنيانا •

تنهد مختار بأسى وإشفاق على يعقوب وعقب:

– سيحيا دانيال أكثر منا • وعليك أن تثق بعدالة الله الذى سيقصص  
لصغيرك حتماً •

– نعم وإن كنت قد تسامحت مع الماضى وأثق بعدالة الرب إلا أننى  
أعجز عن التسامح تجاه ثأر ولدى • فلتحل عليه لعنة الرب أينما كان •

– طهر قلبك إذن ولا تدنسه بهذه المشاعر مادمت موقناً بعدالة الله •

تهدا نبرة يعقوب ويتأمل مختار ثم يبتسم:

– إن حديثك يشفى قلبى •

– الحمد لله فأنت لا تعلم كم يسعدنى ما تقول •

– ما قولك يا سيد يعقوب فى فنجانين من الشاى بطعم الريحان نستدفىئ  
بهما فى هذا الصقيع •

– ما أجمل هذا!!



يبتسم يعقوب ثم ينهض مسرعاً إلى المطبخ فيرجع الطبيب العجوز  
بظهره إلى الخلف شاردًا في أيامه الماضية خلفه كبناء شاهق استهلك  
كل طابق فيه مرحلة من عمره، ومر كحلم ليلة قصيرة ما أسرع الأيام!  
تمر سريعًا نلهث معها ولا نتوقف •

بالأمس كان طفلًا يلهو في حقل أبيه يأكل من ثماره ينام تحت  
أشجاره ثم صار شابًا ثم ذهب إلى القاهرة ليستكمل تعليمه، ثم ذهابه  
إلى فرنسا وكيف مضت به الحياة مع حبيبة العمر التي رحلت،  
وتركت وراءها يوسف ليبدأ مرحلة جديدة في حياته مع هذا الطفل  
الذي صار رجلاً قويًا كيف مرت السنون وهو يحاول هدم السور الذي  
يحجب عنه السعادة حتى بدأ اليباس يدب فيه ولكن الله دائمًا يبهرنا  
بمفاجآته التي تظهر بترتيب محكم، كيف أتى به إلى هنا ليلتقى بهذه  
الفتاة الرائعة وتردد بداخله سؤال وماذا بعد؟

ربما أسلمتنا ضربات الحياة إلى قلق يترجمه تساؤل متواتر ماذا  
تخفى لنا الحياة؟ ولا نتعامل مع مفاجآته المبهجة بنفس العدالة فننتوقع  
ما يسعدنا •

لماذا ننسى النعم لصالح النقم؟! لماذا ينتصر التشاؤم على التفاؤل؟!

ورغم تزامم الأفكار برأس العجوز استقر بداخله سؤال بعيدًا عن  
مشاعر التفاؤل والتشاؤم معًا كان سؤالًا مجردًا تمامًا "ماذا بعد؟" •



(٥)

تخطت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل الظلام يغلف المكان إلا من ضوء مصباح خافت بجوار الأريكة التى استقر عليها يوسف مستغرقاً فى نومه وسط سكون مسيطر لا يقطعه سوى صوت بندول الساعة •

بدأ يوسف يتقلب فى فراشه بتثاقل يفرضه إجهاد فوق العادة ونوم لساعات أطول من العادة أيضاً، فتكالب عليه الاثنان مع أريكة لا تحقق الراحة الكافية ولكنها وفّت بأقل القليل مما يحتاجه من الراحة •

فتح يوسف عينيه ثم أطبقهما وتكرر ذلك حتى تمكن من النهوض والاستناد إلى الوسادة فتأمل المكان حوله محاولاً تذكر آخر ما وعاه كأنما فقد الذاكرة، وبذل جهداً لاستعادتها وقد تأمر الظلام والسكون عليه فاستنفذ وقتاً طويلاً حتى تذكر ضعفه، ووقوعه أسيراً للنوم بعد مساعدة نور التى ظهرت فجأة من جهة حجرة الجراحة فتفاجأت به مستيقظاً وتفاعلاً هو أيضاً بها فأضاءت النور واقتربت فبدأت على وجهه أمارات الحياة والصحة ولكن ملامحه تحولت إلى ضيق بسبب وجودها ولا سيما انفرادها به فى هذا السكون الذى اقتحمته مبتسمة:

– كيف حالك الآن؟

– الحمد لله •

– أسمى تقول إن الطعام والنوم أساسان لحياة الإنسان • وقد نلت قسطاً من النوم فينبغى أن تنال قسطاً من الطعام سأعده لك حالاً •

طارت نور دون أن تترك له مساحة للرفض وكأنما قررت حصاره وفرض وجودها الذى أسلمه إلى غضب عبرت عنه زفرات ضيق، ولكنه تماسك خشية تصرف أهوج وسط انفرادهما معاً فى هذا الوقت من الليل، اقتربت نور تحمل صينية عليها أطباق متنوعة من شرائح اللحم المقالية والمكرونة وشرائح الطماطم والخيار وسلطة الطحينة وكوب من الماء ووضعتها أمامه فاستقرت معدته الخاوية فلم يستطع الصمود • كان جائعاً حقاً ولم يدرك ذلك إلا حينما رأى الطعام فأقبل يتناوله دون أن ينتبه إليها وقد عبر إقباله الشديد عن جوعه ولذة الطعام معاً •

كانت نور تتأمله مبتسمة ومشفقة عليه من جوعه وقد أكد لها أنه طفل بالفعل، ويبدو أن معدته قد نالت ما يكفيها فانتبه عقله إلى نظرات نور فتوقف عن الطعام وأبعد الصينية فدهشت نور وتساءلت :

"لماذا لا تكمل طعامك؟" •

– لقد شبع •

– ولكنك تناولت القليل من الطعام •

– تناولت ما يكفينى يمكنك الصعود للنوم وسأتكفل بإعادة بقية الطعام إلى المطبخ •

ابتسمت نور ونهضت معقبة:

– لا تشغل بالك فليس لدى رغبة فى النوم لقد تفقّدت المصابين  
وخرجت لقضاء الليلة فى القراءة سأعيد الطعام وأعد لك فنجاناً من  
القهوة باللبن •

حملت نور الصينية دون أن تمهله فرصة لصدها وأسرت إلى  
المطبخ بينما استقزّه سلوكها وصمته تجاه ذلك، وبدأ يفكر كيف  
سيتخلص من وجودها؟ ومن أين لها بهذه الجرأة؟ وكان السؤال الأكثر  
إلحاحاً بداخله لماذا تغيرت معاملتها من قسوة إلى رقة؟!

ولم يتحير كثيراً فقد أقبلت حاملة صينية عليها فنجانان من القهوة  
باللبن، وضعت أحدهما أمامه ثم وضعت الصينية على المنضدة  
وجلس على المقعد المجاور له فرماها بنظرة دهشة متسائلاً:

– لماذا جلست؟! ألم تخبرينى برغبتك فى القراءة؟

– نعم فأنا أفكر فى الرواية التى أنوى قراءتها •

نهض يوسف بحركة آليه وحمل القهوة باللبن واتجه إلى السفارة ثم  
وضع الفنجان عليها وأخذ كتاباً من المكتبة حول الفتح الإسلامى  
لمصر • وبدأ يطالع الكتاب ولكنه فى حقيقة الأمر لم يكن يعى مما يقرأ  
شيئاً؛ كانت فكرة الخلاص منها تهيمن عليه وتلهيه عن الكتاب كانت  
نور تلحظه دون أن يشعر وكأنها تقرأ ما بداخله •

ابتسمت نور واتجهت إلى المكتبة وأخذت رواية فرنسية بعنوان  
"بول وفيرجينى" وجلست تطالعها فى ركن الأنتريه فلم يستطع يوسف

كبت غضبه من هذه الفتاة التى تشبه قطعة ترفض محاولات إبعاده،  
وربما تطرف بها الحال وتمسحت به فانفض متسائلاً:

– هل يليق أن تطالعى الرواية هنا؟! –

رفعت عينيها عن الرواية ورمته بهما مبتسمة فأشاح بوجهه هرباً  
فأجابت:

– أمى نائمة ولا أستطيع القراءة فى الظلام •

– ولكننا وحدنا والجميع نيام!

– أنت فى مكانك وأنا فى مكانى •

أنهت إجابتها الموقف الذى بدا أشبه بفصل قوات العدوان عن  
المقاومة وإن كان الأمر لا يخلو من مناوشات تثيرها نظراتها القوية  
الجريئة، فأدار ظهره وعاد إلى كتابه وأولاه كل اهتمامه مستسلماً،  
أثارها الانتصار عليه وقهره فأشعل بداخلها جذوة نشاط فعلى الرغم  
من براعته فى إقامة السدود فقد برعت أكثر منه فى هدمها  
وإقامة الجسور فأنعش النصر عقلها فاستغرقت مع الرواية حتى مرت  
ساعتان تقريباً وبدأ الشروق يشق نوره قلب الظلام، فانفضت وتمطت  
تحاول استعادة نشاطها ثم تركت الرواية على المنضدة وأسرعت نحو  
الباب لتخرج، ثم تراجعت خطوة والتفتت إليه ترمقه بابتسامة وهو  
منهمك فى القراءة ثم اقتربت منه وقالت:

– الشروق بهجة للعين والقلب • ألا تحب أن تنعم بمنظره الرائع؟

– لا فلتنعمى وحدك •

ابتسمت نور ثم تركته وخرجت دون أن تغلق الباب وبدأ الهواء يدفعه فانفتح محدثاً صوتاً أزعجه، فانتفض غضباً واقترب ليغلقه ولكنه فوجئ بها وقد سارت بعيداً تدور حول نفسها مترقصة مع أنسام الجو مغمضة العينين مستغرقة في عالم آخر، فبدت كالفراشة الناعمة تنثر البهجة في القلب مع رائحة نسيم الشروق الزكية، ومنظره الرائع فتحول المشهد إلى لوحة تحاكي اللوحات التي كان يشاهدها في إنجلترا فتخلب الأبواب بحسنها، فابتسم يوسف معجباً بما يرى ولكنه سريعاً ما تجمدت ملامحه وتنهّد غضباً مؤنباً نفسه على خيانتها لمبادئه وكيف انصاع إليها وإلى أين تأخذه هذه (٠٠٠) لم يجد وصفاً لها في تلك اللحظة أهي قطة رقيقة أم حيّة ناعمة تتحين الفرصة لتنتقض عليه وتذيقه ما يتقى طوال سنوات عمره؟

على الفور دفع الباب بحدّة أيقظت نور من استرخائها فزعة فأسرعت نحو الباب وطرقته ففتح يوسف فواجهته نور ودفعت يده ودخلت، فأغلق الباب بغضب شديد فلم يعد يحتمل هذا الحصار الذي يضيق عليه الخناق، ولا يقوى على الفكّ منه وزاد استقزازه اقترابها منه ونظرته المركزة نحوه وهى تتساءل:

– لماذا أغلقت الباب بهذا العنف؟!

– ولماذا تركته مفتوحاً؟!

– أنساني مشهد الشروق البديع أن أغلقه •

ركز يوسف نظره إلى وجهها بعينين تشعان شرراً وعقب:

– إياك أن يلقىك خيالك في أمواجي فلن تجدى شاطئاً تلوذين به ولا  
صخرة تحتمين بها •

– أتوقع أن تنقذني إن حدث •

– إن براءتك تخفى عُهرًا يفوق تاريخ العهر على مر الزمان •

وقعت عبارته عليها وقوع صخرة ثقيلة على رأس تفاجأ بها ففقدت  
توازنها وسقطت مغشياً عليها ففزع يوسف واقترب منها ممسكاً  
برسغها ليطمئن على النبض الذي بدا ضعيفاً بيد باردة هربت منها  
الدماء فأصيب بذعر شديد وتساءل ماذا يفعل؟ وكيف فقد عقله ليطعنها  
هكذا؟! •



(٦)

رقدت نور على فراشها جثة جاحظة العينين، لاتعى من حولها شيئاً شاردة، شحب وجهها فاستحال لونها الوردى إلى صفرة مخيفة أفرعت سارة التي انتحبت لما أصاب ابنتها فجأة ويعقوب على يسارها قد أصابه ذهول شديد لما حل بالفتاة بعد أن تحسنت حالتها، وصارت ورده متفتحة متجاوزة محنتها بينما وقف الطبيب العجوز شاردًا أمامها يفكر وقد توقفت شكوكه نحو يوسف الذى يعلمه جيدًا، ويدرك قدرته على انتزاع الحياة من أى امرأة مهما كانت قوتها ولكنه قرر أن يلقي بالسبب فى اتجاه آخر أمام يعقوب وسارة فقال:

"لعل مساعدة يوسف فى رعاية المصابين أعادت إليها ذكرى الشهيدان دانيال وشريف".

شردت سارة فى كلامه ثم عقبته بحزم:

– إن كان هذا هو السبب فسأمنعها عن ذلك تمامًا.

– الهروب ليس حلاً بل عليها المواجهة وبمرور الوقت ستتجاوز أزمته.

مسح يعقوب على رأس نور ورماها بنظرة حانية ثم قبل رأسها متنهذاً وكان الحديث استدعى آلامه فشعر مختار بالذنب لما حل بالرجل المكلوم فقرّر أن يصوب خطأه فاستطرد:

"لابد أن نتركها تفرغ حزنها حتى تهدأ وسأطمئن عليها بعد ذلك".

نظرت إليه سارة نظرة دهشة ثم عقبته باستنكار:



- لا أستطيع تركها وهى على هذه الحالة يا دكتور •
- إن مراقبتك لها ربما تؤثر عليك وليس هذا لصالحها علينا أن نحكم عقلاً •
- الدكتور مختار أدرى بعمله منا فلنخرج الآن فلا جدوى من بقائنا يا سارة •
- نهض يعقوب وأشار إلى سارة بالنهوض فنهضت مستسلمة تبدو غير مقتنعة وصاحبهما الدكتور مختار إلى الخارج، وقد أيقن أن يوسف هو السبب فحينما نطق باسمه متعمداً تبدلت ملامح نور وقطبت جبينها، وألقت نظرة أسى فتملكه غضب شديد ولكنه حاول التماسك أثناء سيره مع السيدة وأخيها حتى هبطا إلى أسفل فاستقزه وجه سارة القلق الحزين فتنهد قائلاً:
- "عليك أن تشغلي نفسك يا سيدتى حتى تتجنبى التفكير فى الأمر" •
- لا أستطيع يا دكتور قلبى يتمزق قلقاً على صغيرتى •
- إذن أعدى لنا إفطاراً شهياً من صنع يديك •
- هزت سارة رأسها قبولاً مستسلمة وذهبت إلى المطبخ بينما انخرط الرجلان فى حديث الحرب وما يدور فيها وأعقبا ذلك بتشغيل المذياع •
- حبس يوسف نفسه طواعية بحجرته بعد أن حمل نور إلى حجرتها واستغل انشغال والدتها وخالها فيما حدث لها كى يهرب من أى سؤال يوجهانه إليه، لأول مرة يشعر بالندم لأنه أوجع امرأة، كان ذلك فى

الماضى يحدث بقلبه نشوى وسعادة كمن انتصر فى معركة ولكنه الآن يشعر بتأنيب الضمير فلم يأتى يا ترى؟!!

يوسف لا يدرى لماذا يتألم هذه المرة؟ أهو الخوف من مواجهة عمه أم شعوره بالذنب تجاه سارة التى تحنو عليه كأنه ولدها؟ أم أن الأمر يتعلق بنور وإن كان كذلك فلماذا؟! فمهما كانت المبررات فالثابت لديه الآن أنه ساخط على نفسه وعلى لسانه القاتل على هذا النحو •

قطع شرود يوسف دخول نبيل الذى كان قد عاد فى الصباح وقرر أن يحصل على حمام دافئ وحينما وقعت عيناه على يوسف ألقى المنشقة فى وجهه، فالتقطها يوسف ذاهلاً فأجابه نبيل بنظرة غضب، فأشاح يوسف بوجهه فعبر نبيل عن غضبه بقوله:

– من أى غابة جئت أيها المفترس؟!!

صدمت العبارة يوسف فألجمته وعجز عن الرد مكتفياً بنظرة دهشة واستنكار فتمادى نبيل موبخاً: "بماذا تفوهت من رصاصات أصبت بها هذه المسكينة؟!!" •

– لماذا تتهمنى بذلك؟!!

– لأنى أعلمك جيداً إن إيذاء النساء سعادة لا يضاهيها سعادة لديك •

– أتجرح صديق العمر من أجلها؟!!

– كانت حجتك فى الماضى أنهن عاهرات فما حجتك الآن؟!!

ارتقى يوسف على الفراش متثاقلاً لا يقوى على الوقوف مغمضاً  
عينيه فى أسى شديد عاجزاً عن الرد أو الدفاع عن نفسه فرمقه نبيل  
بنظرة غاضبة قائلاً:

– لقد تحولت إلى سيارة بلا فرامل وعما قريب تسحق أقرب الناس  
إليك ثم تنقلب هالِكًا محترقًا •

خرج نبيل مسرعاً ولم يترك ليوسف سبيلاً إلى الرد بينما بدا يوسف  
إنساناً يائساً من نفسه فنهض متثاقلاً واتجه إلى المرأة؛ يتأمل وجهه فلم  
يحتمل النظر إلى نفسه لقد أفرعه حديث نبيل أيتحول حقاً فى النهاية  
إلى قاتل لكل من حوله ثم يُفنى ذاته بنفسه؟! أم أن نبيل أصابه الشطط  
بسبب ما حل بنور فراح يخيفه ليتوقف عن إيذائها؟

ربما يجانبه الصواب ولكنه أصاب فى كونه لا يميز بين الناس •  
نور ليست كالنساء اللاتى تعامل معهن ربما فسّر أفعالها تفسيراً خاطئاً  
نابعاً من رؤية تأصلت بداخله فلم يصدر منها قول غير مهذب أو  
جرئ، بل على النقيض لقد كانت حنونة معه رغم قسوته عطوفة رغم  
جفائه •

يكن الخطأ فى تفكيره هو ولكنه لا يستطيع تجاوز ما بداخله لقد  
أقامت السنون عليه بنياناً قوياً لا يمكن هدمه ثم استئصال ما خفى تحته  
فما العمل إذن؟

رغم تزامم الأفكار بداخله إلا أنه قد تيقن من جريمته التى لا  
يمحوها سوى اعتذار حقيقى دون مكابرة، فاتخذ قراره بحسم وخرج  
متجهاً إلى حجرتها بعد أن سمع أصوات الجميع يغادرونها •

وقف أمام الحجرة تتقدم يده نحو الباب وتراجع كالموج المتلاطم على شاطئ • تمزقه الحيرة ليس لأنه يتكبر على الاعتذار، ولكنه لا يعرف كيف يواجهها؟! ماذا سيقول؟! كيف لها أن تنسى ما تلفظ به من كلام تطير فيه الرقاب ويعاقب عليه القانون؟! ولكنه فى النهاية استجمع شجاعته وقرر مواجهة الموقف وطرق الباب ولكنه لم يظفر بإجابة •

قرر يوسف أن يواجه الموقف ففتح الباب ودخل فوجدها على حالة مزرية زادت من سخطه على نفسه السوداء، وألجمه منظرها للحظات ثم اقترب منها كطفل أخطأ ويحاول استدرا عطف والدته بصوت نادم قال: "أنا أسف أرجوك اغفرى لى ما صدر منى" •

انفجرت نور باكية وأشاحت بوجهها بعيداً فازداد ألمه وشعر بعظم ما فعل فاستطرد يقول:

– سامحنى أرجوك إن ما فعلته يؤلمنى ألماً يفوق ما مر بى من آلام ولا أعدك أننى أستطيع ردع نفسى لقد أدركت أن مرضها مزمن لا علاج له، مطرك العذب لن ينبت قفرى ستدوين بينما أظل جامداً يابساً أرجوك لا تقتربى منى لأجلك لا لأجلى أنا" •

أغمض يوسف عينيه حزناً متألماً ثم أطرق برأسه خجلاً وخرج وتركها لتنهمر دموعها شلالات متتابعة يعلو صدرها ويهبط ككرة مطاط تضربها إلى أسفل بلا توقف •

استمر نحيب نور لفترة ولكنها فى لحظة توقفت عند تذكر عباراته التى أوجعتها وملأتها يأساً إن الكلام يبدو منه معنى ظاهرياً، ولكن

بتأمله ربما يمنحها معانٍ خفية لقد منحها عبارته الأمل الخفى الذى لم تنبئ به لاصطدامها بقوله "لا تقتربى منى" هذا ما بدا من كلامه ولكن لماذا يريد ذلك؟ يريده لأجلها لا لأجله إنه يدرك حقيقة مرضه، إنه يتألم لأول مرة من أجل امرأة وبدأ الأمل يشع نور الحياة بداخلها يحيل تنقل جسد ها خفة تشعر ها برغبة فى الطيران لقد نجحت ولكنها تتعجل النتيجة •

وسرعان ما تبدل الأمل إلى يأس وخوف سارع من دقات قلبها أكون ما وصلت إليه وهماً نابغاً من رغبة تتملكها فتصور لها الهزيمة نصراً، وتزين لها طريقاً نهايته الهلاك إن ضرباته الموجعة فى الصميم، وإن كان يتألم ويعترف بجريمته فهذا لا يعنى استعدادة إلى التغيير •

النفوس تتغير بإرادتها هى لا بإرادة من تمنوا لها ذلك، وتملكها اليأس ثانية فتثاقلت وارتمت بظهرها إلى الوراء تستند على الوسادة وبدأت تتساءل هل قيمة الحياة فى النجاح أم فى المحاولة النجاح لحظة واحدة والمحاولات لحظات، فهى الأطول وبالتالى الأربح ولكن النجاح لحظة بألف لحظة وتصارع عقلها حول الاثنين أيهما يربح على حساب الآخر؟! •

عاد الأمل ثانية حينما تذكرت أن الله لم يضع جهداً هباءً وإن كان التغيير طفيفاً فهذه ومضة أمل لِمَاذا تطفئها؟! أنتوقف فى منتصف الطريق؟! إن السبب يكمن فى تسرعها وربما كان أيضاً لحظة انتصار وقتية خادعة، عليها ألا يخذعها مستقبلاً أى نصر تحققه حتى لا تقف فى منتصف الطريق فالنصر الحقيقى حينما يصرح لها بما تريده وإلا

سيكون خداعًا ولا ضرر من المحاولة فما يخيفها منه ردود فعله، فعلها بالصبر فلن تجنى شيئًا إن يُئست ولو حققت ما تريد فهي السعادة التي تستحق المجازفة وإن لم يكتب لها ما تريد فلا ضرر لقد نالها الألم من قبل، وستملك مناعة ضده حتمًا فتقوى نفسها كما أن العذاب الذي كابدته من مقاومته لا ينبغي أن يذهب هباءً •



(٧)

"قوات الكوماندوز الفرنسية تحاول التقدم إلى بورسعيد" •

بغضب عبر قائد كتيبة الحرس الوطنى عن سخطه لمحاولة  
الفرنسيين تمديد المساحة التى يحتلونها وقد تمركزوا منذ بدء العدوان  
فى بورفؤاد •

بدا الغضب على وجوه شباب الكتيبة الذين لم يزد عددهم عن مائة  
وعشرين مقاتلاً شاباً يحملون بنادق نصف آلية روسية الصنع وبنادق  
فردية وعدداً من القنابل اليدوية •

كان من بينهم شاب بالسنة النهائية بكلية الحقوق جامعة القاهرة ويدعى  
"جواد حسنى" الذى تقدم نحو القائد وعقب قائلاً:

"بالتأكيد يريدون دعم بريطانيا العظمى التى لا تقوى على صد مقاومة  
بورسعيد" •

– علينا وقف هذه الكتيبة عن التقدم •

– أرواحنا فداء للوطن •

– هذه الكتيبة ذات تاريخ أسود دموى فى مقاومة الثورة الجزائرية  
ويقودها جنرال متطرف يُدعى "لويان" معروف بكرهه للعرب  
وتعصبه لفرنسا •

– لو واجهنا هولاء فلن تهتز شعرة واحدة منا •

انطلق الفدائيون لمواجهة الفرنسيين وقد تحصنوا داخل المنازل ودارت معركة عنيفة كبدت الفرنسيين خسائر فادحة باعتراف قائدهم.

بعد انتهاء المعركة جاءت الطائرات لتحمل قتلى فرنسا واستطاع من بقى حيًا من الفدائيين العودة إلى كتيبتهم بينما قامت قوات الكتيبة الفرنسية بتفتيش المنازل بحثًا عن الفدائيين وقد اعترف لوبان أنهم عثروا على جثث الشهداء وبأيديهم البنادق خالية تمامًا من الذخيرة لقد استبسلوا دفاعًا عن الوطن إلى آخر طلقة ونقطة دم.

فى مساء نفس اليوم السادس عشر من نوفمبر كان "جواد حسنى" يقبع داخل كتيبته تتصارع الأفكار برأسه . ماذا يفعل ليطفئ النيران المشتعلة بداخله؟ فلا يستطيع الانتظار إلى الصباح ليشفى غليله منهم ولم يطل صراعه بداخله لقد حسم أمره، وقرر التسلّل من الكتيبة دون أن يشعر به أحد، وعلى الفور خرج لا يرافقه سوى بندقيته النصف آلية التى لا توازى أسلحة الفرنسيين فى حدائتها وقوتها ومعه أيضًا بعض القنابل اليدوية، وانطلق إلى معسكر الفرنسيين واتخذ لنفسه مكانًا مناسبًا يُمكنه من الاختباء وإطلاق النيران عليهم، وبدأ بالفعل يسدد طلقات مدفعه نحوهم بقوة يرافقها بين الحين والآخر القنابل اليدوية فأصيبت الكتيبة الفرنسية بالذعر، واعتقدت أنها تواجه كتيبة كاملة . بدأ الفرنسيون يسددون نيرانهم بوحشية فأصابوه ولكنه لم يتوقف عن تسديد نيران بندقيته رغم نزيفه الشديد حتى أنهكت قواه وسقط مغشيًا عليه .

حينما توقف مدفع جواد تقدم الفرنسيون بحذر نحو مصدر الطلقات



وكانت المفاجأة الكتيبة التي تقاتلهم لاتزيد على شاب واحد فأصابهم  
الذهول ولكن القوة ليست عدداً وإنما إيمان وصبر كما قال الله فى كتابه  
العزير: "إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ" .

تم اقتياد جواد إلى معسكر الأسرى وتم استجوابه وحينما رفض  
التعاون معهم تعرض لأقسى أنواع التعذيب، وبعدها قرر أن يسجل  
قصته بدمائه الزكية على جدران سجنه فكتب يقول:

" اسمى "جواد" طالب بكلية الحقوق فوجئت بالغرباء يقذفون أرضى  
بالقنابل فنهضت لنصرتة وتلبية ندائه ٠٠٠ والحمد لله شفيت غليلى فى  
أعداء البشرية ، وأنا الآن سجين وجرحى ينزف بالدماء ٠٠٠ أنا هنا  
فى معسكر الأعداء أتحمل أقسى أنواع التعذيب والإرهاب ٠٠٠ ولكن  
يا ترى هل سأعيش؟ هل سأرى مصر حرة مستقلة؟ ليس المهم أن  
أعيش المهم أن تنتصر مصر ويُهزم الأعداء" .

حينما استبد اليأس بالفرنسيين من تعاون جواد معهم قرروا إخماد  
أنفاسه إلى الأبد فأطلقوا عليه الرصاص فى الثانى من ديسمبر .

اعترف لوبان أن ما شهده من مقاومة هؤلاء الشباب كان يفوق ما  
توقعه والذى دفعه إلى تأدية التحية العسكرية وإطلاق الرصاص فى  
الهواء تحية للشهداء . لقد رحل لوبان وقواته من مصر كما تمنى  
"جواد" وبقيت بطولته التى سطرها بدمائه الزكية شاهداً على عظمة  
مصر وشعبها الأبى .



## (٨)

انهماك يوسف فى إجراء جراحة لأحد المصابين تساعد نور بصمت قررت أن تكون ملازمة له ترعاه وتعد له طعامه وفنجان القهوة باللبن دون أن تتفوه بكلمة واحدة، وقد اعتاد يوسف وجودها وما تقدمه له والعادة تخترق الدم وتجري معه.

لقد وجد لذة فى مشروبه وطعامه من يدها لا يدرى لها مبرراً، ولكن صمتها التام واختفاءها فور فراغها من رعاية المصابين أو خدمته استفزته، هى معه وغائبة عنه فأكلته الحيرة أين تقف منه فى حقيقة الأمر؟ ولكن السؤال الذى قفز فجأة لينهى هذا الجدل بداخله ويستحوذ على انتباهه لماذا يشغله ذلك فى الأساس؟! منذ متى يشغله حضور امرأة أو غيابها؟

بعد الفراغ من الجراحة خرجت نور فوراً فتبعها يوسف وقد تملك الإنهاك منهما بعد قضاء يوم كامل فى رعاية الجرحى، وهما منتصف الليل يحل عليهما ومازالا يعملان لذا قررت نور أن تجدد طاقتها باستنشاق نسيم الأزهار الزكى وأسرت إلى الحديقة وأغلقت الباب خلفها.

حانت من يوسف نظرة نحو الباب الذى حال بينه وبينها وتملكته الدهشة التى أيقظت قواه ونفضت عنه غبار التعب فركز عينيه على الباب، فاتجه إليه دون إرادة منه وفتحه وسار تجاهها فرآها تستلقى على أرجوحة الحديقة مسندة رأسها إلى حافة مسندها، مغمضة العينين منتشية برائحة الزهور الزكية مستغرقة فى عالم آخر، وفجأة فتحت

عينها ففوجئت به يتأملها من خلفها بنظرة إعجاب لم يُخفها مع مفاجأتها له بفتح عينها، ثم جمدت نظراته محاولاً إخفاء ما بداخله ولكنه ابتسم رغماً عنه حينما وجدها قد ارتجفت لرؤيته وتساءل:

– هل أفزعتك؟

– لا ولكنى لم أتوقع رؤية أحد هنا.

– الجو هنا بارد جداً وربما أصابك بالمرض.

– على النقيض إنه منعش.

أعارها يوسف نظرة إعجاب صدرت منه دون أن يشعر فأشاحت بوجهها فتملكه الغضب وهمّ بالكلام ولكنه توقف حين لاح شبح فى الظلام، فتحسس مسدسه الذى قبع بجيبه منذ بدء الحرب وهمّ بإخراجه ولكنه تراجع عندما تبين له أنه نبيل الذى اختفى منذ يومين وها هو يعود فى هذا الوقت المتأخر من الليل، وارتسمت الدهشة على وجهه لهذا المشهد السينمائى لروميو وجولييت بورسعيد، فركز نظرات دهشته نحو يوسف الذى بادر بالتساؤل هرباً من نظراته:

– لماذا عدت وحدك يا نبيل؟

– سيلحق بى شريف بعد قليل.

– ما الأخبار؟

– لقد نجحت عملية الليلة.

– أى عملية يا دكتور نبيل؟

– أَسَرَ الإنجليز أحد الفدائيين ويدعى "محمد مهران" فى الخامس من نوفمبر وقمنا بتحريره •

– وكيف أسروه يا نبيل؟

– هو فدائى تابع لقوات الحرس الوطنى تسبب فى ضياع عينى أحد ضباط الإنجليز أثناء المقاومة لإلقائه قنبلة تجاه الحفرة التى اختبأ بها الضابط الإنجليزى، فحاصروه ثم ألقوا القبض عليه واقتادوه إلى قبرص وحينما رفض التعاون معهم حكموا عليه باقتلاع قرنية عينيه لصالح الضابط الذى أصابه، وليكون عبرة لأهل بورسعيد ثم عادوا به إلى هنا وألقوه فى إحدى مستشفياتهم، وتمكننا بفضل الله من تحريره الليلة •

نهضت نور فزعة أثناء حديث نبيل وأخفت وجهها بكفيها لا تقوى على التنفس ثم صرخت:

– ماذا ؟! أتقول اقتلعوا عينيه؟! فليكن الله فى عونہ •

– ليكن الله فى عون شعبنا الذى يجود بزهرة شبابه بصبر ورضا •

عبرت نظرات غضب يوسف تجاه نبيل عن إشفاقه على نور مما شعرت به تجاه ما يرويه نبيل، فاستولت الدهشة على نبيل وبخاصة حينما ربت يوسف على كتف نور دون أن يشعر بما يفعل مهدئاً لها:

– اهدئى يا نور؛ إنها الحرب •

– إنها عين الوحشية ما هذا العالم؟! •

انتفضت نور واستأذنتهما وأسرت إلى المنزل ودخلت بينما لم يسيطر يوسف على نظرات غضبه نحو نبيل لرحيلها وافتراقها عنه بعد أن حانت الفرصة للقاء والحديث، ثم ترك نبيل مسرعاً نحو المنزل فرفع نبيل حاجبيه عجباً، وأسرع خلفه لم يكن نبيل من النوع الذى يخترن بداخله إحساساً أو تساؤلاً، لذا بادريوسف بالسؤال:

– أتشفق عليها يا يوسف؟!

– ألم تلحظ أن حديثك مؤلم؟!

– مؤلم لمن؟!

– لقد صرت سخيلاً مستفزاً •

– الاستفزاز يُسقِطُ عنك القناع أيها العاشق •

– ماذا؟!

– لماذا تخدع نفسك ولماذا تراوغ؟!

– اسمعنى جيداً، إنها تنال احترامى وتقديرى فقط فلا تطيح بك أوهامك إلى أبعد من ذلك •

– كان إحجامك عن الحب فى الماضى مصدره احتقار المرأة والآن ظهرت من تنال تقديرك فلماذا الإحجام؟!

أشاح يوسف بوجهه رفضاً واستنكاراً فاقترب نبيل بوجه باسم وبلهجة حانية متسائلاً:

– أتوصد قلبك فى وجه السعادة؟! أتؤثر الظلام حين يلوح النور؟!

– ما تراه نورًا أراه نارًا ولا أريد أن أحترق •  
– أنت تحترق بالفعل وتتكبر كبيرًا ولكن ليس كل حريق دمار فاحترق  
عود الطيب يفوح منه رائحة تبهج النفوس • لا تضيع الفرصة وإلا  
نال منك الندم وما أصعبه على النفس!  
– كفى لا تسترسل فى الحديث •

تنهد نبيل تنهيدة يأس ثم اتجه إلى المطبخ ليعد لنفسه فنجانًا من  
الشأى •

جلس يوسف تتقاذفه الحيرة كالكرة يلعب بها الأطفال شاردًا فى  
حديث نبيل تتمزق نفسه بين تكذيبه وتصديقه ولكنه لم يحسم أمره  
مراوغة لنفسه، ثم ألقى نظرة نحو السلم الذى حجبها عنه •

كانت نور قد تأثرت بقوة فوقفت فى الشرفة لتمسح عن قلبها آثار  
الألم مما رواه نبيل، إشفافًا على هذا المسكين ولكنها سرعان ما  
وبخت نفسها على هذا الوصف فليس مسكينًا؛ إنه بطل والبطولة نفيسة  
الثمن والقيمة •

لم يمنعها ذلك من محاولة استشعار ألمه فأغمضت عينيها وغطتهما  
بكفيها إمعانًا فى توفير حالة الظلام التام فشبهت شهقة إشفاق على ما  
سيعانيه هذا البطل ما تبقى له من عمر فى هذه الحياة، وتساءلت :  
"كيف تهون الحياة على هؤلاء الأبطال بهذه البساطة حبًا فى  
مصر؟! " •

كان ما قرأته عن تضحيات المحبين فى سبيل من يحبون يبدو أحياناً خيالاً أو استثناءً ولكن ما شهدته فى هذه الحرب الشرسة جعلها تدرك أن الفدائى أكثر العشاق صدقاً لأنه يعيش وطناً بأكمله، وجود نفسه من أجله بصمت دون أن يشعر به أحد وبعد قليل ربما ينساه الناس ويتحول إلى ذكرى يتذكرونها مرة فى العام ثم يطويه النسيان ولكن البطل لا وجود بنفسه لثمن يرجوه أو تكريم ينتظره؛ إنه وجود نفسه مجرداً من أى هوى أو مصلحة يطمح إليها فما أعظم هؤلاء وما أنبلهم!

أفاقت نور من شرودها وفتحت عينيها فلفت انتباهها شبح يتحرك من خلف شجرة إلى أخرى فى الظلام ففزعت وركزت نظرها فبدا المكان خالياً لا يتضح هناك حقاً شخص أم لا نظراً لسيطرة الظلام على المكان فالتفتت لتضى نور الشرفة، ثم نظرت إلى الحديقة فلم تجد أحداً مطلقاً رغم يقينها بوجود غريب بالحديقة فأسرت تهبط السلم صارخة "غريب فى الحديقة" •

فواجهها يوسف وشريف الذى كان قد عاد منذ قليل فتساءل:

– أى غريب يا نور؟!

– لم أتبين ملامحه ولكنه بالحديقة •

– لعلك تقصديننى أنا فقد دخلت قبل أن تهبطى بثوانٍ قليلة •

– هل كنت تسير خلف الأشجار؟

– الأشجار! لا لم يحدث ذلك •

أصاب يوسف القلق لارتجافها رعباً فعقب:

– علينا إذن أن نقطع الحديقة بحثاً عن هذا الغريب •

اقترب نبيل الذى تابع الحوار وهو على باب المطبخ حاملاً كوب الشاي ثم قال:

– ربما كان الخوف مما رويته لك يا نور قد هيا لك ذلك •

– لا ، أنا واثقة مما رأيت وليست هذه هى المرة الأولى •

– "ماذا هل حدث ذلك من قبل؟" • بدهشة تساءل نبيل •

– نعم وتصورته خيالاً أو وهماً •

"هيا يا نبيل فلا تضيع الوقت فى الحديث" • بحسم عقب يوسف •

خرج الرجال الثلاث وقد انتشروا فى الحديقة يبحثون عن هذا الغريب بينما وقفت نور تتابعهم من فتحة باب المنزل وفجأة صرخت نور مغشياً عليها يسيل الدم من منتصف رأسها جراء ضربة على رأسها من الخلف •





(٩)

"هل فقدت عقلك؟".

بدهشة كادت تقتلع ملامح يوسف أجاب على اتهام نبيل له بإصابة نور على رأسها هذه الإصابة الشديدة التي أعقبها نزيف شديد جعلها على حافة الموت، لا يدرى أحد أعود إلى الحياة أم تفارقها إلى الأبد؟  
لم يعبأ نبيل بغضب صديقه وركز عينيه بنظرات اتهام قوية حملها إلى عيني يوسف الذى استشاط غضباً ظاهره اتهام نبيل وباطنه الفزع على ما أصاب نور.

تماسك يوسف وتحدث إلى صديقه بلين واستعطاف:

– هل أصابك الشطط إلى هذا الحد؟! ألم تعد تعرفنى؟!

– لقد فعلت ذلك بدافع شريف.

– ماذا؟!

– ربما أردت أن تقترب منها وتنال عطفها برعايتها.

– إن الشيطان يعبث برأسك فيثير الوسوس الكاذبة بداخلك؛ إنها تلاصقنى دائماً.

يدخل مختار ثم يغلق الباب خلفه ويتأملهما ملياً ثم يتساءل:

– لماذا يرتفع صوتكما هكذا أنتشاجران؟!

– نبيل يتهمنى بإصابة نور ودافعى اجتذاب انتباهها وحبها.

- كلام لا يصدقه عقل •
- الحمد لله •
- ولكنك فعلت ذلك لسبب آخر •
- ماذا؟! •
- لقد تمكن أمر الخلاص منها من عقلك الباطن ففعلت ما فعلت دون وعي •
- عقدت الدهشة لسان يوسف الذى فغر فمه وجحظت عيناه ثم أجاب على اتهام عمه ساخرًا:
- لقد نسيت أننى قمت بتتويم مغناطيسى لنفسى قبل أن أقدم على هذه الجريمة •
- تغاضياً عن سخريتك هذا هو التفسير الوحيد •
- أنتما تدفعان بى إلى الجنون •
- لقد تركتنا يا يوسف بمجرد خروجنا إلى الحديقة بدافع أن ننتشر فيها •
- ثم ماذا يا نبيل؟
- أشاح نبيل بوجهه غضبًا فاستطرد يوسف ملقياً قنبلة أخرى:
- ما رأيكما أن هذا الاتهام يناسب "نور"؟
- أُنْتُصْتُ إلى كلامك جيدًا يا ولدى؟! •

– نعم أرادت استعطافى واستقطابى فأصابته نفسها ولم تتصور أن يحدث لها ما حدث •

– هذا هو حديث الجنون بالفعل يا يوسف •

– لقد أرادت إقناعنا بقوة بوجود غريب فى الحديقة •

تبادل مختار ونبيل نظرات رفض لما يقول وأعقبها مختار بنظرة  
إشفاق استفزت يوسف

فكاد ينفجر محدثاً زفيراً قوياً ثم خرج ودفع الباب خلفه بغضب كاد  
يقتله •

ارتمى العجوز على السرير متثاقلاً بأسى فربت نبيل على كتفه حائياً  
ثم قبل كتفه ثم رأسه وابتسم ابتسامة طمأنينة ملطفاً:

– هون عليك يا عمى •

– يوسف يضيع يا نبيل؛ لقد بالغت فى تفاؤلى بالظروف الرائعة التى  
أجبرته على ملازمتها وتصورت أنها ستجبره على تغيير قناعاته وها  
هى النتيجة تصدمنى •

– لا تنسَ يا عمى أن كل ما وجهناه له من اتهامات لا يزيد على شكوك  
وظنون •

– أنت تريد تهدئة نفسى التى تأبى الطمأنينة • فليترفق الله بى ولا  
يفجعنى فيه •



## (١٠)

ثبت يوسف عينيه لاتطبقان إلا نادراً يملأهما حزن عميق نحو نور  
التي غابت عن الوعي يتوسط رأسها جرح يغطيه القطن والشاش  
يتملكها ضعف شديد هو في حقيقته ما يمنحها قوة وسيطرة على هذا  
الجبل الذى بدأ يتفتت، وتسقط صخوره تُطيرها رياح الأحداث صعوداً  
وهبوطاً اقترب يوسف وجلس على حافة السرير مثبناً نظرات خوف  
وقلق نحو نور لم يعدها في نفسه من قبل، لكنه تحول إلى طفل  
مذعور من مجرد التفكير في رحيل أمه عن دنياه.

لقد نذفت نور دماءً كثيرة حتى وصل الرجال وحملها يوسف إلى  
أعلى فلم ينتبه إليها أحد ممن ينامون بالطابق العلوى ولا من كانوا  
بالحديقة، ولا يوجد من يطابقها في فصيلة دمها النادرة وهى حلقة في  
سلسلة ندرتها بين من رأهن من النساء والآن ما يصيبه بالرعب  
والفزع بياض شفتيها وشحوب وجهها وأنفاسها البطيئة.

غرق يوسف فى ما مر عليهما منذ أول لحظة التقاها وحتى هذه اللحظة  
الحرجة وكيف تتابعت الأحداث من شد وجذب وعاصفة ثم سكون يكاد  
يسكن الآن معه قلبه ونبضاته.

اختزنت عيناه دموعاً حبسها بالقوة فلم تعهد عيناه الدموع من قبل  
ولكن دمعته خائنه وانفلتت لتتحدّر على خده فلسعته سخونتها كلسع مياه  
الشمعة المشتعلة، فأطلق سراح دموعه فانهمرت ومعها دقاته كالسيل  
المندفع بلا توقف فنهض واقترب من الشاباك ونظر إلى الفضاء مناجياً  
الله:

"يارب إن إرادتك نافذة علىّ وعلى أعتى المخلوقات وإن خدعتهم قوتهم فلا قوى سواك فترفق بى وارحمنى • إن قدّرت لها الرحيل فاجمعنى بها فلن أقوى على البقاء بدونها" •

التفت يوسف يتأملها ثم اقترب بخطوات وثيدة يخاطبها بدموع غمرت وجهه:

" نور سأخبرك بما لن تسمعيه وما زالت نفسى تأبى أن تعلميه، أنا أحبك ولم أعرف الحب من قبل ولم يطف بخلدى مجرد ذكره أو تصويره يطوف بحياتى • لا ترحلى وتتركىنى " •

بدأت رأس نور تتحرك ببطء يمينًا ويسارًا تفتح عينيها بالكاد تحاول أن تنطق فتعجز كمن يلتقط أنفاسه الأخيرة، فأطبق الرعب على يوسف فعلا صدره وهبط تبعًا لقدرتها على المقاومة أو الاستسلام لضعفها حتى مالت رأسها نحوه واستقرت نظراتها نحو عينيهِ فابتسم ثم هتف باكياً: "نور أنت بخير؟ أجيبينى أرجوك" •

ابتسمت نور فاقترب يوسف وأحاط وجهها بكفيه مبتسمًا فغمرته بنظرة حنين وشوق من افتقد عزيزًا ثم استعاده بعد زمن طويل فأمسكت يده وهى تتأمله قائلة:

"لا أصدق ما سمعته منك منذ قليل لقد استبسلت أنفاسى من أجل الحياة أحقًا ما سمعت؟" •

أفلت يوسف وجهها من بين يديه ويده من يديها وتبدلت ملامحه إلى جمودها المعهود وعقب:

"لا أفهم ما تقصدين" •

– ألا تتذكر ما قلت وأنا فى الغيبوبة؟

– وهل يسع الموتى ما يتفوه به الأحياء؟! •

– الموتى!

– كنت تفتعلين الموت إذن يا لك من ممثلة بارعة! أنا لا أتذكر شيئاً •

نهض يوسف غاضباً وتركها فى ذهول شديد •

دارت التساؤلات برأس نور تزيدها ألماً على ألم رأسها:

"لماذا ينكر؟! لقد سمعته حقاً، أثار الدموع بادية على وجهه فلماذا

يصر على الإنكار؟!!" •

إنها على يقين الآن أن نفسه مرآة لما بنفسها مهما أنكر ولكن كيف  
يتيسر لها تحطيم آخر حصونه من العناد ليعترف بما يتصارع بداخله  
من حب، وسارت بها الأفكار لتستقر على سؤال آخر لا يقل أهمية عما  
يؤرقها الآن "من فعل بها ذلك؟! من حاول قتلها؟!!" •

لم تظفر نور بإجابة ولكنها بالطبع ممتنة له فهو من حمل يوسف  
بقوة على الاعتراف بحبه لها وإن تراجع فهذا لا ينفى الحقيقة التى  
تأكدت لها الآن •

دخلت سارة وما إن رأت نور حتى احتضنتها يغمر وجهها دموع  
غزيرة وفرحة عارمة لنجاة وحيدتها وقرة عينها فغاصت نور فى

صدر أمها، تحفل نفسها بالأمل الصادر من تدابير القدر الذى يؤازرها  
بل ويرسل إليها إشارات الطمأنينة فلا يأس مطلقاً •

ابتسمت سارة وهى تردد:

– الحمد لله الذى استجاب لدعائى ونجائى يا حبيبتى •

– الحمد لله يا أمى أنا بخير •

– مازلت متحيرة فلا أعرف من فعل بك ذلك ولماذا؟

– لا تشغلى بالك يا أمى فأنا بخير •

– ولكن ينبغى أن أعرف حتى لا يتكرر ذلك •

– وكيف تتيسر لك المعرفة؟

– لقد قررت إغلاق باب المطبخ من الداخل، واتفق يعقوب مع

الدكتور مختار على القيام بنوبات حراسة للمنزل •

– إذن أريحى قلبك وعقلك ودعى الأمر لهما •

– بل أدعه الله الذى يرعانا ويحمينا •

ابتسمت نور وكلها يقين فى رعاية الله لها ولكل خطوة تخطوها •



## الفصل التاسع : النصر

جند المظلات وهى فى السما شابت

ولما حطت حمولها ع الرمال دابت

قدامها جيش فى الميدان يضرب نشان ثابت

ثلاث دول كلها فى بورسعيد خابت

بيرم التونسى



(١)

"الإنجليز قادمون".

بفرع شديد دخل يعقوب لاهثاً ومحذراً فانتفض الجميع قلقين، اقترب مختار من يعقوب محاولاً أن يعرف ماذا حدث فأجاب يعقوب:

– لا أعلم ولكنهم كالثيران الطائشة يفتشون المنازل ويقلبونها رأساً على عقب وهم على وشك الوصول إلى هنا.

– ولماذا يفتشون الحى الأفرنجى؟! لا بد أن هناك حدث جلل.

– لا وقت لدينا يا دكتور مختار فلنأخذ نور ويوسف إلى القبو وسأبقى هنا مع سارة.

– ألن تأتى أُمى معنا؟!!

– لا يا نور أسرعى؛ الوقت يداهمنا.

ينطلق الجميع إلى القبو بينما ترمق سارة يعقوب بنظرة دهشة يفهم على أثرها مكنون نفسها فيقترب منها، ويحتضن كتفيها بكفيه متحدثاً بلهجة حانية:

– ينبغى أن يجدوا أناساً يتحدثون اليهم وعليك التحلى بالهدوء حتى لا يرتابوا فينا.

– مازلت لأفهمك.

– أنتِ سيدة جميلة وأريدك أن تتحدثى معهم بلين.

– ماذا؟!!

– أخطأتِ الفهم يا أختى العزيزة فأنا لا أقبل أن يَمَسَّكَ أحد ولكننا فى موقف عصيب ولن يضيرنا أن تلقىهم بابتسامة رقيقة وحديث عذب فنحن فى حرب وكل شئ مباح فى الحرب ولا تنسى مطلقاً أننى معك •  
– كما تشاء يا يعقوب •

يلتفت يعقوب وسارة إلى طرق شديد على الباب فيتقدم يعقوب ويفتح الباب فيواجهه مجموعة من ضباط الإنجليز يتقدمهم رئيس المخابرات البريطانية الذى يشاركهم حمرة الوجه، والعيون الزرقاء فابتسم يعقوب بهدوء وحياهم :

– أهلاً وسهلاً •

– أهلاً بك •

ابتسمت سارة ابتسامة واسعة فبادلها الضابط بابتسامة أخرى سال معها لعبه إعجاباً بجمالها واستطرد يقول:

– عفواً لإزعاجكما •

– لا عليك يا سيد • • •

– ميجور "جون ويليامز" •

– تشرفنا يا سيدى الميجور • وأنا "يعقوبيان زاديكيان" وأختى "سارة" •

– هل أنتما مصريان؟

- لا نحن من الجالية الأرمنية • تفضل لينال منزلنا المتواضع شرف وجودك •
- أشكرك فليس لدى وقت •
- لعلك تبحث عن الإرهابيين القتلة •
- إنه وصف دقيق لهؤلاء السفاحين الذين يتربصون بجنود بريطانيا العظمى ولكنى لا أبحث عنهم بل عما هو أجلّ وأعظم منهم •
- من يا سيدى؟! •
- العظيم "أنتونى مورهاوس" سليل العائلة الملكية الذى اختطف صباح اليوم •
- ماذا؟! إنه خطب جلل كيف تجرأ هؤلاء الرعاع على هذه الفعلة الشنعاء •
- "يا لها من مصيبة" • بفرع عبرت سارة •
- أصبت يا سيدتى إنها مصيبة كبيرة •
- ولكن ما علاقة الحى الأفرنجى بذلك؟! •
- لقد اختطف عند مبنى المباحث الجنائية وربما حاولوا إخفائه هنا فى الحى الأفرنجى •
- ينبغى أن تقوم باستجواب كل من ترتابون فيه من هؤلاء السفاحين •
- لقد فعلنا ولكنهم يموتون دون أن يتفوهوا بكلمة واحدة •

– إنهم يستमितون استجابة لقرصانهم الأكبر الذى يدفعهم بخطوات  
حثيثة نحو الجنون فليست مقاومة أقوى جيوش الأرض إلا جنوناً،  
والأمر محسوم لا محالة يا سيدى الميجور •

– نعم هذا القرصان هو أصل البلاء •

– لا أراه سوى لص كبير، لقد بدأ بالسطو على أراضى الأثرياء ثم  
وزعها على الفقراء ليضمن ولاءهم ويستمر فى السطو، وهما هو  
يتجرأ على قناة السويس ونحن نوقن أنها ملك لإنجلترا وفرنسا  
العزيزة •

– فرنسا العزيزة!

تبئس سارة ثم تعقب:

– نعم إننا ممتنون لفرنسا التى أنقذتنا من الأتراك السفاحين أثناء  
الحرب العالمية الأولى وهو صنيع لا يمكن أن ننساه •

يرمقها الميجور بنظرة إعجاب ثم يقول:

– بريطانيا العظمى راعية المبادئ والأخلاق لا تقبل مطلقاً ما فعله  
الأتراك بكم والدليل ما فعلته بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى •

– ماذا فعلت يا سيدى؟

– لقد قمنا بعمل تحقيق فى الأمر وتقديم المذنبين للعدالة قصاصاً لدماء  
الأرمن الزكية •

"لقد شفيت نفوسنا يا سيدى فلتهدأ روح أمى وأبى بجوار المسيح".  
بابتسامة عقب يعقوب •

– أشكرك يا سيدى وأشكر سيدة العالم بريطانيا العظمى •

– أصبت يا سيدتى ستظل بريطانيا العظمى سيدة العالم بلا منازع ولن  
ينال منها العبيد •

– أرى ناصر على خطى هتلر يريد أن يكون زعيمًا عالميًا •

– نعم يا سيد يعقوبيان وسيلقى فى النهاية مصير هتلر إنه مصير كل  
من يتحدى إرادة بريطانيا العظمى •

– ألا تمنحنا شرف تناول الشاي معنا؟

– أشكرك أنا فى عجلة من أمرى أستأذنكما •

يمد الميجور يده فيصافحه يعقوب ثم سارة التى يقبل يدها بنظرة  
إعجاب متبجحة خلصة فتبادلته بابتسامة تثيرة، ثم يرحل مع جنوده •  
فيسرع يعقوب ويغلق الباب وهو يخرج شحنة زفير قوية تنبئ عن  
ارتياح بعد قلق شديد •

– أنت ممثلة رائعة يا أختى العزيزة!

– هذا بفضل الله الذى نحمده على إخفاء ما بنفوسنا وإلا هلكنا ولكن  
لماذا دعوتهم إلى تناول الشاي معنا؟! ماذا لو قبل الدعوة؟! •

– لبيته قبلها •

– ماذا؟! •

– لو قبلها لتركتمهم يتناولون الشاى للمرة الأخيرة وبعدها أدفن سياراتهم معهم فى الحديقة •

– كيف تفكر هكذا؟! أتريد أن توردنا مورد الهلاك؟!!

– بل أريد لهم ذلك كما فعلوا بحبة قلبى دانيال عريس السماء •

– فليرحمه الله يا حبيبى ولكنك مازلت لا تعى الدرس الذى وعيناه أنا ووالديك •

– أى درس؟!!

– التسامح يا أخى العزيز لقد سامح والدك ووالدتك من ظلمونا وكذلك أنا أما أنت فمازلت أسيرًا لأحزانك فى الماضى والحاضر •

– لا يمكن أن نتخلى عن خصالنا بهذه السرعة يا أختى العزيزة •

– إن الله خير حكم عدل لقد اقتص من والد نور وأخيه وأنا لست سعيدة بذلك ولكن عدالة الله نافذة فى الأرض فلا يضيع حقوق العباد •

– ولكنه لم يقتص من الأتراك •

– كيف؟!!

– لقد انهارت امبراطوريتهم العظمى وقد سمعت الآن أن الإنجليز اقتصوا لنا •

– هذا المخادع الحقير يريد استمالتنا بالكذب •

– كيف؟!!

– بعد استقرارنا هنا حرصت على متابعة الجرائد وبخاصة الأجنبية وعلمت أن إنجلترا بعد انتهاء الحرب بعام حققت فيما حدث لنا وقدمت عددًا ممن اشتبه في تورطهم إلى المحاكمة ولكنها لم تجد دليلًا واحدًا لأن الأتراك بالطبع أخفوا كل الأدلة.

– وهل حكم عليهم؟

– لا ولكن إنجلترا راعية المبادئ والأخلاق! استفادت من الموقف.

– كيف؟

– قررت التغاضي عما حدث مقابل حصولها على أسراها لدى الأتراك.

– يا لدناءتهم إنهم بلا شرف.

– وددت لو قطع لسانى يا سارة قبل أن أسب المصريين ورئيسهم.

– لقد آلمتنى عباراتك ولكن للضرورة أحكام.

– هؤلاء البسطاء رغم فقرهم ساعدونا وهم لا يعرفوننا فليكن الرب راعيًا لهم فى محنتهم وليجعل العقابة لهم.

– لقد نسينا من بالقبو يا يعقوب سأهبط إليهم لأطمئنهم علينا.

– ليس الآن فر بما عادوا ثانية.

– لماذا؟

– ربما كانت مناورة، عليك توقع أى شئ فى الحرب لذا سأخرج  
متعللاً بشراء بعض الطعام مستطعلاً الأمر وسأتيك فوراً لأخبرك بما  
علمت •

– كما ترى يا يعقوب ولكن لا تتأخر فابنتى لن تصبر كثيراً  
– كونى أنتِ صبورة ولا تتعجلى النزول إليهم قبل أن أحضر مهما  
تأخرت أما نور فليست وحدها وأنا أثق برجاحة عقل الدكتور مختار  
والدكتور يوسف •





(٢)

"الخوف على أمى يكاد يمزقنى".

بفرع شديد عبرت نور عن الخوف والقلق الذى سيطر عليها داخل القبر فهو كالقبر عالم آخر يُغيبك عن كل ما يحدث أعلاه، فرغم ميزته فى إخفاء أى إنسان عن العيون واستحالة الوصول إليه فإنه يُغيب من فيه عن الحياة وما يدور فيها ناهيك عن ظلمته وبرودته.

القبر يحمل الخوف كما يحمل الأمان الذى غاب عن نور فرعاً على والدتها وخالها فلا تعرف مصيرهما الآن ولا سيما بعد مرور وقت طويل، فمزقها الخوف الشديد عليهما.

اقترب الطبيب العجوز منها مسترشداً بمصباح الكيروسين وربت على كتفها مهدئاً:

– لتهداً نفسك يا ابنتى.

– مضى وقت طويل ولم يهبط إلينا أحد.

– ربما كانوا يفتشون المنزل.

– وربما قبضوا عليهما.

– لم أعهدك متشائمة مطلقاً.

– إن لتفاؤلى حدوداً يا عمى ولن أصبر أكثر من ذلك سأصعد لأستطلع الأمر.

"إياك أن تتحركى خطوة واحدة". بصرامة حذرهما يوسف.

- التفتت نورور مقته بنظرة غضب ولكنها تماسكت متسائلة: "لماذا؟".
- إذا لم يهبط أحد فلن نصعد فلا نعلم ماذا حدث.
  - لهذا أريد الصعود.
  - هذا عمل متهور قد يقودنا جميعا إلى الهلاك.
  - هناك مصيبة أخرى تدعوني إلى القلق.
  - ما هي يا ابنتي؟
  - شريف ونبيل ربما يعودان فى أى لحظة وأخشى وقوعهما فى الأسر.
  - أرايت كم أنت متهورة التصرف الأمثل هو الصبر حتى تتبين لنا الأمور.
  - وكيف ذلك ونحن فى هذا القبر؟! هل ينبغى الانتظار حتى نموت قلقاً لا أطيق الانتظار.
  - ليس بإرادتك فلست حرة تفعلين بنا ما تشائين.
  - أنت واهم؛ أنا حرة وليس لك الحق فى قمع حريتى.
  - ربما تسبب صعودك فى ضياعنا جميعاً لذا لن أسمح لك بالصعود مهما قلتِ وفعلتِ.
  - من أنت حتى تسمح أو لا تسمح.
  - إياك وتخطى حدود الأدب.

- ماذا؟! سأصعد رغمًا عنك •
- تهم نور بالصعود فيسرع يوسف ويقترّب منها محذرًا:
- قلت لن تصعدى لسنّا فى موقف يحتمل الميوعة •
- كيف تجرؤ على مخاطبتى هكذا؟! •
- المواقف العصبية تحتاج العقل والتفكير السديد لا التهور والمشاعر الغبية •
- أنتَ عقل بلا مشاعر من أى نوع ولا إحساس •
- يرفع يوسف كفه ويهم بصفعها فيمنعه مختار بينما يسيطر الغيظ والذهشة على وجه نور فيبادرها العجوز بالاعتذار:
- سامحيه يا ابنتى إنه مضغوط لما يحدث حولنا والضغوط تفقدنا عقولنا •
- هذا المخلوق لا يفقد عقله مطلقًا ولكنه يفقد أدبه •
- أرايتَ ماذا تقول هذه السفينة •
- لا سفيه هنا سواكَ توقف يا يوسف وكفاك إساءات •
- أهذا رأيك يا عمى؟! حسنا ولكن لن أترجع عما قلت فلن تصعد إلى أعلى مهما حدث •
- هو العناد إذن •
- افهميه كما تشائين •

يقترّب مختار منها بنظرة حانية:

– انصتى إلىّ جيّدًا يا ابنتى لقد اعتدتُ فى المواقف الصعبة أن أضع أسوأ الاحتمالات وأضع له رد الفعل المناسب لأتجنب القلق • فما هو أسوأ احتمال فيما نحن فيه الآن؟

– لا قدر الله لا قدر الله سقوط أمى وخالى فى الأسر •

– إذا حدث ذلك فسنتمكن من تخليصهما بإعداد خطة لذلك وإذا وقعنا جميعًا فى الأسر فلن نتمكن من تخليصهما التفكير الهادئ يصل بصاحبه إلى بر الأمان •

تهدأ نور وتبدو مقتنعة بما قال فتهز رأسها موافقة:

– كما ترى يا عمى •

يبدا الغضب الشديد على وجه يوسف الذى يكاد ينفجر وجهه غيظًا فيتساءل:

– ما الفرق بين مبرراته ومبرراتى؟

– الأسلوب يا دكتور لقد تعلمت الطب فى بلاد الانجليز ولم تتعلم الذوق •

– ألا تكفى كل هذه الإهانات؟!

– والله لولا احترامى لك لصفعتك على كل ما قلت وفعلت •

– ماذا؟!

– لا تتفوه بكلمة واحدة •

يرميها يوسف بنظرة غضب ثم يتنهد تنهيدة قوية، وفجأة ينتبه إلى وقع  
أقدام يعقبا ظهور شبح يقف فوق أعلى درجة للسلم المؤدى إلى القبو،  
فيخرج يوسف مسدسه فيمنعه مختار منادياً:

– من؟!!

– أنا نبيل يا عمى •

يعيد يوسف مسدسه إلى جيبه بينما يهبط نبيل السلم •

– متى جئت؟ وما حال السيدة سارة وأخيها؟

– إنهما بخير •

تتنهد نور بارتياح هامسة : "الحمد لله" •

– هل تعلم أن الإنجليز كانوا هنا وهم السبب فى بقائنا بالقبو؟ •

– نعم وقد رحلوا •

– ألدیک معلومات عن سبب وجودهم فى الحى الأفرنجى •

– لقد اختطف مور هاوس •

– من؟! من هذا؟

– ضابط من العائلة الملكية والإنجليز يحفرون بورسعيد بحثاً عنه • لقد  
قلبوا حى العرب رأساً على عقب وكلما فتشوا منزلاً وضعوا عليه  
علامة فما كان من الأطفال بالحي إلا أن وضعوا علامات على بقية  
المنازل التى لم تُفتش فاضطر الإنجليز إلى إعادة التفيتش •

- ما أذكى هؤلاء الأطفال! ولكن بالتأكيد أثار ذلك الإنجليز أيضاً.
- نعم يا نور، ألقوا القبض العشوائى على سكان الحى ورحلوهم إلى الإستاد تمهيداً لاستجوابهم.
- بل لقتلهم قتلاً بطيئاً اللعنة عليهم.
- إنها الحرب يا يوسف التى تثير كل معانى الرعب والخراب والندالة أيضاً.
- تبدو متأثراً بشدة يا نبيل وكأن الحرب وقعت الليلة.
- ما يحدث يفوق الاحتمال يا عمى! فلا يُعقل أن تكابد مدينة صغيرة كبور سعيد كل هذا.
- لك الله يا مصر.
- يجب أن أخبرك بأمر هام جداً يا عمى.
- ما هو يا نبيل؟
- الإنجليز سيتمركزون هنا لذا ينبغى أن نرحل عن المكان؛ تأميناً لأصحابه ولنا أيضاً.
- التقط يوسف كلام نبيل كما يلتقط الطائر الجائع الكلاً، فأسرع يعقّب:
- أنت على حق يا نبيل يجب أن نرحل.
- انهارت نور وكادت تسقط لولا تماسكها فأسرع دون تفكير صارخة:

- لا لن ترحلوا •

صرخ يوسف بعنف فى وجهها : "من سمح لكِ بفرض إرادتك علينا؟!!" •

يسيطر الخجل والحزن على وجه نور فتطرق برأسها أسفل، فيفقد مختار هدوءه ويرمى يوسف بنظرة غضب شديدة صارخًا:

- أنت أرعن وأحمق تفتقر إلى الأدب تمامًا •

- كفانى منك يا عمى إهانات بسبب هذه المخلوقة •

- نبيل خذه واصعدا إلى أعلى قبل أن أفقد أعصابى ويناله منى ما أندم عليه •

ثبت يوسف كالتمثال مكانه عقدت الدهشة لسانه ثم نظر إليها بغضب شديد فاقترب نبيل منه وجذبه من ذراعه وحثه على الصعود إلى أعلى، امتثل له ولكنه ركل الكرسي بغضب فى طريقه تنهد العجوز وأسرع وأقام الكرسي ثم جذب نور من ذراعها، وأجلسها فهوت عليه كورقة شجر هوت فى الخريف بدا وجهها شاحبًا فى ضوء المصباح، بينما انحدرت دمة حبستها فى عينيها ورمقته بنظرة انكسار تشير الشفقة فتحدث العجوز بحرج قائلاً:

- أود أن أعتذر لك عن غلظة هذا الشرس •

- وما ذنبك لتعتذر •

- ذنبى مسئوليتى عنه •

– ولكنه تجاوز سن الرشد •

– هناك رشد لم يبلغه بعد •

– ماذا تقصد؟

– الرشد الذى يكفل له إدراك النعمة التى يبدها الآن •

– سيد هشك أن تعلم أنه يراها ويريدها ولكنه يصر على عناد نفسه؛ لقد باح بما فى نفسه حين كنت بين الغيبوبة والإفاقة بل ربما كان اعترافه سبباً فى استعادتى الحياة ولكنه سرعان ما تراجع فى اعترافه وعاد إلى عناده •

– ماذا؟! هل سمعتك جيداً؟! لا أكاد أصدق ما تقولين •

– لقد تمنى موته إن قُدر لى الموت أتصدق ذلك؟!!

– إنها معجزة؛ لقد فعلتها يا نور •

– لا تصدق نفسك يا عمى؛ لا فائدة من ذلك فالواقع أنه يريد الهروب منى •

– الواقع أنك حطمت جدران السجن ولا يبقى سوى جذبه من مكان ألفه وألف أمانه ويخشى الانتقال إلى غيره

– أنت تقنع نفسك بالوهم يا عمى ولا تريد الاقتناع بالواقع •

– إنه الخوف من المجهول والوساوس التى تسيطر على عقله •

– لقد منيت نفسى بذلك مثلك وملأنى الأمل الذى سرعان ما أسلمنى فى النهاية إلى انكسار وخذلان كما رأيت الآن •



– إن ما فعله يا نور يدل على حب وقلق عليك ولكنه لا يجيد فن التعامل مع النساء فلا خبرة لديه فى ذلك المجال وهذا ما ينبغى عليك تحمله.

– وماذا عن موافقته السريعة للرحيل من هنا؟

– لا تفسير لدى ولكن ما أدركته جيداً خوفه عليك إلى حد منعك من الصعود بالقوة.

– ربما خوفه عليك وعلى نفسه؟!

– لا تتعجلى الأمور؛ أنا على يقين أن الله سوف يسبغ علينا من نعمه ومفاجآته الرائعة أكثر مما نتوقع يا ابنتى.



(٣)

"لا بد أن نرحل فوراً" •

بحسم وصرامة بالغين أطلق يوسف قراره النهائى فى وجه مختار  
الذى كتم غضبه ورسم هدوءًا زائفًا على ملامحه كى يتمكن من  
النقاش بتعقل يصل به إلى إقناع يوسف بالتراجع، أغلق باب الحجرة  
حتى لا يتسلل صوت يوسف إلى حجرة نور المجاورة لهما، وكانت قد  
حبست نفسها بعد إصراره على الرحيل •

طلب مختار من يوسف أن يجلس على السرير فجلس بينما جذب  
العجوز مقعدًا وجلس مواجهًا له وبدأ حديثه متسائلًا:

– إلى أين نرحل؟! •

– إلى أى مكان فسيكون آمن أكثر من هنا •

– لا يمكننا الرحيل فلا يوجد مكان مناسب نقيم به، ولو أردنا الرحيل  
عن بورسعيد لعجزنا •

– لا أريد مغادرة بورسعيد فلم تنته الحرب بعد •

– وما دورك فى الحرب يا دكتور؟ •

– معالجة الجرحى يا عمى •

– أما زلت تذكر المصابين؟! •

– ماذا تقصد يا عمى؟! •

– إن مأساتك التى تخيم على عقلك وقلبك جعلتك تنسى المسئولية  
المعلقة فى رقبته المصابين القابعين هنا بالمنزل • هل ستتركهم يموتون  
أم ماذا؟!

– يمكننا نقلهم إلى مكان آخر كما جئنا بهم هنا •  
– هذا أمر محال والإنجليز يحاصرون الحى بحثًا عن هذا الضابط •  
– نبيل من اقترح هذا الأمر وهو أدرى بالظروف المحيطة بنا •  
– خوفه وقلقه دفعاه إلى التفكير بتهور ولكنه أقتنع أننا لا يمكن أن  
نرحل من هنا •

– ولكن بقاءنا يعرضنا إلى الوقوع فى الأسر •

– أسر من يا ولدى •

– الإنجليز وأيضًا أصحاب المنزل سيكونون فى خطر كبير •

– إذا كنا لن نستطيع نقل المصابين فلن نرحل رعاية لهم، كما أن  
المنزل حتمًا سيتعرض مرة أخرى إلى التفتيش فماذا لو عثروا على  
المصابين أنتترك أهل المنزل يواجهونهم وحدهم؟ أهكذا نرد الصنيع  
العظيم الذى قدموه إلينا منذ جئنا إلى هنا؟!

– وماذا سنفعل؟

– سنبقى إلى أن تنتهى الحرب •

– لا أحتمل ذلك •

يقاطعه العجوز ناهضًا: "إن صممت على الرحيل فلترحل وحدك" •

يهم مختار بالرحيل فيوقفه يوسف معقبًا: "لا يمكن أن أرحل بدونك".

– وأنا لن أترك المنزل إلا بعد انتهاء الحرب .

يتنهد يوسف كاتمًا غضبه ثم يهز رأسه قبولًا فتنفرج أسارير العجوز، فيقبل رأسه ثم ينصرف مسرعًا نحو حجرة نور فيطرق الباب فتفتح له شاحبة، غلفت الدموع عينيها بغلاف أحمر وانكمش وجهها فبدت عيناها مترقبتين، فابتسم الرجل ابتسامة توحى بالتفاؤل وهز رأسه بما يوحى بإقناع يوسف بالبقاء فارتمت بين ذراعيه، وانفجرت باكية فربت على ظهرها بحنان ثم احتضن وجهها بين كفيه ومسح بإبهامه دموعها، وقبل رأسها وانصرف مسرعًا حتى لا يلحظ أحد وجوده عندها وبخاصة يوسف .

هبط الدكتور مختار السلم فلمحه نبيل الذي رمقه بنظرة تساؤل عن موقف يوسف فأجاب الطبيب العجوز بإيماءة من وجهه فهمها نبيل فابتسم .

حينما وصل الدكتور مختار إلى الطابق السفلى لمح شريف ثم السيدة سارة ويعقوب منتبهين إلى شريف الذي كان يروى تفاصيل عملية خطف مورهاوس، فعبر مختار عن فرحته برؤية شريف قائلاً: "حمدًا لله على عودتك يا ولدي" .

– أدامك الله يا عمي .

– لعلى سمعتك تتحدث عن مورهاوس؟

– نعم إن تفاصيل العملية بجعبتي وكنت أروى لهم التفاصيل .

– ماذا حدث؟! –

– لقد جمعنا معلومات عن خط سيره وتم انتظاره حتى نزل من سيارته ليتفقد خنادق الجنود وفجأة ظهر صبي صغير أمامه وسبّه ثم فر، فنتبعه مور هاوس بسيارته دون حرسه •

– يا له من أحمق! يسعى وراء طفل سبّه •

– إنها الغطرسة، المهم أن الصبي حين وصل إلى رصيف مبنى المباحث الجنائية تظاهر بالسقوط من فوق دراجته على الرصيف فنزل مور هاوس ممسكاً مسدسه فالتقطه الفدائيون وأدخلوه السيارة •

"ولكن لماذا هذا الضابط بالتحديد؟!!" • بدهشة عبرت سارة •

– إنه صيد ثمين يمكن مقايضته بعدد كبير من الأسرى •

– أصبت يا ولدى •

وقعت كلمة ولدى على قلب شريف فصمت برهة بعد أن بدا عليه التأثر، فابتسم يعقوب وعقب: "أنا أقصد ما تفوهت به؛ بعد ما فعلته من أجل ولدى أصبحت محله وأرجو أن أعوضك عن فقد والدك فكلانا يلبي احتياج الآخر" •

ابتسم مختار وغير مسار الحديث حتى لا ينتهى بمشهد مؤثر يعقبه اجترار الأحزان وقال:

– وهل تعلم أين هو الآن؟

– هذا أطرف ما فى الأمر؁ لقد تم نقله فى سيارة الشرطة إلى منزل أحد الأطباء الواقع أمام معسكر لمركبات القوات البريطانية•

"الثلاثاء الحادى عشر من ديسمبر تاريخ لن تنساه بريطانيا العظمى حينما سقط أحد رجال السلالة الملكية ذات الدم الأزرق فى يد من يطلقون عليهم الرعاع" • بلامح يسيطر عليها التشفى علق نبيل على خطف مورهاوس•

– هل شاركت فى العملية يا نبيل؟•

– لا يا عمى لقد أنهكت سميرة وسقطت معشياً عليها من فرط الإجهاد وقمت بنقلها إلى منزل على أطراف حى العرب لم يتهدم فى العدوان وواجهت موقفاً مريعاً•

– ماذا حدث يا ولدى؟

– بمجرد وصولنا شعرت ربة المنزل باقتراب الإنجليز لتفتيش البيت فرقدت سميرة نائمة وقامت السيدة بإخفائى؁ وهنا حلقة جديدة فى سلسلة ذكاء المصريين البسطاء•

– كيف يا ولدى؟!

– لقد لفت حصيرة حول جسدى ووضعتها خلف الباب قائمة فدخلوا وفتشوا المكان ولم يلاحظوا وجودى وعلمت بعد رحيلهم أن النساء يخفين الصبية بهذه الطريقة والحمد لله أننى لست طويلاً وإلا صرت أسيراً ثم قتيلاً•

– الحمد لله الذى حفظك ورعاك يا حبيبى•

بدا شريف شاردا متجهما تماما فاستدعاه مختار:

– فيم شروذك يا شريف؟!!

– أفكر فيما سيحدث جراء خطف هذا الضابط إنهم يستमितون ويتوحشون فى البحث عنه •

– إنها النهاية ولا ريب •

– ماذا؟!!

– إن ما تراه أمامك انهيار يعقبه استسلام فليس ما حدث اليوم فحسب ولكن فشلهم المتكرر •

– فشلهم!

– نعم لقد فشلوا فى وقف المقاومة على الرغم من وحشيتهم مع الأسرى، وفشلوا فى وقف توزيع المنشورات التى تحرض على قتالهم، وفشلوا فى حث التجار المقاطعين لهم كى يتعاونوا معهم ويبيعوا لهم السلع التى يحتاجونها رغم ما تعرض له غيرهم من تعذيب وقتل •

"أصبت يا دكتور مختار ولكن الاستسلام أمر محل نظر" • بريية تحدث يعقوب •

– لماذا يا سيد يعقوب؟

– لأن ما جاءوا من أجله ثمين ولا يمكن التخلّى عنه •

اقترب نبيل من يعقوب وعقب قائلاً:

– إن ما حدث اليوم بمثابة فضيحة كبرى كما تداولتها وسائل الإعلام، وهذا يعنى أن خسائرهم فادحة وهذا يؤهلهم للاستسلام وقد صار ما جاءوا من أجله فخاً ولا ريب •

شرد شريف قليلاً فى حديث نبيل ثم عقب قائلاً:

– لا بد أن يعقب هذه العملية عملية أخطر تقودهم إلى خسارة أكثر إيلاًماً •

نهضت سارة فزعة وقالت:

– ولكن هذا سيثير حفيظتهم ويجعلهم كالثور المطعون وسيدفع الثمن أبرياء جدد •

"إن قمنا بعمليات ضدهم أو هادناهم الأمر سواء؛ لن يتوقفوا عن قتل الأبرياء" بإصرار تحدث شريف •

جلس مختار وشرد قليلاً ثم عقب محادثاً نفسه: "سننتصر بإذن الله" •





(٤)

"دقات قلب العاشق كطبول الحرب" •

بشروء عبر يوسف عن نظرتة إلى الحب والمحبين وهو يتأمل  
الفضاء الواسع من شرفة حجرته التى انفرد فيها بنفسه •

لم يشعر ببرودة الجو التى فرضها ديسمبر ولا سيما هواء الفجر  
الذى يتميز بلسعته الشديدة • فرضت الأفكار المبعثرة والمكتظة بعقله  
غلياناً برأسه سرى إلى جسده •

السؤال الذى سيطر على عقله لماذا يصير القدر على إلقائه فى  
شاطئها؟ فكل من جاءوا إلى هنا استطاعوا الخروج والمغيب أياماً، أما  
هو فقد شاء القدر أن يظل أسير هذا المنزل لا يبرحه ليبقى مواجهاً لها  
وحينما لاحت فرصة الخروج من هنا أمس لم تلبث ان زالت سريعاً  
وعاد إلى نفس المصير •

إن القدر قاهر لنا وإن حباننا الله إرادة تمكنا من صنع ما نريد،  
ولكنه فى النهاية يبقى الأقوى فى فرض إرادته وبأسباب منطقية  
محكمة تجعلنا نستسلم له •

دار بذهنه ما حدث بالماضى وفرضه عليه القدر أن يحيا بلا أم مع  
أقاربه وهى على قيد الحياة ومع غرباء وأهله أيضاً على قيد الحياة،  
وحين قرر أن يبقى وحيداً بلا نساء نفذ إرادته فترة استطاع فيها صد  
كل محاولات منهن أو من عمه ومن صديقه الوحيد •

وعاد القدر يفرض عليه إرادته من جديد وكأن ما استطاعه بالأمس لم يكن سوى خديعة أسلمته إلى وهم الإرادة والقوة فيها هو أسير هذا المكان لا يستطيع تركه وليس ذلك جنبًا ولكن مسؤولية الطرف الذى فرضه القدر أيضًا •

وتفتق عن ذهنه سؤال آخر نبع من السؤال السابق ماذا يريد القدر منه؟ تصارعت الأفكار برأسه حتى ازدادت غليانًا ولم تعد تقوى على التحمل من فرط الغليان، فقرر اللجوء إلى الماء البارد رغم برودة الجو وعلى الفور اتجه إلى الحمام وفتح صنوبر المياه لتندفع على رأسه بقوة فهدأت حرارة رأسه، ولكن التساؤلات لم تهدأ ظلت متعلقة برأسه فعاد إلى أفكاره من جديد وتبادر إلى ذهنه ما حدث من أمر الحرب التى استدعته ليأتى إلى هذا المكان، ويقع فيه مرغمًا ومتى سيتمكن من الرحيل؟

إن الحرب لا تبدى أى بوادر للنهاية رغم قرار وقف إطلاق النار فى الشهر الماضى فالحرب مازالت على أشدها والصراع محموم بين المصريين والعدوان الذى يبدو أنه لن يرحل الآن وبات الأمر مسألة كرامة لهم • فمتى يتخلص من هذا الأسر الذى يشعر أنه سلاح القدر لتحقيق مأربه الذى يدركه ولكنه يخدع نفسه بالتساؤل وافتعال الجهل •

أنهى يوسف حمامه وجفف جسده ورأسه وخرج ليبدل ملابسه، حينما انتهى من تبديلها خرج إلى الشرفة حيث تسالت خيوط الشروق لترسم لوحة بديعة لم ينتبه إليها يوسف مطلقًا من قبل •

تأمل يوسف المشهد غائبًا عما أرقه من تساؤلات ازدهمت بها رأسه، ولكن لم يدم تأمله منظر الشروق الجميل فقد أعاده إلى مشكلته التي توارقه إذا كان قد غفل عن هذا الجمال من قبل فهناك إذن أمور أخرى ربما تكون بديهية لم ينتبه إليها، فربما أراد القدر أن يعلمه درسًا جديدًا في الحياة رغم أنه فلم لا تكون نور حقًا مختلفة عن بقية النساء •

عادت الوسواس تقهره من جديد لقد افتعلت الغيبوية لتستدر عطفه وعلمت ما بنفسه من مشاعر اختزنها لها، إنها مخادعة كبقيتين فلم لا يكون هذا الموقف إنذارًا لينتبه ولا يسقط في الفخ •

وعاد يتساءل إنذار ممن؟! ألم يكن القدر هو الذى صنع به كل هذا؟! وتصارعت أفكاره المتناقضة بعقله تجذبه يمينًا ويسارًا دون مقاومة منه ليرسو على شاطئ يرحمه من هذا الصراع فأسلمته إلى ألم شديد برأسه •

سأقت رحمة الله إليه طرقًا على الباب انتزعه من أفكاره فانتبه إلى الطرق برهة وسرعان ما عاد التساؤل يغزو رأسه من يا ترى يطرق الباب أأكون هي؟! وشعر بخفقان شديد فى قلبه فتساءل لماذا؟! ألهذا الحد قهرتني؟! جاء صوت سارة من الخارج ليرحمه ويحسم الأمر:

– دكتور يوسف دكتور يوسف •

أسرع وفتح الباب فرأى سارة بابتسامتها الحنون التى نالت من همومه فبددتها فبادر بالتحية:

- صباح الخير يا سيدتى •
- صباح النور يا دكتور ظننتك لم تستسقط •
- لا أنا مستيقظ منذ الفجر •
- الإفطار معد والجميع على السفرة فلتنضم إلينا؟
- أشكرك يا سيدتى فلست جائعًا •
- لا بد أن تنتبه إلى صحتك هناك كثيرون معلقون برقبتك •
- تتهد يوسف حينما ذكرته سارة بالمسؤولية التى جعلته يستسلم إلى البقاء  
والحبس بالمنزل فهز رأسه مستسلمًا لطلبها معقبًا:
- كما تشائين سألحق بك حالًا •
- انصرفت سارة ووقف يوسف برهة وكأنه يخشى مواجهتها من جديد  
بعد أن ظل حبيس حجرته طوال أمس، وقرر فى النهاية النزول  
ومواجهة ما سوف يسوقه القدر فى طريقه •
- هبط يوسف السلم وما إن اقترب من نهايته حتى شعر بأنفاس خلفه  
تخالط أنفاسه، فالتفت فوجد نفسه فى مواجهتها فتسارعت دقات قلبه  
فقرر أن يبدأ بالتحية ليسيطر على انفعالاته:
- صباح الخير •

"صباح النور" ببرود ولا مبالاة أجابت نور ثم هبطت السلم دون اهتمام به واتجهت نحو السفرة التى حفلت بألوان من الطعام •

جلست نور مجاورة يعقوب وحيته فبادلها التحية، ولكنها بدت مرهقة يخالط وجهها شحوب بارز، جلس يوسف بجوار الدكتور مختار فى مواجهتها دون أن ينتبه إلى وجوده أو يلقى عليه تحية الصباح، فبادره العجوز محيياً فى دهشة فانتبه يوسف وبادلته التحية بينما تقدمت سارة نحو السفرة تحمل طبقاً كبيراً به شرائح من الخبز وضعته على السفرة وجلست إلى المائدة:

"تفضلوا" • بابتسامة دعت سارة الجميع لتناول الإفطار فأقدموا على تناوله ولكن يوسف انشغل بمراقبة نور التى لم تعره نظرة ولو بالخطأ، لقد تعمدت الهروب من وجهه فأصابه ذلك بالدهشة والحيرة، بينما كان العجوز يراقبه ثم لفت انتباهه أنه لا ياكل فأقدم يتناول الطعام متجاهلاً لها وقرر أن يفتتح الحوار لينسى التفكير فيها:

– ما الأخبار؟ هل وجدوا "مور هاوس"؟

– لا يا دكتور يوسف مازالوا يبحثون عنه •

– هل تعتقد يا سيد يعقوب أنهم سيجدونه؟

– لا أظن إذا كان مختبئاً فى منزل أمام معسكر القوات الإنجليزية فلن يعثروا عليه •

تنهدت سارة وعقبت: "ولكنهم فى مقابل ذلك مازالوا يلقون القبض على الكثير من أهل بورسعيد وسيخلف هذا الأمر مأساة مروعة تضاف إلى ما ارتكبه من قبل".

– بل تضاف إلى فواتيرهم التى سيدفعونها حتمًا على يد الفدائيين قلن تضيع دماء شهدائنا هدرًا.

– أصبت يا عمى سيدفعون الثمن حتمًا.

لم تعقب نور على الحوار مطلقًا، زاد ذلك من حيرة يوسف وضيقه فلم يفلح الحوار فى إبعاده عن متابعتها، والتفكير فى رد فعلها فتنهد غيظًا فانتبه إليه العجوز الذى كان يتابعهما بانتباه شديد.

ساد صمت طويل أنهاه جرس المنزل الذى كان بمثابة جرس إنذار بمجهول يصيب الجميع بالفرع؛ ربما كان الطارق قوات العدوان تداهم المنزل أو خبر سئ. انتفض يعقوب مترقبًا وهمَّ بالتحرك ليفتح الباب ولكن يوسف نهض ومنعه بإشارة من يده منبهًا:

– لا بد أن نعلم من الطارق أولًا.

اقترب يعقوب من الباب وتساءل بحذر: "من الطارق؟".

– أنا أندرو يا سيد يعقوب.

هذا قلق يعقوب وقلق الجميع إلا يوسف الذى تساءل فى نفسه عن سبب مجيئه مبكرًا على هذا النحو، حينما فتح يعقوب الباب تقاجأ

الجميع بالفتى مصابًا فى ذراعه التى كانت تنزف فأدخله يعقوب  
مسرّعًا وأجلسه على الأريكة وتساءل:

– مالذى أصابك يا أندرو؟!

– اللص سرق حافظة نقودى وأصابنى بسكين حينما حاولت منعه ثم  
هرب، ووجدت نفسى قريباً من المنزل فقررت أن ألجأ إليكم لأنال  
إسعافاً بسيطاً ثم أذهب إلى المستشفى •

– اطمئن يا أندرو؛ الدكتور يوسف جراح ماهر •

– جراح! يا لها من مصادفة! أشكر الرب الذى ساقنى إليكم •

اقترب يوسف منه وفحص الجرح ثم عقب قائلاً:

– لا تخف إنه جرح سطحى ولن يحتاج إلى جراحة أو خياطة •

أسرع يوسف إلى حجرة الجراحة وأحضر أدوات الإسعاف من الشاش  
والقطن والمطهر وبدأ ينظف الجرح وهو يتساءل:

– كيف أصابك؟!

– اقترب منى وأشهر سكينه فى وجهى وطلب النقود التى أحملها،  
وحينما اعترضت أصابنى بالسكين فسقطت على الأرض فأخذ حافظة  
نقودى رغماً عنى •

– وأين سيارتك؟

– إنها معطلة وتحتاج إلى الإصلاح •

"حفظك الله يا ولدى" • بحنان دعت سارة له •

حينما انتهى يوسف من تضميد جرحه اختلس نظرة بطرف عينه إلى نور ليعلم هل تراقبه وتنتبه إليه أم لا؟ وكم كانت دهشته حين وجدها شاردة عما يحدث، ولا تهتم لأمره أو لما حدث لهذا الفتى فازداد غيظاً لم يستطع كتمانها فضغط بقوة على أسنانه، بينما كان الطبيب العجوز يراقبه ويبتسم خلسة •

انتفض أندرو وشكر يوسف واستأذن ليرحل فرافقه يعقوب إلى الخارج فانتهز العجوز الفرصة، واقترب من نور التي كانت قد فرغت من طعامها وطلب منها أن يتحدث إليها وحدها فرحبت وجلست معه فى على الأريكة بينما انشغلت سارة بجمع الأطباق والفرحة على وجهها فهي تدرك أن ابنتها تمر بظرف عصيب فلم تشهد حرباً من قبل، ويبدو أنها خلّفت بداخلها قلق وترقب وهذا الرجل له تأثير السحر عليها، وحينما عاد يعقوب قررت أن تأخذه إلى المطبخ مدعية أنها تود التحدث إليه فى أمر هام وهي تعد القهوة •

وقف يوسف مندهشاً مما يحدث يراقب الطبيب العجوز الذى جلس بجوار نور أهو سر أم خطة يدبرانها معاً، افتعل العجوز انتباهه فجأة إلى وجود يوسف الذى لم يغفل عنه لحظة وقرر أن يزيد من حيرته بقوله:

– ألن تتفقد المصابين يا دكتور حتى تعد لك السيدة سارة القهوة باللبن؟



رمقه يوسف بنظرة غيظ ودهشة دون تعقيب ثم انصرف غاضبًا إلى  
حجرة المصابين بينما ابتسم العجوز وربت على كتف نور بحنان  
وعطف وهو يسأل عن حالها الذى لا يبدو على ما يُرام ولكنها طمأنته  
فقرر أن يعطيها جرعة أمل فقال:

– لقد نجحت بامتياز أراه ينهار قريبًا •

– بل أنا من ينهار ببطء يا عمى •

– لا تيأسى يا نور، لقد لمحت الغيظ على وجهه جراء تجاهلك له حتى  
بعد أن ضمد جرح أندرو اختلس نظرة نحوك وأغاضه غيبتك عنه •

– لقد تعمدت ذلك لا لأجذب انتباهه ولكن لأتفادى إهاناته التى لم أعد  
أحتملها وصارت طعناته تنال من جسدى ولكنها لا تنال من مشاعرى  
وهذا ما يدهشنى •

– إنه حينما ينهرك يكون فى أضعف حالاته فيتصرف على هذا النحو  
ليجبرك على الفرار لأنه يعجز عن مواجهتك • صدقينى يا ابنتى •

– ربما وأذكرك أننى سمعت اعترافه من قبل ولكن ما الفائدة مادام  
يصر على موقفه بهذه القوة •

– لقد حطمت قفل سجنه وهو قفل يعلوه صدأ السنين الطوال التى زادتته  
صلابة ولكن المثابرة تولد النجاح فايأك واليأس •

– اليأس لم يكن من مفردات حياتى ولكنى إنسان يصبر ويجزع، يقوى ويفتر فلست معجزة خارقة •

– إن ما فعلته يجعلك معجزة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وأما الفتور والجزع فاجعليهما لحظات تساورك ثم الفظيها وعودى إلى قوتك وصمودك •

كيف؟!

– عليك أن تظلى ملاصقة له فى رعاية المرضى ولكن دون اهتمام به سيراك أمامه ولن يظفر بوجودك ، أنت بجواره وغائبة عنه، دعيه نهباً للحيرة حينها تظلين بداخله ولا ينساک مطلقاً •

– لا أعتقد أن ذلك يفلح معه، لن أتعامل معه وسأظل كما أنا •

– إذا تركت الميدان وألقيت سلاحك سرعان ما ينساک فى خضم المهمة الشاقة التى يقوم بها والظروف التى نمر بها أيضاً •

– كيف أجرو على معاونته بعد ما حدث اليوم سيفهم أنها كانت حيلة لاجتذابه ولأنها لم تفلح عدت أتمسح به • لا إن كرامتى تأبى ذلك •

– سأعرض الأمر عليك أمامه وعليك أن تصرى على الرفض وسأتكفل بإقناعك •

– وماذا لو ثارت كرامته لرفضى وطلب منك ألا تلح على؟!

– لن يرفض وإن رفض سأحدث إليه وحده، وأخبره أنني سأقنعك  
حتى لا يتحمل مشقة التعب وحده وقد جرب من قبل أن يتكفل بالعمل  
وحده وكاد يسقط من فرط الإعياء •

تنهدت نور ثم ابتسمت وهزت رأسها بالإيجاب فاحتضن رأسها في  
صدره وقبل جبينها •



(٥)

"لماذا رفضت معاونتى بهذا الإصرار؟!".

بغضب تساءل يوسف وهو يخيظ جرح أحد المصابين بينما نور  
تعاونته.

رمقته نور بنظرة ضيق ثم أشاحت بوجهها وأجابت:

– ولديك جرأة السؤال! لم أشهد إنساناً مثلك من قبل.

– لماذا؟!!

– أنسيت ما فعلت فى القبو؟! أنسيت إهاناتك بالقول والفعل؟!!

– الفعل!!

– نعم ألم ترفع يدك لتصفعنى؟!!

– أنت من استفزنى والموقف كان خطيراً.

– كم أنت شجاع وقوى! أتفقد أعصابك فى الظروف الصعبة؟!!

استفزته عباراتها التى بدت مهينة فانتفخت أوداجه ولكنه تماسك حتى  
لا يصدر منه تصرف جديد يُحسب ضده، لقد أصبح يحسب حساب  
عباراته وأفعاله معها.

– بل أنت من فقد أعصابه وكاد يتصرف بتهور ولو تركتك لفقدتُ  
عمى وربما أنت أيضاً.

"أكنت تخشى على من قوات العدوان؟!". • بسخرية مستفزة عقت نور •

التزم يوسف الصمت واستمر فى عمله وعندما طلب منها قليلاً من الكحول الأبيض أخبرته بنضوب الزجاجاة، فطلب منها أن تحضر الزجاجاة الكبيرة فى الخزانة ولكنها وجدتھا فارغة فكانت مفاجأة، فطلب منها قليلاً من العطر لتطهير جرح أحد المصابين مؤقتاً حتى يحضر زجاجة جديدة، وعلى الفور أحضرت له الزجاجاة وقام بتطهير الجرح وتركھا تكمل العناية بالمريض •

خرج يوسف فوجد مختار فى ركن السفرة ينصت إلى الأخبار ويتناول القهوة، فاقترب يوسف منه وأخبره بنفاذ الكحول الأبيض وهو فى حاجة ملحة إليه، فتنهد مختار وشرذ برهة ثم واثته فكرة • الجو مهياً للقاء يجمعهما خارج هذا المنزل فنظر إلى يوسف عاقداً حاجبيه وقال:

– مارأيك أن تخرج وتشتريه من أى صيدلية بالحي •

– لا بأس وبخاصة أننى أحتاج إلى الخروج من المنزل •

– وتأخذ نور معك •

اخترقت العبارة أذن يوسف فثبت مكانه ثم بدا الامتعاض على وجهه والرفض الذى صاغته عبارته الغليظة: "لن أخرج مع هذه المخلوقة البغيضة" •

"إذن لا تخرج إن كنت تريد العودة سالمًا" • ببرود أجاب مختار ثم رشف من القهوة • فرمقه يوسف بغضب شديد ودهشة وعقب:

– وما ضرورة مرافقتها لى؟! –

– يمكنك التنكر فى ملابس أجنبية وهى أيضاً يؤهلكما ملامحكما على أنكما زوجان أجنبيان فتتفادى ارتياب الإنجليز الذين يحفرون بورسعيد بحثاً عن مورهاوس •

– يمكننى التنكر فى هذه الملابس والذهاب وحدى •

– وأى طريق ستسلك؟! أنت لست خبيراً بالمكان أما نور فهى تعرف السبيل إلى الصيدلية •

تنهد يوسف الذى شعر أن عناده للقدر لا يعنى سوى مزيد من القهر فاستسلم غاضباً ولا سيما أنها أشعلت غضبه لعباراتها المؤلمة •

تتكر يوسف فى ملابس أجنبية وارتدى قبعة شريف الأوروبية التى دخل بها بورسعيد وارتدت نور أيضاً قبعة نسائية كبيرة، ووضعت مساحيق أخفت شحوب وجهها ورداءً أنيقاً جعلها مبهرة خطفت بصره حين رآها تحفة رائعة صاغها الله فى أبداع صورة •

تقدمت نور متجهة نحوه فحذرهما مختار أن تسير معه فى الطريق على هذه الهيئة من العبوس فهما زوجان متحابان فعليها أن تفتعل الحب، وحذره من فقدان أعصابه مهما فعلت فيكشف أمرهما، كما نصحهما أن يتحدثا باللغة الإنجليزية إن تعرضا إلى توقيف من قوات العدوان •

خرج يوسف ونور تتأبط ذراعه عملاً بنصائح العجوز وما إن مست ذراعها ذراعه حتى شعر بنار تشتعل بداخله إنها المرة الأولى

التي يمس امرأة ويلتصق بها هكذا فتنهد وتسارعت دقات قلبه، ولم تكن نور أقل منه تأثراً ولكنها قررت أن تتشغل بتأمل الشوارع التي افتقدتها منذ وقت طويل بسبب ظروف الحرب ورغم برودة الجو •

كانت نور تشعر بسعادة بالغة فبين يوم وليلة تأبطت ذراعه بل تسير معه في الطريق حقاً للقدر مفاجآت لا يتصورها خيالنا ولحظات السعادة تقهر الظروف الصعبة حولنا فلا نشعر بها •

ساد الصمت بينهما لنفس السبب فكلاهما يخشى أن يُفتضح أمره للآخر، ولكن نور اضطرت أن تتحدث إليه بإرشاده إلى الطريق التي يجب أن يسلكها متجهين إلى صيدلية دكتور أرمنى صديق خالها •

كان صوتها ييبث بداخله شعوراً جديداً نبت من الجو المحيط بهما، فزادت ضربات قلبه التي خشى أن تصرخ وتفضح ما بداخله، أيقن الآن أنه مكابر لقد غرق في حبها ولا يوجد مبرر يجعله يحيد عن إحساسه نحوها مهما فعلت •

اقتربا من الصيدلية ثم دخلا فابتسم الدكتور "كالفان" الذي بدت ملامحه أرمينية وعمره يماثل يعقوب فعبر عن فرحته برؤية نور محيياً:

– أهلا يا نور كيف حالك؟

– الحمد لله يا دكتور "كالفان" •

– وكيف حال والدتك ويعقوب فلم أره منذ مدة؟

– إنه بخير يا دكتور كيف حالك أنت؟

– نشكر الرب يا نور ونصلى لينهى هذه الأزمة •

– بمشيئة الله تنتهى قريباً •

رمق "كالفيان" يوسف بنظرة تساؤل فطنت إليها نور فعاجلته بالرد  
قائلة:

– الدكتور يوسف ابن عمى جاء من القاهرة للاطمئنان علينا وليأخذنا  
إلى القاهرة ولكننا لم نستطع بسبب ظروف الحرب •  
ابتسم كالفيان محيياً:

– أهلاً وسهلاً يا دكتور يوسف •

– أهلاً بك يا دكتور نريد شراء كحول أبيض ومستلزمات إسعاف •

– لماذا؟! هل أصيب أحد بسوء؟ اللعنة على الحرب •

– نعم لقد أصيب خالى يعقوب وليس الحرب السبب بل بسبب محاولة  
أحد اللصوص سرقة وأصابه بجرح عميق •

– سأحضر لك ما تريد حالاً •

– أرجو أن يكون لديك مسكناً قوياً، كما أرجو أن تحضر لنا كمية  
كبيرة من الكحول فظروف الحرب ربما أوجتتنا إليه •

– سأحضر لك كل ما تحتاج إليه يا دكتور •

دخل "كالفيان" مخزناً فى الداخل ليحضر لهما ما طلبه يوسف بينما  
ركز يوسف نظراته تجاه نور التى أبهرته برباطة جأشها وذكائها



وقدرتها على إقناع الصيدلى، وإخفاء الحقيقة عنه فأشاحت بوجهها  
فاحتضن رأسها بين كفيه ونظر إليها بإعجاب وقال:

– لماذا تتجنبين مواجهتى؟!

– أنا أتجنب إهاناتك •

– أنا آسف إن كنت قد أغضبتك •

– لقد اعتذرت كثيراً ولم أعد أحتمل مزيداً من الإهانات حتى وإن  
أعقبها اعتذار •

– أنتِ تثيرين غضبى وبعدها تغضبين من رد فعلى •

– لهذا قررت أن أتجنبك إلى أن تنتهى الحرب وترحل •

نالت عباراتها من نفسه ومن كرامته فألجمته، وبدأ الحرج على  
وجهه لرفضها له رغم اعتذاره ورقّة حديثه فصمت وأشاح بوجهه  
فشعرت نور بالندم الشديد لقد تمادت فى أداء دور الغاضبة الساخطة  
لكرامتها أكثر من اللازم، ولم تعرف كيف تعيده إليها فصمتت حتى  
جاء "كالفيان" ومعه علبة تحوى ما طلبه يوسف فأعطاهها له فمنحه  
يوسف ثمن الأدوية ثم حبته نور ورحلا معا ولكنه لم يقترب منها فلم  
يعد يحتمل الرفض الذى أصبح إهانة طعنت كرامته، فتألمت نور لأنها  
حرمت نفسها السعادة التى تسللت إلى قلبها عند ذهابهما إلى الصيدلية  
فسارا فى الطريق كأنهما غريبين إلى أن لمح يوسف على مرمى  
البصر دورية إنجليزية تفتش المارة وأدرك أن الخطر يحيط بهما وهو

يحمل علبة بها مستلزمات طبية فتوقف فدهشت نور التي غيبها الشرود عن كل ما يحدث حولها فتساءلت: "لماذا توقفت؟!".

– هناك دورية تفتش المارة ونحن نحمل معدات طبية.

شردت نور قليلاً ثم قالت:

– تعالى معي.

– إلى أين؟!!

– سنخفى ما معنا ثم نعود.

– كيف؟!!

– ستري هيا.

سارت نور في شوارع جانبية إلى أن وصلت إلى عقار مرتفع  
وحينما دخلت سachtته أخذت العلبة وأفرغت ما بها بسرعة ثم وضعت  
الشاش داخل مشد صدرها، أما كيس القطن فخلعت قبعته وثبنته  
بلاصق طبي في القبعة، ثم ارتدتها وأحكمتها على رأسها وأفرغت  
محتويات حقيبة يدها التي ألقت المساحيق وبعض احتياجات البنات  
ووضعت بها المُسكّن وزجاجة الكحول الأبيض.

بينما يوسف يتابعها مبهوراً بذكائها وسرعة بديتها فرمقها بنظرة  
إعجاب شجعته على مبادلتها بنظرة مماثلة فكان ذلك بمثابة عقد صلح  
صامت بينهما.

أسرعا إلى طريق العودة وعندما اقتربا من الدورية، بادرت نور الضابط الإنجليزى بابتسامة ذات مغزى خفق لها قلب الضابط بينما اشتعل يوسف غضباً، وكادت نظراته تفضح ما بنفسه ولكنه تماسك ثم حادثت نور الضابط بلهجة إنجليزية متقنة معرفة نفسها أنها من الجالية الإنجليزية، ثم أشارت إلى يوسف مدعية أنه أخوها فحياه يوسف وتحدث إليه بلهجة إنجليزية خالصة أتقنها خلال سنوات دراسته بإنجلترا فابتسم الضابط وتركهما يمران بعد أن ابتسمت له نور مرة أخرى، وعضت على شفتيها وسط إعجاب الضباط الواقفين المأخوذين بجمالها المثير ثم رحلت مع يوسف الذى أمسك يدها وشد عليها فكادت تصرخ وسارا معاً يغلف سيرهما الصمت وحينما أيقن أنهما ابتعدا توقف ورمقها بنظرة غضب وغيرة فهمتها نور فصرخ قلبها فرحاً فتساءلت:

– لماذا توقفت؟!

لم يجب يوسف ولكنه ظل محدقاً فيها لبرهة ثم باغتها بصفعة قوية أصابتها بصدمة شديدة ففغرت فمها ووضعت كفها على خدها تتحسس مكان الصفعة وهى لا تكاد تصدق أن هذا جزاء ما فعلته لتنتفذه من أيديهم ثم انهمرت دموعاً من عينها ولم تنطق فبادرها بالحديث:

– الوقوع فى الأسر بل الموت أفضل مما فعلت لإنقاذنا.

رمقته بنظرة انكسار ودموعها تنهمر كالطر فاستطرد يقول:

– هذا أكثر الأدوار التى تنتقنها بنات حواء الغواية وها أنا أتحدث بألفاظ مهذبة.

تنهد يوسف فنظرت إليه بغضب شديد ثم قررت الرحيل وحدها، وتركته فأسرع وأمسك ذراعها ليمنعها من السير وحدها حيث أسرع الخطا فحاولت أن تقلت يدها من يده ولكنه جذبها بقوة وقال بحسم وإصرار:

– إياك واستفزازي فلا أتمتع الآن بنعمة العقل ولا أهتم لما يمكن أن يحدث.

فاستسلمت نور وسارت معه ودموعها تخونها ولكنها سرعان ما قررت التماسك حتى لا يدرك أحد ممن بالمنزل ما حدث، فجفت دموعها حتى وصلا إلى المنزل، ودق يوسف جرس الباب ففتح مختار فرحاً بعودتهما سالمين حينما رأى نور فطن إلى حدوث أمر مؤلم وكان على ثقة أنه من صنع يوسف.

دخل يوسف تعقبه نور فأغلق مختار الباب وانصرف يوسف غاضباً وتركهما وحدهما فارتمت نور في صدر العجوز ودفنت رأسها وانهمرت دموعها، فأجلسها وجلس مجاوراً لها مستفسراً عما حدث فروت له كل شيء وهى تبكى ويعلو صدرها ويهبط فتملكه الغضب والغيط من هذا الغليظ الذى لا يدرك شيئاً من اللياقة فى التعامل مع النساء، وضغط على أسنانه ولكنه توقف مفكراً وعقب بلين:

– رغم غضبى مما فعله ولكن غيرته دليل قوى على حبه الشديد لك.  
– من أحب أحداً لا يؤلمه.

– لقد أخبرتك من قبل أنه لا يتقن فن التعامل مع النساء وإن كان ذلك مؤلماً لك فهو يحمل بين طياته تكريماً خاصاً.

– أی تکریم هذا؟! –

– ألا يكفي أن تكوني أول امرأة في حياته؟ هذا تکریم لا تتاله أی امرأة بسهولة ولا من ناسكٍ ربما يكون قد أعجب بامرأة دون أن یصرح لها • أما یوسف فلم تدخل قلبه امرأة من قبل •

جفت دموع نور وشردت في حديثه ثم عقببت:

– لا لقد انتهت قصتنا عند هذا الحد ولن أفرط في كرامتي بعد الآن •

– لا يا ابنتي أرجوك، أنتِ آخر أمل لي •

– هذا قرار نهائي فلم أعد أطيق رؤيته فلينعم بسجنه بعيداً عني •

انتفضت نور وتركته وصعدت إلى أعلى فبدا العجوز حزينا ثم تنهد وهو يهمس في نفسه:

– إن كان ما قررته حقيقياً – رغم ارتيابي – فقد خسر يوسف السعادة •



(٦)

"لقد اغتيل رئيس المخابرات البريطانية" •

بابتسامة واسعة أشرقت وجه نبيل ألقى الخبر إلى مختار الذى كسا وجهه قناع الدهشة فعجز لسانه عن التعقيب، فابتسم نبيل واستطرد يقول: "ألم تسمعنى يا عمى؟! " •

– بلى ولكن أذنأى تأبى التصديق •

– إذا كان هذا شعورك فما شعور الإنجليز تجاه ما حدث اليوم؟! •

– متى حدث ذلك يا نبيل؟! •

– اليوم فى التاسعة صباحًا •

– وكيف تم الإيقاع به؟! •

– كان يواصل بحثه عن "مورهاوس" وحينما وصل إلى مبنى المباحث الجنائية مستقلًا سيارته لوح له فتى بورقة، فتوقف بالسيارة واقترب منه •

– ولماذا توقف؟! •

– هذا ما قامت عليه الخطة أن يتوهم أن هذه الورقة بها معلومات عن مورهاوس •

– وماذا بعد؟ •

- اقترب الفتى منه يحمل الورقة بيده اليسرى وبيده اليمنى رغيف يحوى قنبلة يتظاهر بأكله وما إن فتح شباك السيارة حتى غافله الفتى، وألقى القنبلة داخل السيارة وفرَّ كالريح وحينما تمكن "ويليامز" من فتح باب السيارة انفجرت القنبلة فسقط خارجها غارقاً فى دمائمه.

- أتقول ان القنبلة كانت داخل رغيف؟!!

- نعم إبداع جديد يضاف إلى إبداعات المقاومة المصرية التى جعلت من بورسعيد أيقونة الصمود فى العالم بأسره ورمزاً للإباء وعصفت بكرامة "الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس" • وقد صارت إمبراطورية الظلام •

- لم يمر سوى الأربعاء والخميس على خطف مورهاوس الذى يُعد صيداً ثميناً لنا وخسارة فادحة لهم ولكن الخسارة هذه المرة أكبر •

- هذا الرجل رأس الحربة لقوات العدوان لخبرته القوية بمصر ولهجاتها ناهيك عن مكانته كرئيس للمخابرات • واليوم يوافق الرابع عشر من ديسمبر، هذه الأيام من ذلك الشهر تحمل ذكرى فاصلة فى تاريخ مصر وبريطانيا •

- عم نتحدث؟

- فى هذا الشهر من عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر أعلنت بريطانيا الحماية على مصر دون مشاورة الحكومة المصرية لتستخدم موانئها

ومطاراتها فى الحرب العالمية الأولى، وتقحمها فى حرب لاناقة لها  
فبها ولاجمل •

– نعم لقد كابت مصر وىلات الحرىبن العالمىتىن بسبب هذا الاستعمار  
البغىض •

– والىوم فى نفس الشهر بعد مرور اثنىن وأربعىن عامًا يُختطف  
"مورهاوس" أحد ضباط الجيش البريطانى وسلىل العائلة الملكىة  
وُيُقتال رئىس المخابرات على يد صبى لم يتجاوز السابعة عشر من  
عمره •

– هذا الرقم يذكرنى بالعام الذى أجبرت فىه برىطانىا الملك على تولى  
حزب الوفد الحكومة •

ابتسم نبىل واستطرد: ربما كان ذلك دافعًا قوياً لتندلع ثورة يوليو بعده  
بعشرة أعوام؟

– ربما يا ولدى • هذه الثورة ستكون حدًا فاصلاً بىن ماضى قبیح نتقیاً  
بقایاه الآن، ومستقبل جدىد نبنىه بإذن الله، ولىست هذه الأرقام مصادفة  
إنها رسائل إلهىة تبشرنا بالنصر القربى •

تنهد مختار وشرد قليلاً فاستطرد نبىل:

– لعلك تفكر فى رد فعلهم والذى أثق أنه سىكون الأعنف منذ بدأ  
العدوان •



نظر إليه مختار مفكرًا ثم التقط غليونه من فوق السفرة وأشعله ونفث دخانه ثم عقب قائلاً:

– إن ما حدث اليوم سينتج عنه أمر من اثنين كل منهما نقيض الآخر •

– كيف؟!

– إما أن يكون شرساً عنيفاً على قدر الحدث، وإما أن يصيبهم باليأس لأن المقاومة مستمرة بشراسة وتصيبهم بضربات قاتلة متتابعة دون هوادة رغم وحشيتهم في مواجهة الفدائيين • واستمرارهم في بورسعيد لا يعنى سوى خسائر أكبر •

– وأيهما ترجح يا عمى؟

– ربما كان ترجيحي يشوبه التمنى فيأتى غير موضوعى •

– إذن ترجح الأمر الثانى وأنا أشاركك الرأى •

– ما أثق به يا نبيل أننا سننتصر كما قلت لك •

– فليكن الله فى عون وطننا الغالى "مصر" •

– إنه يتعهدا برعايته منذ وجدت على هذه الأرض والنصر حليفنا بإذن الله • كيف حال سميرة؟

– إنها بخير ولكنها مصابة بداء العناد وصلابة الرأى •

– وما الضرر فى ذلك؟

- لقد طلبت منها أن تتوقف عن المشاركة وتلزم المنزل الذى تقيم فيه فيكفى ما فعلته ولكنها صممت على الاستمرار فى رعاية المرضى والمشاركة فى بعض العمليات إن لزم الأمر ذلك .
- وكيف تطلب منها ذلك وبورسعيد كلها تقاوم العدوان؟!!
- أخشى عليها يا عمى إنها متهورة ومندفعة .
- ابتسم العجوز ونفت دخان غليونه ثم استطرده يقول:
- الأمر أكثر من ذلك .
- ماذا تقصد يا عمى؟!!
- لا تراوغ يا ولدى يبدو أنك تعلقت بها .
- لا أدري يا عمى لا أدري حقًا .
- أن لك أن تودع "نسمة" كى تعيش فى عالم الأحياء يا حبيبى .
- أنت تتصحنى بما عجزت عن تحقيقه .
- ظروفنا مختلفة لقد تزوجت عمه يوسف وقضينا سنوات سعيدة، وبعد موتها حبانى الله يوسف فأصبح لحياتى هدف أحيانا من أجله، وقطعة منها تذكرنى بها .
- أخشى يا عمى أن أصيب سميرة بأى ألم .

– لماذا؟!!

– ربما عاودنى الماضى ولم أستطع التخلص منه فأجرحها ولا أحتمل ذلك مطلقاً.

– إن كنت لا تحتمل أن تؤلمها إلى هذا الحد فإن شبح الماضى لن يعود وستنعم بسعادة مع هذه الفتاة الخلقة التى تنال تقديرى وحبى، وهى جديرة بقلبك الحنون وشخصك الرائع.

ابتسم نبيل ثم هز رأسه مستسلماً فتنهد مختار وتحدث وهو أقرب إلى الشرود قائلاً:

– إن صديقك قد غرق فى حب نور واعترف ولكنه عاد إلى عناده وكبره.

– ماذا؟! متى حدث ذلك؟

– اعترف لنور حينما أصيبت فى رأسها وهى بين الإفاقة والغيبوبة وسرعان ما تراجع.

"وهل من الرجولة أن يلحق الرجل كلامه" • بابتسامة ساخرة عقب نبيل.

– هذا ما حدث.

– دعه يا عمى حتى تراه يجثو على ركبتيه ملتمساً حبها والارتباط بها.

– أَدْعُو اللَّهَ بِذَلِكَ لَقَدْ أَصْبَحْتَ وَلِيَّ أَمْرِ نَوْرٍ لَا وَلِيَّ أَمْرِهِ هُوَ •

– كَمْ أَنْتِ مُحَظُوظَةٌ يَا نَوْرُ بِمَا نَلْتِ مِنْ حُبِّ عَمِي وَمُمِيزَةٍ أَيْضًا بِمَا  
فَعَلْتَ بِيُوسُفَ •

التفتا سويًّا إلى وقع أقدام على السلم فلمحا يوسف هابطًا عابسًا وحينما  
رأى نبيل أسرع الخطا واقترب من نبيل واحتضنه مبتسمًا:

– الحمد لله أنك بخير يا صديقي •

– الحمد لله الذي يرعانا جميعًا •

– هل من جديد يا نبيل؟

"داخل المنزل أم خارجه؟" • بابتسامة ساخرة مستفزة أجاب نبيل •

فرمقه يوسف بدهشة لأسلوبه الساخر وجهله بما يقصد فزاده غيظًا  
فقال:

– داخل المنزل!

– نعم إن أخبرتني بجديد داخل المنزل أخبرك بجديد خارجه •

– لقد عدت إلى سخافاتك القديمة لا أريد أن أعلم منك شيئًا؛ المذيع  
أفضل منك •

– المذيع ليس لديه تفاصيل الأخبار التي لدى، ولكن احترامًا لرغبتك  
سألزم الصمت •

رمقه نبيل بنظرة مستفزة ثم أحدث صغيراً مستفزاً وهو يتأمل يوسف بنظرات مبهمة لا يفهمها ثم تركه وانصرف، فاستشاط يوسف غضباً ثم نظر إلى مختار الذى تأمله قليلاً ثم تركه ببرود وانصرف دون تعقيب •

جلس يوسف على أحد مقاعد السفرة يفكر فى عبارات نبيل ونظراته الساخرة الغامضة متسائلاً ماذا يعنى بكلامه؟! هل روى له مختار شيئاً مما حدث بينه وبين نور؟! وإن كان فماذا قال له ليسخر منه هكذا؟! •

انتبه يوسف إلى هبوط نور من أعلى السلم تحمل رواية ثم جلست فى ركن الأنترية ولم تهتم بوجوده أو تعيره نظرة •

كان يوسف قد تجاوز غضبه مما فعلته، وأثار حفيظته وبدأ يشعر بالندم بسبب تهوره معها ولكنه لم يكن يدرك كيف يعتذر هذه المرة؛ تكررت اعتذاراته حتى صارت بلا معنى ولا أثر كما أنه هذه المرة قد ارتكب جرماً جسيماً قولاً وفعلاً يصعب الصفح عنه فجلس يفكر ماذا يفعل •

ظهرت سارة من جانب المطبخ وأقبلت على نور مبتسمة وجلست إلى جوارها ولفت ذراعها حول نور وقبلت رأسها قائلة بحنان:

– ألا تريحي عينيك قليلاً؟! •

– القراء متعتى ولا يوجد ما يشغلنى سواها وسوى رعاية الجرحى •

- كما تحبين ولكن هل يمكنك ترك الرواية وإعداد الشاي بالريحان •
- كما تشائين يا أمى سأذهب إلى الحديقة لإحضار بعض أعواد الريحان •
- حفظك الله لى وسأصعد أنا لأوقظ خالك فقد أسلمه السهر إلى التأخر فى النوم •
- اتركه يرتاح قليلاً •
- لو تأخر فى النوم أكثر من ذلك سيصاب بألم فى رأسه كالعادة •
- تركت سارة نور وانصرفت بينما تركت نور الرواية على المنضدة وخرجت إلى الحديقة ويوسف مازال متحيراً ماذا يفعل هل يحاول مصالحتها أم يتجاهل الأمر؟ وحسم أمره فلم يستطع تحمل تجاهلها أكثر من ذلك ورغم جهله كيف سيعتذر لها إلا أنه قفز مسرعاً إلى الحديقة فوجدها تقطف عيدان الريحان، فانحنى وأمسك يدها فارتعشت ثم التفتت فرأته وسريعاً أفلتت يدها من يده وأشاحت بوجهها بعيداً وانتفضت واقفة استعداداً إلى الرحيل فنهض وأوقفها وأدار ذقنها نحو وجهه، فأفلتتها من يده وأشاحت بوجهها فقال:
- نور أعلم أن جميع عبارات الاعتذار بكل اللغات لن تمحو ما فعلت •
- ولكنك اعتدت ذلك ولا تعلم كيف تتحكم فى انفعالاتك لست مخطئاً بل أنا المخطئة لأننى لم أفهم ذلك وأنا الآن أعيه جيداً وأتصرف على أساسه •

– ماذا تقصدين؟

– سأجنبك حتى تنتهى الحرب صيانة لكرامتى •

– أرجوكِ اصفحى عني واغفرى لى فقد عهدتك متسامحة ولا أريد  
لطبيعتك النقية أن تُلوث •

– صدقاً أريدك أن تعلم أنك إنسان قوى استطعت أن تبدل قناعتي  
بالتسامح عجزت كل المآسى التى مررتُ بها وكل من آذونى أن يفعلوا  
ذلك •

– أنتِ تؤلمينى بما تقولين، هذا التسامح أجمل ما يزينك ولا أريدك ان  
تتخلى عنه •

– إنه الباب الذى تنتسل منه إهاناتك الطاعة، لم أدرك مطلقاً فى  
الماضى أن الكراهية درع يحمينا من طعنات الآخرين ولكنك أفلحت  
فى ذلك •

– الكراهية تقتل صاحبها ولا تحميه كما تتصورين أنا أكثر من يعى  
ذلك أرجوكِ لا تجعلينى أحيا بتأنيب الضمير على ما فعلتُ بكِ •

– لا تؤنب نفسك لقد تعلمت منك درس الحياة •

– بل الموت سامحينى أرجوكِ وأتعهد لك أننى •

تقاطعه نور: "كفى لأريد أن أسمع منك شيئاً" •

أمسك يوسف ذراعها وأدار وجهها نحوه فحاولت إفلات ذراعها من يده ولكن قبضته كانت قوية فعجزت عن التخلص منه، فنظر إليها وقد تفرقت دمعة بعينيه، فتأثرت نور ولكنها تماسكت على الفور فاستعطفها قائلاً:

– أرجوك يا نور أنا

فجأة كسا الرعب والفرع ملامح يوسف فألقاها بعيداً فكادت تسقط لولا تماسكها في حين استقرت رصاصة في صدر يوسف فسقط غارقاً في دمائه فهرعت نحوه صارخة:

– يوسف يوسف حبيبي •

ظهر من بعيد شريف عائداً إلى المنزل وقد حثه صوت الرصاص على الإسراع، فلمح شخصاً غريباً ممسكاً مسدساً فأسرع خلفه وأمسك به، كان يرتدى قبعة كبيرة تخفى وجهه وحينما أزال شريف القبعة عن رأسه كانت المفاجأة "أندرو" •





(٧)

"الحمد لله تم انتزاع الرصاصة".

بعينين مقرحتين من البكاء والسهرة وبصوت مخفوق أجاب نبيل على سؤال مختار عن حال يوسف الذي نزع دمًا كثيرًا، واضطر شريف ونبيل إلى إسعافه بطريقة بدائية بتسخين سكين وانتزاع الرصاصة به من صدر يوسف، وساعدتهم نور في تضديد الجرح ومتابعته وكان أثناء ذلك يهذى بحبه لها وخشيته أن يصيبها الأذى. لقد أدركت أنه ألقى بها بعيدًا ليتلقى الرصاصة بدلًا منها وكان ذلك كافيًا لتترك مكانتها بقلبه.

جلست نور بجواره لا تبرح مكانها منتحبة حزينة لما أصابه وللألم الشديد الذي كابه جراء إخراج الرصاصة فزادها ذلك ألمًا وشعورًا بالذنب لما فعلته معه قبل أن تستقر الرصاصة بصدرة ولم يجد من يسعفه إلا بطريقة بدائية يستخدمها سكان الجبال.

لم يتحمل العجوز رؤية يوسف أثناء انتزاع الرصاصة من صدره ولكن بعد الانتهاء من ذلك دخل ليتساءل وحينما طمأنه نبيل ألقى نظرة على قرة عينه ووحيده ثم قبل جبينه وربت على كتف نور قائلاً:

— ألا تستريحين يا ابنتي قليلاً؟

— لا يا عمى، من أين لى بالراحة؟!

— ولكنك ستهلكين من فرط التعب وقلة النوم.

– سأهلك إن لم يفق؛ الرعب يكاد يقتلنى لمجرد التفكير فى عاقبة سيئة • لا أحتمل •

– كما تحبين يا حبيبتي رعاكما الله •

ربت نبيل على كتف مختار واصطحبه خارج الحجرة ثم هبطا إلى الطابق السفلى وحينما رآهما يعقوب وسارة انتفضا ليطمئنا عليه، فأخبرهما نبيل أن حالته مستقرة ثم جلس الجميع وبادر يعقوب بالحديث الذى وجهه إلى نبيل بغضب:

– سيصيب الشلل عقلى لما حدث لماذا فعل أندرو ذلك؟

– اسمه ليس أندرو بل "إيزاك حايم" •

– إيزاك حايم! أهو يهودى؟!

– نعم يا عمى ومن أصول شامية •

– ولماذا فعل ذلك؟!

– ينبغى أن تعرف قصته يا عمى لتدرك الأسباب •

– وهل علمت منه كل شئ؟

– نعم إنه يفور ذكاء وجبنًا فى آن واحد •

– كيف يا دكتور نبيل؟!

– ذكأؤه دفعه إلى أفعال ستعلمونها الآن وجبنة هو السبيل إلى حمله على الاعتراف، لقد هددته بتسليمه إلى القيادة يفعلون به ما يشاءون فاعترف بكل شئ ووعدته بإطلاق سراحه بمجرد التثبت من صدقه •

– وهل صدقك؟

– نعم لأننى أخبرته أننى لن أحرره إلا بعد دفع مبلغ كبير كتعويض لـيوسف •

– وما قصته يا ولدى؟

– لقد نشأ فى القاهرة حيث كان والده يعمل بمكتب البريد وحينما أعلن عن قيام دولة إسرائيل سافر ومعه أسرته لأنه كان من أشد المتحمسين للأمر الذى غذى ابنه به وشارك فى الحرب ضد العرب فى عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين والتى يسمونها "حرب التحرير" •

– حرب التحرير! لم أشهد تزييفا فجأ على هذا النحو فى حياتى •

– أصبت يا عمى وأزيدك من أكاذيبهم أكذوبة أخرى إنهم يطلقون على إعلان هذا الكيان الكاذب وثيقة الاستقلال هل رأيت افتراءً مثل هذا من قبل؟! •

– لا يا ولدى، ثم ماذا؟

– قُتل والده فى الحرب ولم يستطع هو ووالدته تحمل مشاق الحياة  
هناك فقررا العودة إلى مصر مؤقتًا حتى يتمكننا من جمع مال  
يستطيعان به إقامة مشروع هناك •

"لم أشهد جحودًا مثل ذلك من قبل" • بازدياء تحدث يعقوب متذكرًا  
رعاية مصر له ولأسرته بعد رحيلهما عن أرضهما، وكيف جاد ابنه  
بنفسه فداءً للأرض التى احتضنتهم •

– وماذا حدث بعد ذلك يا نبيل؟

– عمل فى أحد محلات اليهود لبيع القماش حتى فهم أصول التجارة، ثم  
قرر خوض التجربة بنفسه بشراء بضائع وبيعها لحسابه فى المنازل  
والمحلات الصغيرة، ونجح فى جمع المال ولكنه بعد ذلك استطاع  
العمل فى قناة السويس بواسطة صديق له •

– كيف قُبل فى القناة وهو بلا شهادة ولا مؤهلات لذلك يا دكتور؟

– كان يذاكر أثناء العمل وحصل على دبلوم التجارة كما أجاد اللغة  
الإنجليزية •

– إنه فذ بالفعل •

– نعم ، وبعد أن عمل بالقناة وجد أنها نفوذ قوى للإنجليز سيعيدهم إلى  
السيطرة على مصر ويقضى على حكم الجيش الذى يراه مهددًا  
لإسرائيل فقرر البقاء إلى أن ينتهى هذا الأمر •

– القناة بالفعل كانت بمثابة دولة داخل الدولة وحقوق العمال المصريين كانت مُهدّرة يا ولدى •

– بالفعل يا عمى وكان هذا يسعده لقد أخبرنى بذلك ووجهه متهلل وسرعان ما انقلب إلى عبوس حينما أخبرنى عن شعوره تجاه التأميم وخيبة الأمل التى أصابته لذلك •

– ولكن لماذا تقرب من ولدى يا دكتور نبيل؟

– اعتاد قضاء ليلة السبت فى ملهى "بالاس" الذى اعتاد دانيال أيضًا الذهاب إليه وكان إيزاك يسمعه وهو يتحدث بحماس عن حكومة الثورة، وتأييده لها وقد نال ذلك من نفسه كما أصابته الدهشة حينما علم أنه ليس من أصول مصرية، وبعد هجوم الإسرائيليين على سيناء قرر فورًا التقرب منه فكل من يعرفهم أجانب لن يستفيد منهم بشئ •

– مازلت لا أفهم ماذا أراد من ولدى؟

– لقد أدرك بذكائه أن دانيال سيكون ضمن المقاومة لا محالة فقرر التعرف عليه من خلال الخدعة التى صنعها، وأتذكر الآن قول يوسف:

"أن الأجانب لا ينشغلون إلا بأمورهم ولا ينتفضون لنصرة أحد" •

– لقد فهم هذا الغريب ولدى أكثر منى •

– ربما لم نتحدث معه فى شئون السياسة من قبل؟

– هو ذاك يا دكتور نبيل لم يكن يشغلنى سوى حلمى أنا ولم أعش فى أحلام اولادى فليسامحنى الرب على ما فعلت • وماذا حدث بعد ذلك؟

– كَوْن جماعة مع عدد من اليهود الذين تعرف عليهم من جنسيات مختلفة هنا، ولديهم نفس الحلم المجنون، وقرروا قتل الفدائيين دون أن ينضموا إلى إنجلترا أو فرنسا •

– لماذا؟! أليست إنجلترا هى الراعى الرسمى لهذا الحلم؟!

– بلى ولكنه رفض التبعية لأحد وتمنى أن تتخلص إسرائيل منها وتستقل وتسود العالم بأسره •

"هو متمرّد إذن وصاحب كرامة!" • بدهشة عبرت سارة •

– لا كرامة للص ولكن الحقير يفتعل الضعف حتى يتمكن فنرى منه الأعاجيب • وهناك سبب آخر لقد خشى أن ينكشف أمره وبخاصة أنه لن يعمل من تلقاء نفسه بل سيكون مكبلاً بأوامر أناس لا يبحثون إلا عن مصلحتهم فقط •

اقترب يعقوب من نبيل وسأله بترقب كاتمًا غضبًا شديدًا: "أهذا يعنى أنه قتل ولدى؟!" •

صمت نبيل فأعاد يعقوب السؤال فتنهد نبيل ثم أوما برأسه بالإيجاب واستطرد يقول:

"لقد تتبعنا فى تلك الليلة وأطلق الرصاص عليه فأصابه وتسبب ذلك فى انتفاض الانجليز الذين أطلقوا الرصاص هم أيضاً فارتضى سامر على دانيال لفدائه فقتل" •

نزل الخبر على يعقوب كالمصاعقة فغاب عن الوعى ثوانٍ قليلة ثم عقب:

– لقد استجاب الرب لصلواتى وظفرت بقاتل ولدى •

همَّ يعقوب بالتحرك نحو القبو حيث حبس نبيل أندرو، فأوقفه نبيل ثم نهض مختار وسارة وأمسكا به فحاول التملص منهم جميعاً صارخاً:

– دعونى؛ أنا أعيش لتلك اللحظة لثأر ولدى وقرة عينى •

– لا يا سيد يعقوب أرجوك؛ إننا نحتاج إليه حياً أنا على يقين أن لديه معلومات أخرى يخفيها ولست على ثقة بأسماء من اعترف عليهم لابد أن أسلمه إلى القيادة •

– أنا لا يعنينى كل هذا ما يعنينى ثأرى وحسب •

– تذكر يا سيد يعقوب أن ولدك جاد بنفسه من أجل مصر، فإذا تركته حياً سنثأر لشهادتنا جميعاً وإن قتلته سنثأر لولدك ولكنك ستخونه •

كان وقع كلمات مختار على يعقوب مؤثراً فهدأ قليلاً ثم عقب:

– ربما كنت محقاً يا سيد مختار ولكن ما تطلبه عصيب على نفسى •

"اطلب من الله أن يلهمك الصبر على ما أصابك" • بإشفاق تحدثت سارة لتهدئة يعقوب •

صمت يعقوب واحتبس دمعة تسالت إلى عينيه فأمسك مختار بذراعه وأجلسه إلى جواره بينما جلس نبيل مواجهًا لهما، وقد بدأ يفكر كيف يغير الأمر الذى يشغل يعقوب فقال:

– لم يسألنى أحد لماذا حاول إيزاك قتل يوسف ولم يره مع الفدائيين خارج المنزل؟

– تقصد "نور" • يا دكتور نبيل •

– لا يا سيدتى، لقد حاول قتلها حينما لمحتة بالحديقة معتقدًا أنها رأتة وعرفته ولكن كان هدفه هذه المرة يوسف الذى توهم أنه أراد قتل نور حينما رآه فأطاح بها بعيدًا •

"كان يوسف هدفه لماذا؟!!" • بدهشة عبرت سارة •

– لقد لمحنا نحمل المصابين وندخل بهم فأدرك أن هناك طبيبًا بالمنزل، ولعلكما تذكرا أن حين خدعنا بحديثه عن اللص الذى أصابه فى ذراعه كانت هذه حيلة ليعرف من هذا الطبيب •

– فلتحل عليه لعنة الرب جزاء ما اقترفه من جرائم •

أطرق نبيل برأسه قليلاً متنهداً بغضب ثم رفعها فبدا الذعر على وجهه ثم صرخ:



– ماذا فعلت يا شريف؟

انتبه الجميع على مشهد مروع كان شريف قادمًا من ناحية المطبخ  
ملطخة ملابسه بالدماء يمسك بيده كفاً بشرية •

فصرخ نبيل:

– ماذا فعلت؟! هل قتلتَه؟!!

– لا ولكن عجزت أن أمنع نفسي من قطع يده التى قتلت دانيال والكثير  
من الفدائيين وحاول قتل أختى الوحيدة والدكتور يوسف •

– ولكن النزيف سيقضى عليه •

– لا لقد غمست ذراعه فى زيت مغلى أحضرته من المطبخ إمعاناً فى  
الانتقام وليقف النزيف •

كست الدهشة وجه مختار الذى اقترب ونظر إلى وجه شريف  
المنهك تمامًا تخرج العبارات منه بصعوبة ذاهلاً عما حوله فتساءل  
مختار:

– من أين تسللت إليك هذه الوحشية يا ولدى كنت رقيق القلب تفيض  
حناناً؟

– ألا تدري من أين؟! من كل واجهناه منذ اندلعت الحرب ولا أريد  
الخوض فيه •

أشار شريف إلى نبيل بالكف وأعطاهما له وقال:

– ادفنها في الحديقة فقدمای لا تكادان تحملاني •

أخذها نبيل ثم حاول شريف أن يتحرك فسقط مغشيًا عليه •

أسرع يعقوب ومختار يحملان شريف، بينما ذهب نبيل إلى الحديقة  
ليدفن الكف • وكان ذلك كان إيدانا بطى صفحة العدوان الذى بدأت  
تتساقط أجنحته فينهار بعدها صريعًا •



(٨)

"لا ترحل يا يوسف وتتركنى وحيداً يضنينى فراقك".

انتفض مختار مذعوراً يلهث فرعاً ويتلفت حوله فلم تبصر عيناه سوى يوسف راقداً فاقترب منه فى حذر، وأمسك يده ليقبس النبض فانبسط وجهه وتنهّد تنهيدة ارتياح وعادت دقات قلبه اللاهثة إلى سرعتها المعتادة فتركه.

ارتقى مختار على كرسى أمام السرير والذى قضى عليه ليلته يجافيه النوم حتى اختلست عيناه ثوان قليلة غفا فيها، فكان هذا المنام المفزع وربما الكابوس الذى أيقظه بل هو فى حقيقة الأمر وساوس تتصارع فى نفسه رعباً على ولده الحبيب الذى أفاق ثوان قليلة، ثم أعقبها الغياب التام عن الحياة، ولكن هذه الإفاقة غدت الأمل بداخل مختار ونور التى امتثلت أخيراً إلى أمر مختار بالحصول على قسط من الراحة بينما يقوم بمتابعة يوسف والسهر بجواره.

نهض مختار واتجه إلى الشرفة وفتح النافذة ناظراً إلى الفضاء الذى رغم انبلاج الصبح بدت الشمس تجافيه وتضن عليه بضوئها، ودفعها فشعر مختار ببرودة شديدة وبثت الغيوم فى نفسه قشعريرة تشاؤم فأغلق النافذة، ونظر إلى يوسف ثم أخذ نفساً عميقاً بث فى نفسه الأمل ثم قرر أن يعود إلى جوار يوسف يتابعه فى ترقب وأمل كبير فى الله.

طرقت نور الباب فأذن لها مختار بالدخول فأسرعت نحو يوسف  
تنتسارع دقات قلبها قلقاً عليه ثم رمت مختار بنظرة تساؤل يخالطها  
خوف فتتهد مختار وأجاب:

– كما هو منذ تركته يا نور •

– لم أستطع النوم لقد غفوت برهة أيقظني منها كابوس مفزع جعلني  
أكره النوم •

– وأنا كذلك يا ابنتي إنها الوسوس تثير عقلاً الباطن، لا تهتمى بذلك  
فرحمة الله واسعة •

– ونعم بالله يا عمى •

انتهت نور إلى صوت يوسف ثم حركة رأسه البطيئة وهو يتأوه من  
جراؤ الألم ثم بدأ يهذى بكلمات غير مترابطة تماماً، فذكر أمه ثم عمته  
ونبيل وعمه، حتى استقر عند اسمها الذى تكرر على لسانه كثيراً ثم بدأ  
يحدثها دون أن يفتح عينيه قائلاً:

"نور سامحيني أرجوكِ فلا حياة لى بدونكِ" •

سالت دموع نور وهى تجيب:

"لم أغضب منكِ لأسامحك، لقد كذبتُ عليكِ وندمتُ على ذلك" •

تتهد العجوز واستسلم إلى نوبة بكاء شديدة وهو يعقب قائلاً:

"السعادة تطرق بابك يا ولدى فلا تردها تمسك بالحياة يا حبيبي".

فتح يوسف عينيه بصعوبة وضعف شديدين فمالت رأسه يمينًا ويسارًا كمن لعبت برأسه الخمر فأفقدته توازنه، فصار يترنح كذبيحة تتمنى الخلاص فاهتز قلب نور حسب حركة رأسه فبدا قلبها وكأنه اخترق جسد يوسف وصار قطعة منه إن أفاق أو غاب عن الوعي.

"نور هل أنت بخير؟" • بضعف شديد تساءل يوسف •

– لا الألم والحسرة يفتكان بي •

– الألم! هل أصابك مكروه؟

– وأى مكروه أكثر مما أصابك؟

– أنا بخير مادمت بخير يا نور حياتي التي انقشع ظلامها بك •

– حقًا؟!

– نعم فليس هناك أصدق من الدماء تعبيرًا عن حبي ولا أغلى منها  
مهرًا لك •

– مهرًا!!

– نعم لا أحتمل الحياة بدونك؛ أدركت ذلك حين رأيته تقتربين من  
الموت •

– لقد بعثت الحياة في نفسي الآن بكلماتك الرقيقة •

يطرق يعقوب ونبييل الباب ثم يدخلان فيتهلل وجه نبييل ويبتسم  
يعقوب حينما يشاهدان يوسف وقد أفاق من غيبوبته فيقترب نبييل ويقبل  
جبينه ويقول:

– حمدًا لله على سلامتك يا صديق عمري •

– سلمت من كل سوء يا نبييل •

– نشكر الرب الذى استجاب لصلواتنا ونجاك يا دكتور يوسف •

– الحمد لله يا سيد يعقوب •

– نور لم تحصلى على قسط كافٍ من الراحة يا حبيبتي •

– لقد نلت ما أحتاج من الراحة ولا بد من تطهير الجرح وتبديل الشاش  
والقطن •

– كما تشائين ولكن بعد أن تفرغى من ذلك تعالى لتتناولى الإفطار،  
والدتك تعده الآن وأرجو أن ينضم إلينا الدكتور مختار فلم يأكل شيئًا  
منذ أمس •

– ليس لدى شهية يا سيد يعقوب •

– لا يا عمى أرجوك لقد تعافيت والحمد لله عليك أن تستريح وتأكّل  
ونور أيضًا •

– لا تجهد نفسك يا يوسف فأنا رشيد أدرك مصلحتي جيدًا وكذلك نور •

اقترب نبيل من مختار وقبل رأسه ثم ربت على كتفه معقبًا:

– أرجوك يا عمى أن تنضم إلينا لقد شحب وجهك وأخشى عليك من قلة الطعام والإجهاد •

يهز العجوز رأسه ثم ينهض ويصحبه نبيل ويعقوب ويخرجون فتنبتسم نور متأملة يوسف بنظرات تكشف ما بنفسها، ثم تبدأ في تغيير الشاش والقطن وتطهير الجرح وحينما تنتهى تجلس على حافة الفراش مجاورة له وتقول:

– مازلت لا أصدق ما فعلت من أجلى وأعده أعجوبة الأعاجيب •

– أنتِ الأعجوبة الحقيقية يا نور وما فعلته من أجلكِ تعلمته منك أنتِ الشمس التى نشرت نورها فى حياتى فشقت ظلامها •

– لا تعلم كيف يخفق قلبى لكلماتك فرحًا وقلقًا •

– قلقًا!

– نعم أخشى أن يكون ما بقلبك مثل جرحك مرهون بالوقت ثم تُشفى وتتركنى فريسة الحزن •

– ألهذا الحد فقدتِ الثقة بى •

– من كثرة ما مر بى من صعود الأمل إلى عنان السماء ثم سقوطه فى هوة سحيقة لا قرار لها •

– اغفرى لى فلسْتُ أَقل منك معاناةً وصراعاً لنفسى ولكنك ربحتِ فى النهاية وربحتُ معكِ •

– لا بد أن تأكل شيئاً حتى تقاوم الجرح •

– لن أتناول شيئاً إلا إذا أكلتِ أنتِ أولاً •

– كما تحب سأتناول إفطاري سريعاً وأعد لك طعاماً خفيفاً •

نهضت نور وهبطت السلم حيث الجميع يتناولون الإفطار حينما رأتها سارة فرحت وتهلل وجهها لأن نور التى لم تنعم بالنوم أو الطعام أجرت كلمات يوسف الدماء فى وجهها، فبدت رائعة الجمال وبصحة موفورة مبعثها الحقيقى السعادة التى تبث طاقة تحرك الجبال •

جلست نور لتتناول الطعام فتابع الجميع الحوار الدائر حول الحرب فتساءلت نور:

– هل هناك جديد؟

– نعم قامت قوات الصاعقة بعملية كبيرة فى أحد معسكرات الإنجليز وكبدتهم خسائر كبيرة •

– فليحفظ الله الفدائيين وليكتب النصر لمصر يا دكتور نبيل •

– إن الخسائر المتتابة ستجبرهم على الاستسلام •

– لقد كبدونا هم أيضاً خسائر لا حصر لها •



- الحرب يخسر فيها كلا الفريقين يا نور المنتصر والمهزوم ولكن  
برحيلهم سنشعر أن شهداءنا لم تسلم دماؤهم هدرًا •
- إنهم يجاورون الرب يا دكتور نبيل فالشهداء لا تذهب دماؤهم هدرًا  
حتى لو خسرنا المعركة •
- صدقت يا سيد يعقوب ولكن نبيل يتحدث عن شعورنا نحن فرحيلهم  
يؤلمنا والنصر يخفف وطأة الألم بداخلنا •
- كأنك تصف ما بداخلي يا سيد مختار •
- "فلتهداً روح دانيال وسامر وشهداؤنا الأبرار يا يعقوب" • بحزن عقت  
ساردة شاردة •
- لماذا تلتزم الصمت يا شريف؟
- لاشئ يا نور •
- هل أنت بخير يا حبيبي •
- مادمت بخير فأنا أيضاً بخير •
- سلمت لي •
- ابتسم يعقوب ثم عقب قائلاً: "ولإيريني أيضاً" •

رمى شريف يعقوب بنظرة دهشة كأنما يسمع اسم إيريني لأول مرة  
بينما هز يعقوب رأسه بالإيجاب مذكراً شريف بإيريني التي تنتظره،

ولم يفعل ذلك إلا ليوقظه مما هو فيه ومما فعل أمس وكان مناقضاً  
لطبيعته وأسلمه إلى ذهول وانزواء أنساه ما حوله • لقد بلغ شريف من  
نفس يعقوب مكانة جعلته يحل محل ولده الوحيد لما فعل •

كل منا بداخله جراح أحدثها أناس أصابونا، وتوهمنا أنها لن تُشفى  
ولكن الإنسان صانع السهم والدواء معاً يصيب ويشفى، يؤلم ويداوى،  
هذا ما تعلمه يعقوب ويوسف أيضاً •



(٩)

"الجميع الآن يتربص وصول الرئيس".

هتف المذيع من خلال المذياع معلناً اقتراب وصول الرئيس "جمال عبد الناصر" إلى بورسعيد بعد أن تسلمت قوات البوليس المصرى وبلوكات النظام ببورسعيد الباسلة ورحل آخر جندى بريطانى يوم الأحد الموافق الثالث والعشرين من ديسمبر.

فى اليوم التالى قرر الرئيس "جمال عبد الناصر" دخول مدينة بورسعيد ليحتفل مع أبطالها بالنصر على قُوى الشر التى أرادت بوطننا هلاكاً فتجرعته ورحلت بعارها.

ظهر البشر والسرور على وجه شريف ومختار بينما بكى يعقوب وهو يتذكر ولده وقرة عينه فاقترب شريف منه وقال:

– إنها لحظة الفرح والسرور لقد حققت مصر ما أرادوه ودفعوا حياتهم ثمناً له.

– لا تتصور أنها دموع حزن بل فرح وسعادة، وإن كنت أتألم لفراقه فأنا أتصوره الآن وهو يهتف فرحاً بالنصر ووصول الرئيس الذى احتل مكانة كبيرة بنفسه كانت تثير دهشتى.

– إذن فلنسعد ببسماتك لا بعبراتك التى تذرفها الآن.

تقدمت سارة تحمل صينية عليها أطباق الحلوى ووضعتها على المائدة وهى تبتسم وتقول:

"ما أجمل السعادة التى ترفرف علينا الآن، لا حرمانا الله منها ولنهدأ روح كل شهيد اليوم وذويه أيضاً بالنصر الذى تعلو له هامة مصر وتنحنى هامات المعتدين".

– لقد بُنرت هاماتهم.

– أصبت يا شريف لقد استطاع الأحرار بتر رءوسهم ودفن غطرتهم ولكن أين ولدى وابنتى أيضاً.

ابتسمت سارة ثم أجابت:

– إنهما بالحديقة منذ نهض يوسف من فراشه ولقد طلب منى الزواج منها.

– أحقاً يا سيدتى؟! أحقاً ما تقولين؟!

– نعم ولقد وافقت بالطبع على زواج ابنتى من البطل الذى اقتداها بدمه ووافقت نور فوراً.

كان يوسف قد تجاوز محنته بإرادة قوية بثنتها فيه نور، وحينما تمكن من هبوط السلم قرر أن يتجه معها إلى الحديقة لينعم بالحديث معها وحدهما بعيداً عن صخب السياسة، والناس وكأن الحديقة هى جنة آدم وحواء التى تخلو لهما وحدهما لا يزعجهما أحد فيها، وحينما دخلا الحديقة جلست نور على الأرجوحة كما طلب منها يوسف تستند رأسها إلى مسندها وهو يهزها بخفة ويتأملها وكأنه يراها لأول مرة، صمت يوسف برهة متأملاً لها فابتسمت وقالت:

– فيم شرودك وأنت معى؟

– فيك يا نور القلب والحياة •

– سيتوقف قلبي لعبارتك التي لم تألفها أذنأى ولم تطرق قلبي من قبل •

– لقد أدركتُ أن لدى فيض من المشاعر حجزه سد الكراهية والحدق  
فجعله حملاً ثقيلاً وحينما بذلته لأجلك بدأت أشعر بخفة وسعادة لم  
أعرفها من قبل •

– الكراهية إحساس نشأ بداخلك لأن من أحببتهم جحدوك، فتحولت  
مشاعر الحب إلى نقيضها وأنت فى حقيقة الأمر فيض من المشاعر  
لمساعدتك الفقراء ولكنك لم تفهم نفسك •

– أنت تعرفين نفسى أكثر منى •

– لأنك كنت محور اهتمامى وتفكيرى •

– هذا هو بيت القصيد أنت يا نور، أنت من هدم السد لتظهر مشاعرى  
الحقيقية وأرى نفسى جيداً لقد تصورت نفسى يوماً ما كائنأ مفترسأ  
بحسب تعبير نبيل صديقى •

– برغم وصفه القاسى إلا أنه يدل على حبه لك ربما أراد استقرازك  
إشفاقأ عليك من نفسك وما تفعله بك • ولكن ثق أنك ستظل بقلبى إلى  
الأبد ولا يتسلل إليك ذرة من ريب فى ذلك •

ظهر نبيل متقدماً من ناحية باب المنزل الخارجى واتجه نحوهما  
مبتسماً وقال:

– ما أجملكما! لا أريد ان أكون كهادم اللذات •

- أحسنتَ وصفًا يا صديقى العزيز •
- لدى خبر سار لكما •
- ما هو يا نبيل؟
- وصل الرئيس الآن إلى بورسعيد والناس يلتحمون به فى مشهد يشبه يوم الحشر •
- الحشر! من أين لك بهذه الكلمة أيها اليسارى •
- أقسم لولا وجود نور لسددت إليك لكمة أفقدتك جميع أسنانك والأمل فى الزواج بهذه الجميلة •
- ضحكت نور ثم انتفضت وقالت:
- لقد أسعدتنا بهذا الخبر إن وصول الرئيس يضع اللمسات النهائية للنصر •
- نعم يا نور لو شاهدت فرحة الناس فى الشوارع لأدركت حجم الحسرة التى يعانيتها جنود الشر •
- لقد انتصرت إرادة الشعب المصرى يا بلبل على قوى الطغيان وستطوى أسطورة بريطانيا العظمى فى قبور الشهداء إلى الأبد لتزول ويُخلدون •
- ابتسم نبيل ناظرًا إلى السماء ثم قال:
- "سلمتِ يا مصرُ ودامت عزتك مادامت على الأرض حياة" •
- تمت بحمد الله تعالى وفضله